حسام آل زوين
لقد
قصدها
يوماً

لقد قصدها يوما

رواية

حسام آل زوين

2024

لقد قصدها يوما

حسام آل زوين

رواية

الطبعة الأولى: 2024

تصميم الغلاف: أحمد المالكي

التنسيق الداخلي: فلاح العيساوي

إصدار منشورات أحمد المالكي

العراق - بغداد - شارع المتنبي

موبايل

07733929378

07819313395

البريد الإلكتروني

ahmedalmaliki0090@gmail.com

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد

0000 لسنة 2024م

الرقم الدولي: 0 - 0 - 000 - 9922 - 978

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف.
الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حسـام آل زوين

لقد قصدها يوما

رواية

٢٠٢٤

الإهداء

إلى

يوسف . . .

لقد قصدها يوما

قطارٌ لا يملُّ السفرَ، ناثرا بذور الأمنيات.

أدب السيرة الذاتية يعتني بتوظيف تجارب الكاتب التي مر بها من خلال الأحداث المتسلسلة لحياته ومدى ارتباطها بتفاعلات المجتمع السياسية والعاطفية له.

أستنطاق النص:

يمضي بنا الكاتب بمقصد عبر محطات لحياة عاشها وسبر أغوارها في قطار شبهه بقطار العمر. يجترح طفولته ببراءة تشهد لها ذاكرتُه، ويسير بقطاره عبر سبعة فصول حتى يختتم محطته الأخيرة بما يشبه استراحة المقاتل. يعاود كفاحه بعد ما خسر كل شيء عدا إحساسه بالحب الذي يعاود النهوض حتى ولو عبر كلمة تقال أو تدبّر في الكتابة للتأريخ.

"لقد قصدها يوما" هكذا يصافحنا العنوان، وهكذا تبدأ رحلة الوعي تزامنا مع انبثاق أول تأسيس لحزب اخرج شطأه منذ الثلث الأول من القرن الماضي، حزب ناهض من بين جماهيره الكادحة، رافضاً وعد بلفور، لا يقيم شأناً للاستعمار أياً كانت طبيعته، كذلك كانت بداية السرد وتواصل السفر عبر محطات منقوعة بالألم والتمرد والاحتجاج والمغامرات التي لا يألفها من هو خارج تنظيم يساري متجذر في الوعي. بذرة نضال ما ان

نشأت وترعرعت حتى خانتها كل ظروف الإنبات، فبات الكاتب بشخص "وسام" راصدا لمعظم ما اجترحه الحزب عبر تواجده داخل العراق وخارجه ونضاله برفقة المناضلين والأنصار.

الحب رديف الكفاح:

"وسام" الشاب الريفي الرهيف الخجول والناشيء في عائلة دينية أسست لها وجودا واع وسط مجتمع تسيطر عليه تقاليد بالية عمادها الخرافة والقدريات وسوء الطالع على امتداد علاقة السيد الإقطاعي مقابل العبد الفلاح ممن يعيش هو وعائلته على قدر ما يسد قوتهم اليومي. كُتبَ لثورة الفلاح والعامل النجاح لكن لم يحالفها الحظ في التواصل حيث شن في الضد منها جحفل الإقطاعيين والسراكيل ومن عينتهم مطامع دول عربية وأجنبية تحت ذريعة الوحدة العربية لتستظل بقية الدول تحت خيمتها وتحت تسلطها. ما ان نهضت الثورة حتى تكاثرت العصي من كل الأشكال لعرقلة عجلة المضي صوب بناء مجتمع يتنفس كامل حريته وكرامته. وأما الاستعمار فقد رصد مسبقا ما في هذه البلاد من معادن وخيرات وصار يعد عدته لثلم وتفتيت كل ما هو وطني.

الأسلوب:

العمل الأدبي الذي بين أيدينا يتراوح فنيا ما بين التسجيلي وأدب السيرة، سرد ينضوي في جنس رواية قوامها ٣٢٥ صفحة من القطع المتوسط بسبعة فصول.

يهمنا في هذا المعترك الحياتي كيفية إخضاع السيرة الذاتية والواقعية التسجيلية للخروج بما هو حي وممتع. يشير خيال السيرة إلى قصة تستخدم شخصيات وحزمة من أحداث مختلفة لتمثيل تجارب المؤلف، وبعبارة أخرى ينسج الكاتب تجارب حقيقية عاشها وعاناها جل عمره، الطفولة والشباب، وارتباط كل ذلك بصراعات تتكشف عبر السرد، المعنى الأعمق عن حياة المؤلف، انحداره الطبقي الريفي الديني، باكر وعيه، طموحاته، عاطفته وتعاشقها بين حب لم يوفق في تحقيقه بحكم الفارق في مفاهيم الحياة وحبه بل عشقه لانتمائه السياسي.. حب نضج لاحقا بحبيبته (سفيتلانا)، بين مغامراته واغترابه ومناشطه العلمية والسياسية والفنية وبين أحلامه في عودته لوطنه ليساهم في تنوير أبنائه والانتصار لقضية آمن بها بلوغا لشعار: لكل حسب طاقته ولكل بحسب حاجته، وإذ تشمل الشخصيات والمواقع والجداول الزمنية والأحداث والصراعات، وحتى الحبكة روح المؤلف على انه قد كثف كل عناصر روايته في شخصية مركزية - وسام - واستثمار ذكريات الصبا ومن ثم يفاعته مدن الفرات الأوسط. ضبطه لوتيرة الإيقاع الخاصة به كمؤلف، شخصيات، مواقع، أمكنة، تجوال ورحلات وكأننا أمام أدب رحلات فعلا. على ان وتيرة القص قد عجلت من مدى تأثير القصة في ختامها بما تحمله من شد ومتعة المتابعة.

الوصف واللغة:

لا شك ان شيطان السرد يكمن في التفاصيل، والوصف واللغة، حيث يوجد الكثير منه. لدينا بطل رواية وحبيبة عاشقة تنتظر بفارغ الصبر اللقاء والاقتران بحبيبها العراقي، صراع مركزي، ومخطط عام للقصة بين حزب قومي يتخذ من الاشتراكية شعارا مضللا للخداع والمناورة تشبثا بالسلطة دون وازع حتى بارتكاب ابشع الجرائم التي عرفتها البشرية في اغتيال وتصفية الوطنيين سيما الناشطين الواعين، ودق أسفين "ديني" نجح في توظيفه في الاستحواذ على السلطة ولكي لا يسحب البساط من تحت ارجل حكامها المتسيدين على رقاب شعب واقع في حيرة تشخيص هوية من يدفع بهؤلاء ممن لا يرعوون في القتل بشتى الأساليب والسبل.

الصقل والتحرير:

قد يستغرق الأمر بعض الوقت للخروج ولتفحص النص من زاوية اكثر موضوعية، فالعملية برمتها هنا تستدرج ما يعرف ب (الفلاش باك)، حيث تتشابك فيها العلاقات الواقعية والمستحدثة عند خروجها من عمقِ الكاتب وقناعته وتجاربه، فالسيرة لم تعد كتابة تاريخية، بل ممارسة إبداعية ومهارة لغوية تحمل خطابا أو مجموعة خطابات، تجمع بين متعة الذكريات، ومتعة الخيال. أما لغة الكاتب فسلسة واضحة قد تتخللها بعض التعابير الأجنبية بحكم تواجد شخصية البطل في دول قصدها، لا يحسن أهلها

اللغة العربية. وأما استعارته لقصائد شعبية وغنائية وأمثلة فكانت لتعزز تكثيف ما ابتغاه بتضمينه للسرد.

خاتمة:

هذا اللون الأدبي الجامع بين ادب المذكرات والتسجيلي والسيرة والسرد الروائي من الصعب نسجه في رواية جامعة لكل مقوماتها، ولكون المؤلف يلج هذا الباب من قبيل تسجيل موقف يكشف حقيقة الالتزام بمركزية الحزب الذي أشار إليه... ثمة إشكالية أشار إليها المؤلف بذكاء الا وهي؛ أين ثمرة كل ذلك النضال على مسار العالم الذي تحققت تجربته الاشتراكية العلمية في الاتحاد السوفياتي مقابل التفاف عالم شركات الرأسمال في إطفاء جذوة الكفاح المسالم لمسار الأحزاب الشيوعية التي تتلقى الضربات تلو الضربات مقابل عدم التهور وانصياعها التأريخي لتنامي الوعي لدى الطبقات الكادحة أبان صراعها الطبقي الذي أكده الاقتصادي كارل ماركس.

وأذن النفخ في الرماد مجلبة لسؤال أخير: هل ستنطفيء النار التي وقودها الناس والحجارة؟!، هو ذا السؤال.

قراءة الأديب

صباح محسن جاسم

كاتب من العراق

... كنا أطفالا وصبيانا نرتع ونلعب عند سكة القطار القديم بهديره وزفير خياشيمه من البخار المنفوث الهائج إلى عنان السماء ليلحق بالغيوم، أو فتية نعمل ونقرأ في الحقول والمزارع والبساتين القريبة والمقابلة لبيوتنا والتي يفصل بينهما خط سكة القطار القديم القادم من بغداد متجها إلى الجنوب، وحينما نتعب ويكون الطقس معتدلا طيبا نضطجع على عشب الأرض وتتشرب رائحته بخياشيمنا وملابسنا، نراقب حركة السُحب والغيوم، سريعة تارة وهادئة تارة أخرى، عالية بيضاء، واطئة رمادية سوداء، تتقارب تتقلب تتداخل تتراقص تدور تتبختر تحتضن بعضها البعض في زرقة السماء الجميلة وتتقلب رقابنا وتدور رؤوسنا مع حركتها وتلاحقها الأبصار وحينما تدنو من الأرض مثقلة بمطر الأحزان تفرغ ما اختزنتْ من الخير تروي النبت وتبهج النفوس والعيون، تنهض وترتفع مرة أخرى بخفة تواصل المسير من جديد لتشكل صوراً ولوحات سريالية تصوغها مخيلاتنا وكأنها ديناصورات أو طيور لعهود غابرة بأجنحتها الكبيرة الأسطورية تطير تتقلب وتهوي بها الريح حسب سرعتها وشدتها واتجاهها.. تتباعد تختفي ما وراء البساتين والمزارع ونحسبها قد تلاشت للابد.

وما ان عاد الربيع القادم تشابهت صور التكوين ذاتها كما في العام الفائت وما قبله، مما يحقق البرهان الجازم بان لقوانين الطبيعة دورتها. أو قد تكون في حياتنا وبصدفة تُركت أمانة ما،

مركـونة مخـزونة بعمـق في لفالـيف الذاكـرة ومنذ ان خُلقنـا مـن علقٍ، مرت كالوهج لبرهة من الزمن قد تظهر بعد حين.

أهي الحياة هذه!.

وقد تكون مثل نبتة ظمأى تُركتْ ولم تُسق منذ حين وعادت إحياء نفسها وانبعاثها من جديد، أو كغصن وردٍ لم يبرعم في وقته لظرف ما، لسبب ما..، وبعد ان عصفت به ريح الخريف ومسه برد الشتاء فارتوت جذوره وأشرقت من حوله شمس الربيع، فتفتقت براعمه وانبثقت وريقاته المخضرة وزهره الأحمر، ونقول دبت الحياة، نعم هي كذلك الغصن الذي أهداه حينها لحبيبته في سندانته عندما اضطر ولدواعي أمنية وسياسية مغادراً مجبراً لترك المدينة التي أحبها ودرس فيها في نهاية السبعينيات وحيث اقتضت الضرورة لذلك، ظلت هي محتفظة بالسندانة وغصنها بغرفتها أمانة وحباً بعد الغياب لسنين تنظر إليه في الصباح وتناشده في المساء ولم ترمه.. وظنوا بان الغصن قد مات..، تركَته لوقت طويل، ولوقت طويل أخر أينعت براعمه من جديد وتشابكت وانتشرت تفرعاته زحافاً بمحيط الغرفة التي سكن فيها آنذاك تدنو ناحية الشبابيك والشرفة والشمس.

حينها أخبرتها أمها وبإصرار بان وساما لايزال حياً يرزق ولم يستشهد وفق الأخبار والنشريات المتضاربة القادمة من الوطن حول قوائم الشهداء والمفقودين في أحداث بشتآشان ١٩٨٣ وقالت لها:

- سوف يعود لك يوما.

أوضحت لامها والدمع يرقرق في عينيها:

- أنا قلقة يا أمي، أنا أتعذب وفي حيرتي ما بين الحب والشك واليقين،... ولكنني أحبهُ أحبه أحبه وسوف انتظره بما امتلك من قوة وصبر.

بما أخبرتها أمها؛ كان وفقا لما سمعته من أحداث الحروب من أهلها، عندما كانت فتاة يافعة ولاحقا لما عايشته في انخراطها في صفوف الأنصار للجيش السوفياتي خلف خطوط النار، وكان هذا أيضا من ضمن المعتقدات الروسية والسوفياتية السائدة آنذاك في فترات الحروب المتعاقبة التي خاضتها روسيا والاتحاد السوفياتي فيما بعد، ومنها؛ الحرب الوطنية لعام ١٨٢١ ضد الغزو الفرنسي للإمبراطورية الروسية، والحرب الوطنية العالمية العظمى في الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ بين روسيا والإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية، وفترة الحرب الوطنية العظمى التي دارت معاركها بين جمهوريات الاتحاد السوفياتي وبين ألمانيا النازية الهتلرية وحلفائها في الحرب العالمية الثانية ١٩٤١ - ١٩٤٥، أي عندما يغادر المحارب الأهل إلى جبهات القتال ويتأخر بالعودة والرجوع للأهل أو تنقطع أخباره عنهم لسبب ما وبنفس الوقت يتأخر اخضرار أغصان الشجيرة التي غرسها في البيت ثم تعود وتتبرعم وتخضوضر الأوراق بعد حولٍ أخر، فانه يبشر ببشائر خير وأمل وفرح... والريفيون يعتقدون بان المحارب لم يمت وانه لازال على قيد الحياة وسوف يعود للديار وللأهل يوما، واصبح فيما بعد معتقدا متداولا بين الناس.

أو هو حظ مقسوم مكتوب مؤجل إلى حين، وعبر محطات العمر ومعاناة الطريق يوصلك ويفاجئك باليسر في نهاية المشوار. وحملت ذاكرة الفتوة اسماءاً لن تُنسى، أسماء ديار ومدائن وموانئ حَفظَتْها من أيام الدراسة الابتدائية والمتوسطة من خلال القراءات المتفرقة المتيسرة أو من خلال ما يطرق على الأسماع من أخبار السياسية في فترة المد القومي ونهوض حركات التحرر والتي لم ندركه بالتفصيل وفقا لمستوى الإدراك والوعي الاجتماعي البسيط والسائد في تلك المرحلة. والذاكرة وبعد حين من الدهر نفح أريج عطر وأطياف شذر، ذكريات حب لزهرات العمر ومحبة محببة لازالت في القلب، تسر النفس بذكراها وطيفها، قد تكون بعض من هذه الأسماء قد أرست بالذاكرة مرساتها، أو قد يكون مرورها عابراً كمرور تلك السُحب في السماء تبعا لحركة الريح.

ومن بين هذه الأسماء العابرة أو الموعودة التي مرت بالذاكرة وطرقت بمطراق بابها ونوافذها من جديد؛ تلك هي بخارى سمرقند، بخارى، طشقند، تلك الديار في بلاد ما وراء النهرين في آسيا الوسطى التي عاش فيها قصدها وهاجر إليها وعاش وابدع فيها خيرة العلماء العظماء في الطب والكيمياء والفلك والفلاسفة والشعراء والرحالة في القرون الوسطى؛؛ الخوارزمي، البخاري، الترمذي، الفارابي، الفردوسي، البيروني، ابن سينا، عمر الخيام، الفردوسي ابن بطوطة وغيرهم الكثير من الذين اثروا التراث الإسلامي عموماً. وأخريات من الأسماء؛ موسكو، ميناء بيريه في أثينا، عدن.

وبعد حين؛ أمست نفحُ أريج وعطر وأطياف شذر، حبٌ وذكريات، حب في زهرة العمر لكنها تاهت في مهبات الزمن وقساوته المتتالية وظلمه، ووطنه الام الغني الذي لم يرع ابناءَهُ المخلصين أنقياء الضمير والوجدان، اهملهم ولم يلمَهم فتشتتوا في جميع أصقاع العالم، لكن محبة هذه المدن وأناسها لازالت في أعماق القلوب، تسرُ النفس عندما يطرق السمع رنينها، عبقت ذكراها وأطيافها وطعمها ولحنها وصداها وسكنت في قلب وعقل وضمير وسام الفراتي الريفي المتواضع القنوع الراضي الساري بهذه المحطات؛ سمرقند، سمر قند، قند، بخارى، طش قند، طشقند، شكرقند، قند، قنده.

لقد كانت تحلو له هذه التسميات منذ أيام الطفولة والمدرسة ويردد قسما منها مع زملائه التلاميذ في الصف بلحن طفولي جميل.

أهو بك الموعود في كل دروب العمر ومحطاته، أم عليك هو المكتوب!.

1

أيام الطفولة والصِبَا كانت تأخذه جدته شنيار إلى زيارة المراقد المقدسة في بداية الستينيات، وبالأخص عند حلول موعد الزيارات والمناسبات الدينية والأعياد لزيارة الإمامين الحسين واخيه العباس وباقي الصحابة في الطريق؛ ومنهم عون بن نجم والحر الرياحي (عليهم السلام) في مدينة كربلاء لكونها أماكن قريبة ولسهولة النقل بالقطار القديم من بغداد إلى الجنوب والذي يتفرع من سدة الهندية (يا ريل مر على السدة) ويعبرها متجها صوب مدينة كربلاء، وعند محطة الإمام عون بن نجم (ع) حيث تبين قبته الزرقاء السمائية ومنارته، يتوقف القطار عندها، يهرع الناس مشيا وجهتهم لمرقده الذي يقع على حافة الطريق بغداد - كربلاء ويعتبر نقطة ومكان وصل وموعد والتقاء واستراحة لهم.

عند الاقتراب من المنحنى الذي يؤدي إلى مدينة كربلاء ومن على هذا البعد تلوح للناظر القبب والمنائر المذهبة ورياتهما الحمر وحين تكون بالقرب من الأضرحة وتدخلها وتتطلع إلى روعة العناصر المعمارية الإسلامية من المداخل والأعمدة والتيجان والدواوين والأقواس والقبب والمقرنصات المغطاة بالمرايا العاكسة للضوء والسيراميك والموزائيك الكربلائي

والإيراني والمزينة بالزخرفة الإسلامية وبشتى الألوان الأزرق، الفيروزي، السمائي والشذري وبناء الطابوق (الجف قيم) والأرضيات المكسية بالمرمر الأبيض، يفغر الفم لكل هذا الجمال والذي يجمع الروعة والأبهة والهيبة والرهبة في ان واحد.

وفي مراقد الأئمة جميعها وأواوينها وصحونها وبالقرب من الزائرين يرفرف الحمام بمختلف الأنواع مطمئنا باعثا الأمان والسلام، ومداخل الأضرحة تجدها تفوح برائحة ماء الورد الطيبة التي تضفي أجواء من الطمأنينية والهدوء والراحة والتأمل والتفكير، وكل هذا امسى مركونا بذاكرة الطفولة منذ ذلك الحين وكلما تحين زيارة أمكنة أخرى ورؤية عناصرها المعمارية تبدأ الذاكرة بعرضِ ومقارنة ما خزنتْ من موروث وارث ذلك الزمن الجميل.

يمكث الزائرون القادمون من مختلف المدن والأرياف العراقية البعيدة والقريبة ليلة وليالي لزيارة الإمام عون بن نجم (ع) وتقديم النذور المستحقة من اجل الشفاء للمرضى والشفاعة والعافية، حيث جرت العادة بالاعتقاد السائد لدى الناس الريفيين البسطاء والفقراء عند زيارة مرقد الإمام عون وربط المريض بشباكه بسلسلة بها قفل صغير أو شريط اخضر(علك) ولثلاثة أيام من قبل (الكيم) القائم بالأعمال والمشرف على المرقد، وبعدها حينما ينفتح القفل أو (تنفتح العكدة) عقدة الربط فهو إيذان وعلامة بالشفاء وبخروج الشيطان اللعين من رأسه والمرض من بدنه وبشفاعة الإمام.

في بعض الأحيان تشاهد عصبة الرجل المريض (يشماغه أو غترته) أو عصبة المرأة المريضة (عصبة الرأس) ترمى أو تطير(تُعلق) تحوم فوق شباك الضريح والجميع يشاهد ذلك، والمريض ينتظر دوره لفك العقدة والتشافي، وهذا يعتمد على عمل القائم بوساطته وتوصيته ورجائه ومناجاته للإمام عون ووفقا للاتفاق المسبق بالنذور نوعها وحجمها المقدمة لحضرة القائم (الكيم)، وبعد هذا، تُخرجْ وتتأول وتكبر وتنتشر الحكايات والاحاديث والأقاويل والتصورات وتصاغ بشكل مسرحي يؤدي أبطالها من الأطفال والنسوة دورهم ومخرجها (الكيم) واتباعه.

بعد أعوام أَلَموا بكل هذه القصص وما فيها وفي كيفية صعود الغترة أو العصابة تحوم فوق شباك المرقد؛ حيث تدبس بالخيوط البلاستيكية عديمة اللون والتي تستعمل في تلبيس (السبح) وفي صنانير صيد السمك والتي انتشرت في فترة الستينيات. في السنة القادمة وحسب وعودهم يأتون بالنذور والأنعام وما تيسر لهم من الدجاج والبيض والأغنام إلى المرقد ويسلمونها إلى (الكيم) والمسؤولين القائمين على الرعاية والعناية بالمرقد على طيلة أيام السنة وبخلاف ذلك يعود الشيطان ويدور من حوله ويرجع المرض ويسكن مرة أخرى وتفسد القضية برمتها وهذه هي قسمة الفقراء وحظهم العاثر.

يناشد وسام نفسه ويسائلها أسئلة تدور في مخيلته ومنذ الصغر:

- ما الذي يفعله الفقير والمسكين للشفاء من مرضه إذ لم يستطع شراء النذر هذا وتقديمه للقائم (الكيم)، وهل الإمام لا يشفي مريضه عند عدم تقديمه النذر، اليس الإمام مع العدل ومساعدة الفقير، وما حاجة الإمام من النذر وماذا يفعل به!.

- ولمه لم أر أحدا من مرضى عوائل الأغنياء والميسورين من معارف المدينة في حضرة الإمام عون زائرا أو مربوطا بشباكه يترجى الشفاء، أم ان أبوابهم موصدة بشكل لا تتمكن الأمراض من اختراقها!.

في هذه الأجواء يَرِده سماع صدى جواباً لاستفساره من أجواء المرقد:

- لاحول ولا قوة الا بالله في ذلك يا بني، فما عليهم الا بالصبر وتنفيذ الوعود والإتيان بالنذور، والا فلا يرضى عليهم (الكيم) ولا تقبل وساطتة.

ويوضح الصدى بجوابه أيضا:

- والأغنياء بإمكانياتهم يذهبون بمرضاهم للأطباء لكي يوفروا المكان لغيرهم.

وهنالك خلف المرقد لاحظ وسام مكانا شبه حضيرة لتجميع النذور أو لإعادة بيعها لمن يرغب بالشراء حسب أسعار العرض والطلب.

يذكر وسام عما رواه والده:

- حول مراجعات الناس الفقراء والمساكين لعيادات الأطباء عما يشكون به من أمراض يصعب علاجها وشفائها عند مراجعة المستشفيات العامة الحكومية والعيادات التي تتطلب مبالغ صعبة

التمكين بان هنالك عيادات لأطباء عراقيين فتحت أبوابها أمام هذه الشرائح من المراجعين القادمين من المدن والأرياف الأخرى إذ تيسرت لهم السبل للوصول إلى العاصمة، ويخص بالذكر عيادات لأطباء من الجالية اليهودية في بغداد ازدحمت ولأيام مخصصة لاستقبال الناس الفقراء والمحتاجين لإجراء الفحوصات الطبية مجاناً وتقديم العلاجات والأدوية لهم من خلال تجميع عروض الأدوية (السامبلات - النماذج) التي تقدم من الشركات العالمية آنذاك، يذكر منهم الطبيب جاك عبود شابي والطبيب داوود كبّاي وغيرهم في المحافظات الأخرى والذين ذاع صيتهم بتعاملهم الراقي مع مرضاهم مما جعل النسوة تطلي أبواب عيادتهم بالحناء ردا للجميل وكما يفعلها المرضى عند الشفاء في اطلاء أبواب وأعتاب الأضرحة للائمة الصالحين.

يذكر وسام:

- لقد تعرفت على هذه (السامبلات) من خلال عملي لاحقا في صيدلية احد الأقرباء، حينما تقوم شركات الأدوية الأجنبية بتوزيعها على الصيدليات وعيادات الأطباء في المحافظات في علب كارتونية أو بشكل حزمة كتيبات دعائية، ومن خلال الطوابع الملصقة عليها نتعرف جهة الصنع، وفي داخلها نشرة باللغة الإنكليزية للتعريف بماهية الدواء ومحتواه ودواعي استعمالاته وعلاجه وبعض الإرشادات، واكثر ما يهمنا نقوم بإزالة الطوابع الملصقة وجمعها.

وان هؤلاء الأطباء ورغم التضيق والتنكيل بهم والاتهام والاعتقال والاعتداء عليهم من قبل السلطات ما بعد ١٩٦٨

رفضوا الإجبار بمغادرتهم العراق والهجرة إلى إسرائيل واعلنوا بأنهم عراقيون ولا يحبون ترك بلدهم العراق الذي ولدوا وترعرعوا فيه.

وبأكتضاض الضريح بالمرضى والزائرين وخصوصا في المناسبات والأعياد الدينية في شهر رمضان وعيد الأضحى يخرج الكثير منهم ويتجمعون في الفضاء المقابل للحضرة في الليالي القمراء حيث يحلو الجو هناك لان المنطقة المحيطة بالأمام مفتوحة حتى الصحراء الغربية والجنوبية ومن شماله بساتين نهر الحسينية المتفرع من نهر الفرات، وفي الأعياد يقومون بشتى الفعاليات الترفيهية من أفراح وأعراس، دبكات ريفية (الجوبية) يصدح (المطبك) المزمار و(الدمام) الطبل في الفِناء والهواء العذب الهاب من البساتين والمزارع المحيطة، وفي هذه المناسبات تتم اللقاءات والمواعيد للزائرين والعوائل القادمة من مختلف القرى والنواحي الريفية القريبة والبعيدة عند باحة الإمام.

تحت ضوء القمر وجماله تتشكل الحلقات من الرجال والنساء والقادمين من الشباب بدبكاتهم (رقصة الجوبي) وذلك الإيقاع الجميل وملابسهم الجديدة وغترة الراس البيضاء التي تعكس الأضواء من على البعد و(اليشماغ) الأسود الأبيض والأحمر، الفتيات والنسوة عموما وحسب طبيعة أريافهن الجميلة يتميزن بحُسْن القد وهيفاء القوام وسهام العيون السود والشهلة والعسلية، وحمرة الخدود والشفاه الوردية من قشرة الجوز الخضراء الكردستانية، تتشابك الأيادي وتهتز الأكتاف والأرداف وتتراقص وتتماوج نهود البنات (الحديثات) الناتئة المملؤة

كالرمان الناضج في غصونه المتمايلة ما بين الهبوط والصعود بمطلق الحرية وبدون قيود (يحكم اكثر من طاق كسرى في ظلمة الليل)، يصورها القمر ويكشف سر جمالها، وتتلألأ أساورهن وعقودهن و(خزاماتهن) و(جنكال الشيلة) الذهبية وتلمع عباءاتهن البريسم لتبين ما تخفي من تكور ومنحنيات القوام المغرية، سبحان من كوّنَ وجَسّدَ. وينفذ من خلال (الشيله) وما تخفيه مما خلقه الله من جمال وروعة الأعناق وعقيق يتلضى يختبئ هنيئة بين خصلات الشعر المتدلى في الحنايا، تفوح منهن رائحة الورد الجوري، وتلمع خلاخيلهن الذهبية (الحجل) الراسية على أقدام طليتْ ورُسمتْ بألوان الحناء الحمراء، وأحذيتهن المشبكة المسماة آنذاك (أحذية الجركز) البيضاء.

لقد اختلط كل جمال البادية والريف لمدينة كربلاء باقضيتها ونواحيها مع البيئة المحيطة، وحيث القمر يرسل شعاعه المنثور على القبب والمنارات المكسية بالسيراميك والخزف الكربلائي بألوانه الشذرية السماوية الزرقاء البيضاء والنيلية. ورغم قرصة البرد الصحراوية والتي تمتزج مع نسيم بساتين الحسينية في الليل تستمر الدبكات بدون كلل حتى مطلع الفجر تشعرهم بالأحماء والدفء، الزائرون والعوائل قد استعدوا بتحضير وجلب ما لذ وطاب من الطعام والشراب معهم، و(قواري الشاي) التي لا تهدأ ولا تبرد حتى الصباح، والنسوة تنثر (تطش) الملبس والجكليت وحلوى المن والسلوى، وشربت ماء الورد، قند، شكرقند، قند، طش قند. لقد تكحلت عيناه عن قرب بطيبة الناس وبساطتهم وعلاقاتهم وبكل هذا الجمال الطيب البريء للإنسان والطبيعة،

ولم يمح من ذاكرته بكل جفاء السنين التي تلت ذلك الزمن الجميل.

عندما كان وسام صبيا يستمتع بمرافقة جده المعمم أثناء زياراته إلى بغداد وبالتحديد إلى الكاظمية والشورجة، فكان ذلك بالنسبة له يوم عيد، مبتهجا فخورا وهو يجلس بجانب جده عند نافذة عربة القطار على وجه الخصوص وسوف ينزلون في المحطة العالمية ببغداد وليشاهد أجواء المدينة وشوارعها العريضة وحدائقها وحركة الناس والمارة وأشكال والوان السيارات، ومن المحطة يستقلون الباص الخشبي يتوجهون إلى زيارة الإمام موسى الكاظم (ع)، ويلتقي جده مع معارفه في حضرة الإمام أو في السوق وبانتهاء الزيارة وإتمام لقاءاته يتوجه إلى مركز بغداد والى سوق الشورجة ليعرج إلى خان الهنود لزيارة أصدقائه هناك ذوي (السدارة البيضاء والسوداء الهندية) من مختلف الطوائف المسلمة الهندية والباكستانية، من البهرة والكشميريين.

يجلس وسام مع جده ويصغي إليهم حينما يجلسون يجتمعون يتبادلون يناقشون يتجاذبون اطراف الحديث وأخبار عن إقليم كشمير، الهند، باكستان، والمسجد الأقصى في فلسطين وأخبار العالم الإسلامي والأخبار السياسية الأخرى المتنوعة في مكاتبهم في الطوابق المشرفة على حركة العاملين تحتهم في الطابق الأرضي في تنظيم وترتب الصناديق والعلب وباقي المواد، كل ذلك كان يجري تحت نظره، وسام منهمك يراقب بانبهار ومتعة منظر التخزين الذي يغص بالبضائع القادمة من بلاد الهند

والسند والصين وايران؛ صناديق الشاي السيلاني وطيب رائحتها وعلب كارتونية تحتوي على أكياس (النومي بصرة - الليمون المجفف) وقناني (بطحيات، ربعيات) (ماء غريب) و(ماء الورد) للأطفال وشرائح مضغوطة من معلبات البرتقال المجففة اللذيذة (قمرالدين وقمرهند) المغلفة بالورق الشفاف الأصفر، وعلب الحلويات المتنوعة (الحلقوم) وعلب القند المخروطية المغلفة بالورق الرمادي اللون وعليها بعض الكتابات تحمل اسم الشركة المنتجة وماركتها (علامتها) وبلد الصنع بثلاث لغات هندية وإنكليزية وعربية.

بنهاية الزيارة يقف الجميع من الحاضرين استعدادا لتوديع جده، يسلم عليهم ويوعدهم بزيارة أخرى إذا كتب له قوة وعمراً، يساعده المقربون منهم في جمع أكياسه من الشاي والشكرقند وما استطاع من شرائه للبيت، وهو بهذه الأثناء قد خطط في ذهنه في كيفية توزيعها ولمن يستحقها، ويتم توصيلهما إلى سيارتهم ومن ثم إلى محطة القطارات رجوعا إلى مدينته، هذا مع العلم بان جده عند التنقل يستحسن المشي إلى محطة المدينة ويستقل القطار بدلا من استخدام سيارة ابنه.

وفي اليوم التالي وهو بهامته وبعمامته يقوم بتوزيعها على الفقراء والمعتازين والمستحقين من أصدقائه بيده يطرق الأبواب كلها باباً باب وفردا فرد، ينظر وسام إلى جده بفخر وهو بهذا العمر يقوم بمساعدة الناس بالأعمال الخيرية الإنسانية ويقارن ما بين ما يقوم به جده في عمل الخير بنفسه وبين أناس أغنياء غُلت

أياديهم إلى أعناقهم ولهم من فضل ربهم الإمكانيات المادية الكبيرة؛ من الأموال والأراضي والأملاك والعقار بما يفوق الغِنى.

يقول وسام:

- وكم احب جدي... لأنه يساعد المحتاجين والفقراء، والناس تحبه وتحترمه وهو يحب الناس.

- وكم احبه حينما يجلس على صندوق الكتابة مع دفاتره وأدواته من الأقلام (أقلام القصب) والمحابر، وأشاركه في تصفيف كتبه وأوراقه.

- وكم احبه بنظاراته وبلباسه الأبيض وحين ينزع عمامته السوداء ويظهر كانه المهاتما غاندي جالس في ركنه.

- وكم احبه عندما يصلي بالناس وقت العشاء وفي المناسبات ويتعلل معهم واحاديثه الطيبة وما يبديه من مواقف جريئة في مساعدة المحتاجين على وجه الخصوص وحل المشاكل بين الناس عندما يعرضونها عليه، لأنه ينظر للأمور بمنظار الحق والعدل والصدق ولا يحيد عنهما عند النقاش.

كان وسام يحبذ الجلوس أيضا وقت العصر عند عتبة دكان أبي مولود المقابل لخان المحمودية (الأثري) والمجاور لعلوة جاسم الجودة، ويستمتعون بالاحاديث التي تطرح بشكل عام تتخللها تعليقات مولود المقتضبة، أبو مولود ذلك الإنسان الطيب الهادئ البسيط، ومولود ذو الوجه الأحمر تعلوه زوائد لحمية لا تشكل له أية عقدة، وهو اطلس متجول حافظ لجميع عواصم بلدان العالم ورُؤسائها، كان يطوف المدينة منذ الصباح شمالا وجنوبا لبيع الصحف اليومية، إنسان مسالم طيب كأبيه حينما

يطمئن للجالس يحسن النقاش الهادئ وفي التحليل السياسي ايضا. ويروق وسام الجلوس عند الدكة حين يفتح أبو مولود الصناديق الخشبية الرقيقة للشاي السيلاني الأسود بأنواعها الخشنة والناعمة والمغلفة بورق معدني تفوح منها نكهة ورائحة الشاي الطيبة تلك بل وتغريه لاستنشاقها، وعلى الرفوف الخشبية تنتصب علب القند المخروطية المغلفة بالورق الرصاصي، قند قند، شكرقند، قندة.

نعم هي قندة... قنده قنده ياقنده؛ قندة فتاة ريفية فراتية طيبة عشرينية حسناء ناهدة كحيلة ذكية نشطة قوية الشخصية جريئة باسمة مرحة ضحوكة وكل اجزاء جسمها تنضح بالأنوثة والحب والرقة، كوردة الياسمين تفوح بالعطر، هي ابنة الفلاح شبادة طشت ذو القلب الطيب صديق جده، أصدقاء العمر. قندة تشبه إلى حد ما صورة (بنت المعيدي) تلك الفتاة الريفية جميلة الوجه والشعر والجسد التي أنبهر بها الضابط البريطاني واحبها ويقال بانه قد نهبها وهاجرت معه إلى لندن وتزوجها وصورتها تكاد تكون معلقة في معظم بيوت الطين الريفية البسيطة سوية مع صورة سيدتنا مريم العذراء حاملة طفلها عيسى المسيح (ع) وصورة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وسيفه ذو الفقار والأسد متحفزا عند نعليه.

تغمره السعادة والسرور والبسمة بقدوم ومجيئ قنده ومحُيّاها حينما تأتي بصحبة أمها بحجة زيارة جدته، وبثوبها الأبيض الجميل تذهل الأنظار كعروس البحر، كوردة القداح فواح عطرها بغنج تراقص غصنها، كمهرة أو فرس بيضاء هائجة اجتازت كل

الموانع من قرية النيل الواقعة على نهر النيل المتفرع من شط الحلة في المنطقة المقابلة لآثار بابل تحمل سلال مملؤة بما لذ وطاب من كل الألوان الأحمر والأخضر والأصفر والأسود ومن زرع وجني يديها تجلب أنواع الخضار والخيار والطماطم والرشاد (الرشاد؛ نبات عشبي اكل الفقراء له نكهة النعناع والطرخون غني باليود وفيتأمين س، والذي احبه وسام فيما بعد يأكله مع رغيف الخبز الحار، (وعند تناوله ينفتح اليافوخ، وكلما رأه في السوق اشتراه)، والشمام والبطيخ الذي تفوح رائحته المميزة الطازجة وتنتشر في معظم أركان البيت، ومما يأتي من الخيرات بعد سقوط المطر (الخبيز، الحميض، البربين، الفطر والجمة) في ارض جده التي وهبها هدية لصديقه السيد مكطوف ولأبيها شبادة أيضا قبل ان يستحوذ عليها السركال بفترة ما قبل قيام جمهورية ١٤ تموز ١٩٥٨، ايماناً منه بمقولة جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

- الأرض لمن يزرعها.
- وإعطاء الأجير حقه قبل ان يجف عرقه.

ويوضح جده:

- باننى حقا لست من يقوم بالعمل والجهد؛ أي بالحرث والزرع والسقاية وجني المحصول والحصاد.

لقد حفظ وسام هذه المقولات من الصغر وظلت راسخة في ذاكرته، كذلك احاديث جده في الشرح والتوضيح فيما يخص عمل الفلاحين وحقوقهم، ولقرب وسام ومعايشته لواقع الريف،

أصبحت هذه الاحاديث فيما بعد مدخلا ومقدمة لقرائته بفهم قانون الإصلاح الزراعي ٣٠ لسنة ١٩٥٨.

والد قندة ذلك الإنسان الطيب البسيط طويل القامة، لم ينحن ظهره رغم الجوع والفقر والظلم والجور والحرمان والمعاناة والمرض والتي ذاقها وكغيره من عموم الفلاحين من قبل هيمنة الأقطاع وقمع وقسوة السلطات الحاكمة التي يهمها مصالحها لا مصالح الشعب طالما هي باقية على دست الحكم.

بهذا الصدد يتذكر وسام عندما كان صبيا ويقول:

- ذات مرة كنت مع أبي وجدتي في زيارة لهم إلى الإمام (الحمزة أبو حزامين) في قضاء المدحتية وأمسينا ليلتنا في قلعة احد الشيوخ الذي تنحدر زوجة جدي الثانية من عشيرته، وفي الصباح وبالخطأ تسللت من الغرف الجانبية في القلعة إلى داخل الديوان في قصر الشيخ، القصر يتوسط بستان صغير، وهذا البستان في وسط القلعة تحيط به أشجار الفاكهة من كل الأنواع والألوان من التفاح والبرتقال والليمون والرارنج والرمان ورائحتها تخترق الديوان من نوافذه.

- وعند دخولي الديوان الواسع وسقفه العالي المرتفع أبهرني الكرسي الكبير المزخرف المذهب والذي يتوسط عدد كبير من الكراسي المذهبة موزعة على جانبيه من اليمين واليسار ومن الأمام، ودفعني الفضول والرغبة للجلوس عليه، ومن خلفه حائط مزين مرسوم بعلمين متقاطعين وفي وسطهما شعار المملكة العراقية التاج الملكي مرسوما بالألوان، ومن خلال الستائر المتدلية للنوافذ الزجاجية الكبيرة والتي تطل على ساحة البستان

شاهدت ساحة دائرية علمت فيما بعد بانها صممت لهبط مروحية صغيرة، وفي الكراج المجاور للقصر هنالك سيارة شوفرليت ذات اللونين الأخضر والأبيض مغطاة (بالجادر)، أرضية القصر مكسية من السيراميك الصقيل الأسود والأبيض موزعة بشكل رقعة الشطرنج تلمع كأنها مرآة وكالتي نشاهدها في القصور المصرية والإيطالية في الأفلام القديمة الأسود والأبيض، ودواليب زجاجية مرصوصة (بوفيه) مملؤة بالصحون والأواني والكؤوس الملونة والمذهبة ويفوح منها عطر رائحة طيبة علقت في دواخل الأنف اتحسسها وبعمق الذاكرة واقلبها طيلة السنين وعرفتها بأيام الشباب بعد حين أنها عطر(البروت)، فمن أين لهم هذا!.

ويستطرد وسام في القول:

- ولفت انتباهي عُقُلهم المنفوشة متوسطة الغُلظ وحطة الرأس (الغترة البيضاء واليشماغ المنقط) ولون أحذيتهم ذات اللونين من الأبيض الجوزي والأبيض الأسود تحدث أصواتا (جزجزجز) عند دخولهم الديوان، قيل أنها أحذية إيطالية، والفلاح البسيط حافي القدمين في الحياة والحلم صيفا وشتاء، يعيش الفقر والاستغلال يكاد ثوبه يغطي عورته.

اتضح فيما بعد بان القصر بُني من قبل الشيخ في ذلك الوقت خصيصا للملك فيصل الثاني ولخاله الوصي عبد الاله للاستراحة فيه عند زيارتهم لشيوخ العشائر في مناطق (لواء) محافظة الحلة. الأمر الذي يعكس مدى وعمق العلاقة بينها وبين العائلة الملكية، والأمر نفسه لدى جميع العشائر الإقطاعية التي

أمست ركائزا للملكية في مختلف المدن الأخرى خدمة لمصالحها. والعشائر عموما تمتلك الأراضي والموارد المالية والمائية والمكننة الزراعية، راضية مرضية.

قندة وهي التي ولدت من رحم هذه المعاناة الا أنها تنضح طيبة وحيوية وشجاعة وجُرْأة وصراحة وعدلاً وبسمة ومحبة وحباً واملاً، وعلى ما يبدوا ومن كثرة زياراتها لجدته مع أمها، أنها أُغرِمت وتعلقت بابيه، هوته وهواها وتعلق وأُغرِم بها، والده دمث الأخلاق مسالماً طيب حسن اللياقة والأناقة والمظهر والملبس، يحب النساء والسيارات، وهو الشاعر الوسيم جميل العينين والحاجب.

يقول وسام:

- عندما كان يمر أبي بالزقاق عصرا متوجها للسوق مرتديا الصاية والسترة البيضاء، والعقال واليشماغ النظيف بكسرته الوسطية، وأنا أسير من ورائه الحق به، وعند اقترابه من النسوة الجالسات عند أبواب بيوتهن يغض بصره، وانبهرت من تصرفه الهادئ، ولاحظت لعدة مرات بلحظة المرور هذه يتبادلن النظرات والابتسامات فيما بينهن، يتغامزن ويلاحقنه بنظراتهن لنهاية الزقاق، نعم كن يترقبن مروره المتباعد لينظرن إلى وسامته وعيونه وهندامه، حتى ان احدى الجميلات الجالسات عندما امرق بالزقاق بمفردي بابتسامها الطيبة توقفني تسحبني نحوها، أشم الطيب ما يفوح من تحت عبائتها، وتهبني مرة بذور البطيخ الأحمر (الرقي) ومرة بذور عباد الشمس المحمصة المملحة، ما أطيبها... ما أطيبها كطيبتها، انسى نفسي ومع دقات قلبي تسرق

مني بكيد عظيم أسئلة حوله لم ادرك فحواها. لكن قندة تبقى هي إنسانة الطيبة الصادقة وتمتاز بالحنان والنقاء.

ويبين وسام حبه لوالده:

- وصل بي الأمر ان أتفحص عيون والدي فأراها حقا جميلة عسلية ووجهه المشرق الجميل وهالة من نور، حتى وصل بي الأمر ان أردد كلمات أغنية جميلة للمطربة اللبنانية نهاوند:

يبه يابه اشلون اعيون عندك يابه

واهل البلد ما يدرون والله يابه

يبه يابه اشلون اعيون عندك يابه

قندة هي امرأة شابة متوهجة العقل حالمة كباقي الحالمات من بنات جلدتها ظناً منها بانها سوف تهجر الريف وقساوته يوما وتتحرر من ظلم الشيخ وسركاله وسطوتهما وعبوديتهما وتودع الحرث والزرع والسقي والرعي والمواشي والحصاد وجني المحصول وحصصه ومشاكله وعذاباته وتسكن المدينة هانئة بعيدة عن ذلك الواقع المؤلم الظالم، تلبس كملابس بنات المدينة وتعيش معه في هذا البيت الكبير وتُخلف أطفالا وتشتري لها ماكنة خياطة (سنجر) الإنكليزية تسترزق منها ولتخيط وتطرز ما تشاء ولمن تشاء من صديقاتها الفقيرات بنات قريتها حسب ذوقها، وحلما بان تتعلم ويعلمها القراءة والكتابة ذلك الحلم الذي راودها منذ طفولتها حيث حرمت من التعليم كأغلبية بنات ريفها نظرا لواقع العلاقات الاجتماعية والأعراف والتقاليد المتخلفة السائدة في الريف والفقر المدقع ماعدا مريم ابنة الشيخ

التي فسح لها المجال لتعلم القراءة والكتابة في المدرسة بفضل مكانة أبيها وعلاقاته وإمكانياته.

واعتقاداً من أبيه هو الأخر ولسان حاله يقول:

- أنها امرأة تستحق كل ذلك؛ وهي تلك التي يبحث القلب عنها ويهواها.

بعد تناول الغداء والشاي يشوب اللقاء المنتظر نظرات تائهة متشوقة حائرة تكاد ان تنفجر، وما هي الا دقائق معدودات فكلا العاشقين يتوارا بخفة وصمت عن الأنظار كحركة قطرات الزئبق يلتصق ويموع بعضهم ببعض وتتعالى التأوهات والتنهيدات في الركن الغربي من البيت، وبعد وقت، تتضح مفاتن جسدها الجميل من وراء الساتر الحصيري وبشعرها الحنائي المنسدل قد غطى ظهرها حتى الأرداف وقطرات من العرق قد علت جبينها. وسام لا يبالي أي اهتمام لهذا اللقاء بينهما، ولم يدرك ماهيته، وطبيعة العلاقة بينهما لصغر سنه، ولم تدرج ضمن عالمه، اهي زوجته الثانية، أو لم يحالفهما الحظ بالزواج، لا يعلم أو لا يدرك ذلك.

وبعد نضجه علم بان قسما من الرجال كانوا يسافرون إلى كربلاء والنجف وطهران (باريس الثانية) وعندما تسنح لهم الفرصة والإمكانية المادية يمارسون زواج المتعة.

لا يهمه هذا، وصار يكفي طالما قنده تحبه وتغطيه بطيبتها المتناهية وتلفه بحنانها الدافئ، وهي تُسر حينما تحتضنه وتضمه إلى صدرها الطيب فهو دلالة على حب متبادل فيما بينهما، يتيه بشعور مختلف مختلط نحوها ووفق اللحظة؛ هي امه، خالته

وعمته، مرضعته، أخته الكبيرة، مربيته، حبيبة قلبه، صديقته، فختايته... وللطفولة شعور وإحساس صادق، أنها الحنان، أنها نبعة الريحان، أنها نبعة خير طيبة.

يقول وسام يصف قندة:

- وكأنها الرواء من شربت ماء الورد البارد في صحن الإمام.

ويذكر وسام:

- عندما أنهيت الصف الثاني ابتدائي كنت محتفظا بالقراءة الخلدونية للصف الأول، وذات يوم أعطيتها هذه القراءة ودفتر وقلم، ففرحت بذلك، وكما علمني جدي القراءة والكتابة مبكرا استطعت تدريسها، نجلس ونقرأ الأحرف كتلميذين صديقين حميمين، أتقنت الحروف الأبجدية والقراءة بالتهجي، وحفظتها من الغلاف إلى الغلاف بعزيمة ورغبة وبسرعة فائقة، عندما تزورنا في بيت جدي وعند زيارتي إليهم وساعدها اخوها طعمة عند تواجدها. كانت فرحة بهيجة عندما تنهي الدرس والحفظ وتضمني إلى صدرها تعبيرا عن شكرها، وأحسست بحبها وتقديرها.

جدته بدورها كانت تدخر لصديقتها أم قندة ولقندة مما قسم الله لهن ما بين زيارتين وتركن لهما بصررها المتنوعة من الشاي والقند والرز والعدس والصابون وسيجائر الجمهورية التي تجمعها من سجائر أبيه (حبة حبة) وقطعة من القماش تشتريها قبل حلول العيد الكبير أو الصغير كمساعدة انسانية أو رد الجميل هدية تليق لقندة لطيبتها لجمالها لجسمها ولخصرها الجميل.

يفرحه ويسعده حين يعلن جده عن نيته السفر إلى ريف النيل الواقعة شرقي آثار بابل ليقضي أياما مع صديقه شبادة طشت والد قندة، وسيد كويظم والأصدقاء الأخرين، يستمع لاحاديث جده معهم ويستمتع بجمال وطيبة ورائحة وحياة الريف وبالأخص في فترة جني المحصول، حيث يفوح الطريق وقت العصر بمزيج من رائحة الشمام والبطيخ والطماطة والتراب والعشب والصفصاف والعاقول، وحينها تقدم له قندة كل ما لذ وطاب من خبز الشعير الحار والزبدة والحليب الطازج وأكلة (الخميعة) عند الصباح، وتفرش لهم احسن فرش المنام المريحة ووسائد (مخاد) الحرير، يحس بنشوة قرصة البرودة أو حينما يلامس الخد الوسادة الباردة المطرزة بيدها؛ خضراء حمراء زرقاء صفراء على البسط المنسوجة السميكة الكبيرة في الفناء المفتوح أمام الأكواخ والمطل على المزارع بعد ان شرعت وقت العصر بتنظيف ورش الأرض وتهيئة المكان، يتعلل في المساء سوية معها متركنين بعض الشيء عن الرجال عن أبيها وجده وإخوانها كل لاحاديثهم، وهي تصب الشاي (المخدر) على جمر المنقال برفق وابتسامة وضحكة حنان جميلة ونكات جريئة وغمزة عين من خلال خصلة شعرها الأمامية المنسدلة، ويتخلل ذلك بعض الوقت لإعادة القراءة والاستماع لها، استطاعت تعويض ما حرمت منه بجدارة، وبعد انتهاء الدرس معها يستلقي مستمتعا بمراقبة السماء وضوء القمر وتراقص النجوم الزاهية وتراقص الغيوم البيضاء الصغيرة العابرة حتى الهزيع الثاني من الليل يتخلله سماع نباح كلاب القرية الحارسة في أطرافها. قندة كانت كريمة

النفس فطنة قوية الإحساس، فرغم الفقر ورغم العوز الا أنها كانت سعيدة مبتهجة عندما تهب وتهدي البنات المحتاجات من جيرانها ومعارفها في القرية بعضا من أثوابها بعد ان تجري بعض التعديلات عليها وفق القياس كأنها خياطة ماهرة.

لم تشأ الأقدار أو القسمة والنصيب بان تتحقق بعض من أحلامها المشروعة، اخوها الأكبر طعمة التحق بالعمل في دائرة الكهرباء والماء في مدينة الحلة عند حديقة الجبل بوظيفة عامل فني تعلمها وأتقنها أثناء خدمته العسكرية في معسكر المحاويل، فترك الريف والعمل في الزراعة جراء تعرضه للتهديدات من قبل السركال ومشاكله المتواصلة وأبناء الشيخ، واصبح لاحقا من العمال الفنيين ومن النقابيين القياديين يكرس كل وقته بعد العمل للنقابة والعمل السياسي والحزبي، اقتيد عدة مرات إلى السجون بسبب نشاطه السياسي وشهامته ونبله خصوصا في فترة الحرس القومي في ١٩٦٣ في سجن الحلة وسجن نقرة السلمان، وكانت قندة تتقصى أخباره وتجول بكل هذه السجون تتفقده وتزوده بالأخبار وحتى المنشورات وتأخذ أمها معها لزيارته عبر كل هذه المسافات، لقد قاست قندة كل هذه العذابات والمعاناة سواء بالسفر أو الانتظار عند بوابات السجون.

ولم تمض فترة قصيرة حتى مرض والدها بمرض حصى الكلى ورحل إلى وجه ربه وكان لا يزال يمتلك القوة الجسمانية، تيتمت قنده التي يحبها وتيتمت الأرض من بعده، وفقده أصحابه في القرية لطيبته، لقلبه الكبير المحب للناس وجلساته وحديثه ومواقفه الشريفة عن الحق والعدل لما يعانيه الفلاحون من ظلم

الأقطاع وتحايل السركال في العمل أو في توزيع حصص المحصول الزراعي خلال سني الكد والتعب.

لقد عايش وسام كل هذه المعاناة عن قرب في القرية، ويقول:

- عند فترة الغداء يجتمع الفلاحون يتقاسمون مما رزقهم الله من الخير، كان غداء أبي قندة كسرة من خبز الشعير مع خضرة (الرشاد) أو الخباز والبصل.

وينب الأصدقاء:

- الحمد لله خير واجد، الخبز والماء والخضرة، صار يكفي وأحلاها (جمعتنه، لمتنه) هذه مع أبي طعمة.

يقول وسام:

- لقد علمت بان الحزن الذي يبعث بالمطر لكي يظهر (الخباز) في الأرض يسد الإنسان الفقير به رمقه.

ويؤكد وسام:

- والله ما الذه وأطعمه، حينما تطهيه قندة.

لم تستطع قندة الانتظار طويلا لان قطار العمر يمر مسرعا يدوي ويهدر بالبيدر ومن لم تترقبه بموعده يفوتها ويتعداها، والناهدات في الارياف والقرى يدخلن الأعشاش الذهبية متسارعات مبكرات وحسب ترتيبهن بالأعمار متأملات حالمات راجيات داعيات بتحقيق الأحلام في الزواج والبنين، حيث ان قندة لم تتوفق بزواجها الأول من احد أقاربها والذي يصغرها عمرا، وراح ضحية نتيجة نزاع على حصص السقاية الليلية، وطمطمت قضية مقتله ولم يداعِ احد بدمه حالها حال بقية

القضايا التي تحدث في الريف من جراء تسلط الأقطاع وعلاقاته المتنفذة بالحكومة ومؤسساتها القضائية والأمنية.

اه..، لكن مظفر النواب قالها مأثرة في قصيدة جرح صويحب:

ميلن. لا تنكطن كحل فوك الدم
ميلن. وردة الخزامة تنكط سم
جرح صويحب بعطابه ما يلتم
لاتفرح ابدمنه لا يلكطاعي
صويحب من يموت المنجل يداعي.

وقد روى الفلاحون في القرية عن قندة وقت الحادثة وامام الجميع، بانها هبت بمسحاتها تبحث عن الجاني وتداعي بدم زوجها وبالثأر من قتلته.

بعد عام على رحيل أبيها تقدم لها نصيب أخر يكبرها عمرا رضيت به بعد ان يئست من حلم لم يتحقق وصعوبة الحياة بعد وفاة والدها وهجر أخيها الكبير طعمة لريفهم، زوجها الأخير متنور طيب الأخلاق طلب يدها من أمها واخيها الكبير ودخلت بعش الزوجية الجديد، وهو رئيس العرفاء في الجيش العراقي، إنسانا وطنيا شجاعا شهما، كانت وحدته العسكرية مرابطة على الحدود العراقية الأردنية اشترك في حرب تحرير فلسطين واستشهد الكثير من زملائه وأصدقائه العسكرين ودفنوا في مقابر للجيش العراقي في جنين في فلسطين، بعد سنتين من زواجهما وصل نبأ أستشهاده في حادث انزلاق مركبتهم العسكرية بطريقهم إلى (الشمال) في منطقة جبلية قريبة من حاج عمران.

قندة تلك هي امرأة يهواها القلب من أول نظرة...هي الحياة والدنيا، قندة إنسانة رائعة بمعنى الكلمة لم تكن مثلها امرأة فهي جميلة قوية الشخصية، يكن لها وسام كل الحب والتقدير والاحترام ولكل اهلها من أبيها وأمها وإخوانها الطيبين... قندة... قندة لحن جميل لمسامعه.

ويقول وسام بحقها:

- الجرأة تكمن فيها والشجاعة تتفجر في اللحظة المناسبة ضد الخطأ والباطل والظلم، زادتني افتخارا وبهجة، واحتفظتْ بها ذاكرتي منذ الصغر، وأصبحت صورتها لا تفارقني عندما أقارنها بوجوه الفتيات أو النسوة من بعيد أو قريب عند اللقاء.

كان وسام هو الحفيد الأكبر، وكان جده يحبه حباً جماً، ففي فترة العطلة المدرسية كان يقضي طول النهار معه وكتبه وقهوته ودِلاله، وفي المساء مع جدته، فكان ينام الصيف بجانبها، تغطيه بعباءتها بحنية بعد ان ترشها بقطرات من الماء للتخفيف من حرارة الجو وسكون الهواء، وفي احد الأيام خاطبته وأسرته وكأنها تعلم بدنو وفاتها وطلبت منه عهدا بتنفيذ وصيتها:

- أريد ان اسرك سراً قبل ان انتقل إلى الحياة الأخرة وهي أيام معدودات لا يعلم بها الا الله، واطلب منك ان تحلف لي وتعاهدني بما أقول لك وعهدا بان لا تفشي السر لاحد وان تصون الأمانة.

أجابها وسام بدون تردد:

- احلف لك يا جدتي بالله العلي العظيم بان لا اخلف العهد ولا افشي السر لاحد.

أجابته بنبرات متعبة:

- لقد ادخرت بحياتي بعض الشيء وهو ورث لك فقط، موضوع في علبة (قوطيه) مدفونة في زاوية الغرفة لا يعلم بها الا الله، فوصيتي ان تعاهدني بفتحها بعد مضي الأربعين يوما على رحيلي إلى الحياة الأخرة، بعدها لك الحرية في التصرف بما احتوت بداخلها وان تنفق بعضا من المال لامك ولام قندة وللفقراء والمحتاجين.

بعد ثلاثة أيام وعند الفجر توفيت جدته وهو نائم بجنبها، في الضحى شيعت بالمدينة ودفنت في مقبرة جده وبجواره بوادي كربلاء.

بعد وفاتها بأكثر من شهرين تذكر وصيتها، حفر في أرضية غرفة جدته المهجورة عند زاويتها فاذا بعلبة معدنية خضراء داكنة وقد علاها الصدأ، حاول فتحها بحذر، هزته المفاجأة فوجدها مملوءة بالدنانير ومحابس من الذهب والفضة تحمل التاج الملكي، اغلق العلبة وأرجعها في مكانها بشكل لا يثير الملاحظة، بعد فترة فاتح امه بالأمانة ووصية جدته واتفقا حول ذلك، حيث أعطى بعض الدنانير إلى أم قندة خفية والذهب والدنانير المتبقية لامه وبموافقتها اخذ منها مبلغ اثني عشر دينارا همَّ بها لشراء ساعة يدوية من نوع (فلكا) السويسرية كالتي اعجب بها منذ ان رأها بيد سالم ابن الشيخ وتمنى ان يشتري مثلها.

دخل وسام دكان الساعاتي فطلب منه ان يريه تلك الساعة، فاجابه الساعاتي:

- ان الساعة غالية جدا لا تستطيع شرائها.

وبدت على الساعاتي علامات الحيرة من بيعها وراودته شكوكاً حول إمكانية هذا الصبي من الشراء، ومن أين له هذا المبلغ والذي يعتبر بذلك الوقت بالمبلغ الكبير، أو قد تكون هذه الدنانير ليست ملكيته، ولكن الساعاتي يعرف وساما جيدا وابن من يكون!.

أجابه وسام:

- إنني استطيع شرائها.

واردف يقول:

- لقد جمعتُ ثمنها هذا من عملي في صيدلية (خوالي) كما تعلمون طيلة هذه المدة، واحب ان اقتني الساعة هذه وذلك لنجاحي في المدرسة، فاذا لم اشترها منك يا عمي فسوف اشتريها من دكان الحاج حسين الساعاتي. دكانه الذي تزين واجهته صورة للممثلة الأمريكية (مارلين مونرو) وهي راكبة الدراجة الهوائية ببدلة رياضية بيضاء، عرفها وسام اسمها فيما بعد من خلال قراءته للمجلات.

بصعوبة اقتنع الساعاتي ببيعها له.

لبس وسام تلك الساعة الثمينة يتفحصها يبسط يده يقربها ينظر إليها عدة مرات، كأنها المرآة تعكس أشعة الشمس...هي نفس الساعة التي يقتنيها سالم ابن الشيخ، وهو أول مرة في حياته يقتني ويلبس ساعة يدوية، وهي ليست ككل الساعات حيث لا احد يقوى على شرائها الا المتمكنين ماديا.

خرج بعد العشاء وجلس في مقهى (الوطن العربي) والتي روادها من جميع الشرائح المجتمعية في المدينة، وجلس متعمدا

بجانب المقاعد الخشبية (القنفة) التي يجلس عليها ابن الشيخ وأصدقائه لكي يلفت أنتباهه لساعته الجديدة، وليقول له بنفسه:

- لست أنت الوحيد في الدنيا الذي يستطيع امتلاك هكذا ساعة، بل أنا استطعت أخيرا امتلاكها.

ظل محتفظا بها لأكثر من عقدين من الزمن وبيوم مغادرته الاتحاد السوفياتي متوجها إلى عدن، وفي مطار موسكو سقطت الساعة على البلاط فسكتت وتوقفت حركة عقاربها فدحسها في جيبه محتفظا بها للذكرى.

أيام زمان... كان القند يفضل على مسحوق السكر لسهولة حفظه وتخزينه ونقله ولذة تناوله مع الشاي المخدر وخصوصا طقوس شرب (شاي دشلمه) في الماعون الصغير، والأجمل حينما تقوم جدته أو قنده عند زيارتها بتكسير علبة القند لقطع صغيرة وتجميعها وتقديمها في وعاء عند تناول الشاي ويحلو ذلك عندما يتبادل الاحبة اطراف الحديث وقت العصاري عند العوائل في مدن بابل وكربلاء والنجف، رافقه القند في كل مكان وفي شبابه عندما التحق بقوات الأنصار في كردستان في الثمانينيات، يقول وسام:

- عندما يحل الضيوف من البيشمركة الأنصار في قرى كردستان في العراق أو في ايران وفي الجبال في الخيام وعند أهاليها الكرام يحلو للضيوف ان يتعللوا ويسهروا مع مضيافيهم يتلمظون حبات القند واحتساء الشاي بدون توقف حتى يشيروا لهم بقلب الاستكان في الصحن الصغير، ويحلو القند حينما يكتسب الأنصار قطعة أو قطعتين قند ويضعها في جيبه منذ

الصباح يتناولها في مسيرتهم الجبلية الليلية الباردة. ذلك هو القند... قند قند، سكرقند، قندة، سمرقند، طشقند.

بصدد ذكر الزيارات والمزارات والنذور يقول وسام:

- عندما كنا طلبة في المرحلة الإعدادية في أيام العطلة أو في المناسبات الدينية ومنها حضورنا مجالس عاشوراء خصوصا لموكب العباسية للاستماع إلى (الردات الحسينية) وطابعها ومغزاها السياسي؛ نذهب إلى كربلاء كمجموعة من الأصدقاء لزيارة حضرة الإمامين الحسين واخيه العباس (عليهما السلام) خصوصا أيام الخميس. وما ادراك ما يوم الخميس،... وبعد الزيارة نتجول في شارع المكتبات أو الجلوس في مقاهي باب القبلة، وعصرا نكحل عيوننا بما أوتي به من الجمال الكربلائي (ومن لبس السواد سبى العباد)، وان توفرت فسحة من الوقت نتفق سوية وضمن مجموعة الأصدقاء الشباب على زيارة الأستاذ والمربي الرائد علي محمد الشبيبي واللقاء به في مجلسه ببيته في محلة العباسية في كربلاء للاستماع والاستمتاع باحاديثه وشعره وقصصه الشيقة والطيبة.

- ومن احاديثه في هذا الصدد، روى لنا قصة حينما كان معلما في ريف الشامية، وفي يوم من الأيام وأثناء تردده على هذا الطريق إلى المدرسة؛ لفت نظره مكانا يشبه مرقدا ما، تدخله وتخرجه النساء والأطفال، مدخله الطيني ملطخا بالحناء وقصاقيص من الخرق الخضراء، يتوسط المكان دكة مبنية من الطابوق على هيئة قبر، محجوز بقاطع خشبي صغير مغطى بقطعة قماش خضراء وتجمع فيه النقود والنذور، ، وصور لائمة معلقة

حوله، والشيء الذي جلب انتباهه وأثار شكوكه بان مكان هذا القبر هو جزء من الزريبة المجاورة للكوخ الكبير، واستفساره للمتواجدين المتجمعين عند المدخل عن ماهية هذا المكان:

- لمن يعود هذا المرقد؟.

اخبروه جميعهم ونَبَوا سوية نَبَة واحدة كالماعز:

- بانه ظهور أمام جديد!.

وسئلهم أستاذ علي الشبيبي:

- ما اسمه؟.

لم يعرفوا اسمه الصحيح ونسبه ولم يجبه احد منهم واكتفوا برجوع نسبه للإمام حسن المجتبى فقط.

وبدورنا أستفسرنا من الأستاذ علي:

- هل ان الإمام الحسن (ع) صاحب أخاه الحسين (ع) إلى كربلاء؟، وكم هن بنات الحسن وكيف توزعت مراقدهن هكذا في أرياف مدينة الحلة!.

وأجاب:

- يمكنكم الاطلاع على ما كتب في سيرة الأئمة منذ استشهاد الإمام علي (ع) في الكوفة ورجوع الإمام الحسين (ع) من المدينة إلى كربلاء ومن ثم معركة الطف ومقتله وسبي أهله إلى الشام، ومنها الاستنتاج والتوصل إلى الحقائق.

الأستاذ علي محمد الشبيبي هو ابن علامة الدين وابن النجف عارفٌ ملمٌ بكل مجريات الأمور وخفاياها ولا تنطلي عليه هذه البدع والخُدع ويعرف هذه الأرياف، فاهتم وتحرى وتحقق عن ذلك المرقد من أولي الأمر والمعرفة في هذا الشأن في التدوين

حيث لم يجدوا لهذا الظهور في سجلاتهم وتبين باخر المطاف بانه مرقد وهمي من صنع هؤلاء المنتفعين الذين يعتاشون على ما يجمعونه من الناس البسطاء، ووقتها لم يستجب رئيس العرفاء الشرطي السمين الأحمر المتخضم لطلبه بالإغلاق التام لهذا المرقد الجديد، وتبين لاحقا بانها سلسلة طويلة مترابطة من المستفيدين والمرتشيين، الا انه وبعد مرور شهرين لاحظ الأستاذ الشبيبي دخول وخروج النسوة لنفس المكان ومن باب أخرى، عندها جلب تصريحا رسميا وقامت مديرية الناحية بهدمه، فهذه الأساليب الشيطانية التي ورائها أشخاص تجنى منها أموالا غير مشروعة لمزارات ومراقد وهمية أخرى، ليس عليها برقيب.

يستمتع الشباب بأطراف حديث أستاذهم المتنوع الممتع المتنوع في الثقافة والسياسة تتخللها مواضيع متفرقة ومنها تطرق إلى هذه الواقعة حيث سلط الضوء على الأساليب والبدع الظلامية الأخرى التي يحيكها المنتفعون وعديمي الضمير في خداع الناس البسطاء والفقراء وتجهيلهم وتظليلهم.

بحق يقول وسام ويؤكد بان المدارس التي درس فيها:

- مدارس جيدة ابتداءا من المدرسة الابتدائية الأولى وحتى المدرسة الثانوية والإعدادية، من حيث كفاءات المعلمين والمدرسين ومدراء المدارس وحرصهم على الطلبة ورفع المستوى التعليمي والتربوي آنذاك، ففي بداية العهد الجمهوري ترك الأثر الجيد والإيجابي في النفوس وتربية وإعداد التلاميذ ليس على صعيد الدراسة والواجبات المدرسية وحسب بل وحتى في مجال الهوايات والنشاطات والاهتمامات الأخرى في مجال

الأدب والمسرح والرياضة، إضافة إلى غليان وهيجان الشارع العراقي إزاء التحولات العالمية ونهوض لحركات التحرر العربية والتي رافقت قيام النظام الجمهوري وإنجازاته في البناء والأعمار والازدهار من جانب ومن جانب أخر المؤامرات والصراعات للنيل من الثورة الفتية، من هنا ولدت ونشأت اهتمامات التلاميذ والطلبة لهذه النشاطات رغم معارضة قوى الظلام والأقطاع والرجعية الشديدة لهؤلاء الأساتذة الكرام، وبالرغم من هذا، يمكن الإقرار بان معظم طلاب مرحلتي الدراسية لم يتوقفوا عند المرحلة الابتدائية بل استمروا وواصلوا الدراسة بنجاح وتفوق حتى ما بعد المرحلة الثانوية ولم يتخلف عن الدراسة في الصف السادس الابتدائي الا مراقب الصف لكبر سنه ولالتحاقه مبكراً في الجيش وذلك لانتشال وضعه المادي المعاشي ولمعونة ومساعدة أمه وأخواته.

- الأمر المهم هو تواجد خيرة المعلمين المتنورين والمدرسين المثقفين ومنهم من ذوي التوجه اليساري وحرصهم الشديد على إعداد وتربية التلاميذ في تلك الفترة تركوا محبة واحتراما في نفوس التلاميذ خصوصا في فترة الجمهورية، ووصولا إلى المدرسة المتوسطة والثانوية وحتى الجامعات، حيث ان جميع الزملاء من التلاميذ والطلبة انهوا المدارس في كل مراحلها الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ودخلوا الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية الأخرى وفي مختلف الاختصاصات العلمية في الطب والصيدلة والهندسة والعمارة واختصاصات الأدب والفن والمسرح والصحافة بكل مدارسها

مما جعلهم ان يتبوأوا مكانة مرموقة في دوائر الدولة أو حتى في دول أوروبا اثر هجرتهم وتشردهم فيما بعد الأحداث المريرة التي عصفت بالعراق مرورا بأحداث ١٩٦٣ وما بعدها.

- وكان الطلبة آنذاك من مختلف الاتجاهات السياسية، الأكثرية هي يسارية خرجت من عباءة الحزب الشيوعي العراقي، من الشرائح الفقيرة والمتوسطة، ورغم الاختلافات كانت تربطهم علاقات طيبة يسودها الاحترام والتكاتف والأخوة في السراء والضراء علاقات الصداقة بين أبناء المحلة والمدينة، حيث كانوا يقيمون مقرا أو ركنا للفرق الرياضية لكرة القدم في مقاهي المدينة وبالتالي تشكيل فريق المدينة والذي يجري مباريات مع الفرق الرياضية في المدن الأخرى.

وبالتفاصيل يذكر وسام:

- في المدرسة الابتدائية الأولى كان معلمنا الأول عبدالله المسؤول عن شعبتنا، منذ الصباح مبكرا تراه يجوب الصفوف يفتشها صفاً صفاً، ليتخذ فيما بعد مكانه وسط ساحة المدرسة التي يتجمع فيها التلاميذ لتأدية طقوس تحية رفع العلم واكثر الأحيان يقف خلف طوابيرهم، بعد ان جهز كل شيء بنظام وانتظام قبل حضور مدير المدرسة عبيد الحمود وباقي المعلمين الأخرين، الصفوف والملاحق العامة والساحة نظيفة تنبعث منها رائحة المعقمات (الاسفنيك الأسود المركز والذي يتحول إلى لون حليبي بعد أضافته للماء) التي تخترق المناخير والخياشيم من على البعد، وتشهد عملية توزيع وشرب الحليب الحار مع تناول الحبات الذهبية من زيت السمك (فيتامين دي) وقطع من

الكعك توزع مجاناً، واعتاد التلاميذ على جلب الكؤوس المعدنية معلقة في أحزمة سراويلهم.

- كان (استاد) عبد الله حريصا كل الحرص على ان يتناول التلاميذ هذه الحصة الصباحية ويتابعهم وخصوصا الفقراء منهم حيث هو الأعرف والملم في فوائدها الصحية والغذائية، والويل الويل لمن يتركها أو يرميها، وكان بنفس الوقت يقدم الدروس في اللغة العربية والدين والأعمال الفنية والرسم، علمهم القراءة والكتابة من القراءة الخلدونية والخط وحفظ بعض الآيات والمهارات الفنية وصنع الأشكال من الطين الحري طين الانهر الغرين وتلوينه بدل الطين الاصطناعي فكانت المتعة الحقيقية لإقامة المعارض السنوية وتطور المواهب الفنية لدى التلاميذ، كان يحرص على مساعدة الطلبة الفقراء والمحتاجين وتقديم أسمائهم لمعونة الشتاء وعلى أتم الأوجه.

ويؤكد وسام:

- ولم يتوقف به الأمر لهذا الحد بل تعداه إلى جذب التلاميذ بالتبرع بفلسانهم (اليومية) كمصرف لهم يستحصلونها من الأهل إلى صندوق التبرع اسماه (صندوق فلسطين)، حيث غرس في نفوس التلاميذ الإحساس وتنامي الشعور الإنساني والوطني والقومي، ومعرفة معنى الدعم المعنوي والمادي للشعوب المظلومة وتأثيرهما آنذاك الا وهي فلسطين؛

فلس... طين، طين فلس طين.

- واصبح التلاميذ يرددونها صباحا ومساءا بلحن جميل في المدرسة أو في المحلة؛ فلس طين، فلسطين حفظوها وتعلموها

وعرفوها بالقراءة والكتابة واللون والدعم المادي والرمزي، حيث كان وسام من أول المتقدمين بالتبرع للصندوق بفلسانه، ولما اشتد ساعدهم عرفوا وفهموا أبعاد القضية ومحنة الشعب الفلسطيني ووعد بلفور المشؤوم بتأسيس وطن لليهود في فلسطين والمصالح الاستعمارية في المنطقة وتشربَ في عروقهم حب فلسطين.

وبلغ الأمر بالتلاميذ ان يشاركوا مع طلبة المدرسة الثانوية في المظاهرات العارمة التي تجوب المدينة يرددون شعارات التضامن مع فلسطين ويهتفون بأعلى أصواتهم:

- فلسطين عربية فلتسقط الصهيونية.

تكالبت المؤامرات والمخططات الاستعمارية والإمبريالية في المنطقة العربية منذ اتفاقية سايكس بيكو باقتسام منطقة الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا ووعد بلفور١٩١٧ وقرار التقسيم في١٩٤٧ وما بعدها وألمت المخاطر بالأقطار العربية والشارع العراقي يغلي والمواطن العراقي يغلي وتعاظم الإحساس والشعور الوطني والقومي بتعاظم الوعي لدى الناس بفضل القوى المحركة في المجتمع العراقي والتي يقف على رأسها عن حق آنذاك الحزب الشيوعي العراقي حيث ومنذ بدايات تأسيسه الأول وباسم عصبة مكافحة الصهيونية وقف ودعم نضال الشعب الفلسطيني في أحقاق حقوقه المشروعة، ليس هذا وحسب بل دعم قضايا حركات التحرر العربية، الجزائر، اليمن، ورويد رويدا ازدادت المعرفة بقضايا التحرر العربية ومنها القضية الفلسطينية وأبعادها، بقادتها ومناضليها بثوارها الأوائل وفدائييها وشهدائها،

ونضال فصائلها والتضحيات الجسام التي قدمها ولا يزال يقدمها الشعب الفلسطيني من اجل تحرير الأرض، نعم ان فلسطين مغتصبة، وهل تسكت عن حقها مغتصبة!.

لقد روى دم الشهداء الجنود العراقيين من الأهل والأقرباء والمعارف الذين استشهدوا في ارض فلسطين مختلطا بالدم الفلسطيني، كفر قاسم، جنين، غزة وغيرها من المدن الفلسطينية التي تحكي البطولات والتضحيات، وكم شهيد لم نجد له شاهدة قبر منذ قرار التقسيم المشؤوم، وظل الجيش العراقي مرابطا على الحدود مع الأردن استعدادا لتقديم الدعم وللمواجهة، ومنذ قرار التقسيم المشؤوم بدأ يتبلور الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الناس وانعكاس ذلك على الأبناء التلاميذ والطلبة.

حقا لقد عرف وسام كلمة فلسطين وكغيره من التلاميذ حفظها ورددها بلحن جميل مع زملائه في مدرسته الابتدائية واحبها وتعاطف معها قبل ان يشب عوده، عرفها من لقاءات جده مع معارفه وحديثه معهم عن القدس والأماكن المقدسة في مجلسه، وعرفها منذ زيارة امه للمسجد الأقصى في الستينيات وعرفها شابا من خلال خاله مُطهر عبر صديقه الشاعر الفلسطيني معين بسيسو الذي عمل في المدارس الريفية... وعرفها من خلال الوعي المغروس والمتبرعم مبكرا... وبقيت فلسطين غصن زيتون مزروع في قلبه.

يقول وسام:

- بدعوة من رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، قام الوفد الجزائري من قيادة جبهة التحرير الجزائرية بزيارة إلى العراق - بغداد برئاسة احمد بن بله والمناضلين الأخرين ومن ضمنهم المناضلة جميلة بوحيرد والتي اطلق اسمها على حي جميلة في منطقة قناة الجيش في بغداد، خرج الطلبة متظاهرين يهتفون للجزائر ولثورة التحرير الجزائرية، لحرب الاستقلال التي دامت سبع سنوات لإنهاء الاستعمار الفرنسي والتي نالت الجزائر استقلالها في ١٩٦٢ وبدعم من الجمهورية العراقية الفتية والدور الكبير الذي لعبه الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة لنيل الاستقلال، وانضم التلاميذ للطلبة مرددين هتافات تحيي بلد المليون شهيد ونضال جبهة التحرير الجزائرية:

- احمد بن بله أهلا بيك شعب العراق يحييك.

يؤكد وسام:

- لقد ترك المعلم عبد الله حبا كبيرا في قلوب تلاميذه وكذلك المعلم ناصر في درس التربية الوطنية والمعلمون الأخرون أيضا، كل حسب الاختصاص، وقد اصبحوا فيما بعد مراجعاً ونجوماً وأعمدة واقطاباً في الأدب والفن والمسرح والسينما والصحافة والسياسة، الكثير منهم من هاجر الى بلدان المهجر والشتات والغربة لعدم تمكنه بالبقاء في الوطن خوفا على حياته، ومن بقى منهم تحمل المضايقة والتهميش والمطاردة والاعتقال والسجن والعوز وضيق العيش. معلمون حريصون في نشر العلم والثقافة والادب والفنون والمعرفة والوعي كعمل

المجلات والنشرات الحائطية والنشاط الفني في الرسم والموسيقي والمسرح واقامة المعارض المختلفة.

ويتذكر ويقول:

- حينما كنا اطفالا لم نمتلك التلفاز (اسود وابيض) وحتى سماع الراديو (الصندوق) يحرم فتحه في شهر عاشوراء ويدثره والدي بقطعة قماش سوداء وحتى انتهاء الشهر، وفي الأيام الاعتيادية نشاهد التلفاز فقط أيام عطلة الجمعة في المقهى يعرض فيه افلام الكابوي بعد ان نجمع الخمسة أو العشرة فلوس بصعوبة من اهالينا ثمنا لدخولنا المقهى، وان صعبت علينا اكثر توفير العشرة فلوس، تحن علينا بنت الجيران من بنات المضمد أبو طلال لتدخلنا في الغرفة (البرانية) الصالة الكبيرة من جهة سكة القطار لمشاهدة الفلم سوية مع اخواتها، مستغلة خروج أبيها للصيد مع عدته وملابسه على هيئة العسكر الانكليز لنزهته إلى بساتين اللطيفية.

- لم العب الدومينو ولا الورق ولم ادخل سينما المدينة بتاتا منذ ان كنت تلميذا أو طالبا في المدرسة وحتى التحاقي بالجامعة وذلك لاعتبارات اجتماعية معينة آنذاك ومنها مكانة جدي الدينية في المدينة تحيد من ذلك الا مرة واحدة فقط وقد ذرفت فيها الدموع بشكل متواصل...

ويذكر:

- وبمحض الصدفة، حيث كنت اقضي بعض العطل المدرسية مع أبناء خالاتي وابناء عمومتهم والذين يكبرونني عمرا في مزارعهم المطلة على شط الحلة مقابل مرقد النبي أيوب. في

يومها رغب أبناء الخالات بالذهاب إلى الجهة الأخرى من النهر(الشط) بواسطة (البلم) حيث تقع السينما الصيفية، وعندما شاهدوا لوحة الاعلان واسم الفلم (أم الهند) باللغة الانكليزية والعربية وصور الممثلين في الفلم جذبتهم اللوحة لقطع التذاكر، ولحسن الصدفة التقى كامل ابن الخالة الأكبر منا عمرا وهو للتو قد تخرج من دار المعلمين باحد معارفه القدامى، الا وهو العامل الكهربائي الفني النقابي الوسيم طعمة (اخ قندة) والذي يتمتع بصلات وعلاقات واسعة في هذه المناطق الريفية.

- تعجب العم طعمة حينما عرفني وتعجبوا اولاد الخالة حين اخذني بالاحضان، تناقشوا برهة ومنها قرروا دخول السينما سوية حيث يعرض فيها الفلم وبطلته الممثلة الهندية الجميلة (نرجس) والممثلون (سونيل دوت، راجندرا كومار وراج كومار). بعد سنين طويلة قرأ وسام في المجلة؛ بان الفلم منتج عام ١٩٥٧ في مدينة بومبي.

تدور احداث الفلم عن أم هندية في احدى القرى تقترض مبلغا من المال من احد المرابين في القرية لزواج ابنها من عروسته (نرجس) والذي قام بتزوير اتفاق الاقتراض في رهن الأرض والفوائد المترتبة من المحصول وتغير نسبته مستغلا عدم معرفتهم بالكتابة والقراءة حيث الامية والجهل كان سائدا في القرية. في الصباح احست (نرجس) بتزوير المرابي للاتفاق، وبذلت كل الجهود والمحاولات، باءت كل مصوغات عرسها في سبيل تسديد الدين واسترجاع الأرض، لكن كل محاولاتها بائت بالفشل نتيجة رشوة المرابي للمتنفذين في القرية، وعاشت

نرجس مع اطفالها المعاناة والفقر وجوع الأطفال وظلم وجشع المرابي وضياع الأرض، امطار غزيرة وسيول جارفة وضياع المحصول، وترك الفلاحين القرية، حينها وقفت نرجس لتحيدهم ومنعهم عن موقفهم بترك القرية، وبعدها انتقام ابنها وقتل المرابي.

احداث ومشاهد على مدار ساعات العرض الدراماتيكي ابكت جميع المشاهدين وابكت وسام على حجم المعاناة والعذابات من جراء ظلم (الاقطاع والمرابين) في الريف الهندي والتي هي ذاتها يقابلها الظلم وجور الاقطاع والملاك والسراكيل ومعاناة الفلاحين الفقراء عموما في الريف العراقي، حيث وجودهم وحياتهم وعوائلهم ومستقبلهم وحتى قوتهم مرهونا بايادي الشيوخ وسراكيلهم. ابكته الاحداث وهو صبيا وتركت حزة وعصرة والماً في قلبه لقربه ومعايشته الواقع ولقربه بالاخص من معاناة (عائلة قندة) أمها وابيها واخوتها وبالتحديد معاناتها ومعاناة اخيها العامل النقابي، الأمر الذي اضطره إلى هجر الريف هروبا من مشاكله والبحث عن عمل في المدينة.

ويسائل وسام نفسه على ما شاهده في الفلم:

- اهكذا يظلم الناسُ وباساليب بشعة حتى في ارياف الهند!، فالظلم هو الظلم في كل زمان ومكان من العالم ومنذ الخليقة.

ومنذ مشاهدته لهذا الفلم بمدينة الحلة، وبعد سنين واثناء دراسته الجامعية في بغداد، وما تيسر له آنذاك من دعوات أصدقائه الطلبة في معهد واكاديمية الفنون لحضور معارض فنية وعروض لمسرحيات يقومون باعدادها واخراجها، اضافة لبعض

القراءات في هذا الجانب اثرت في اغناء وعيه الفني، الأمر الذي دعاه إلى مشاهدة ومتابعة الافلام الجادة والواقعية والمؤثرة في تغير الواقع وغدت مستحبة له منذ ذلك الحين.

ويوضح وسام بقوله:

- كنا نجلس عند سدة سكة الحديد في المحلة قبل العشاء نقلد معلمنا الجميل علي رفيق بحديثه وحركاته في التمثيل وكاننا فرقة مسرحية نتمنطق بمفردات المسرح التي تعلمناها منه واحببناها واحببناه، وما هي الا بضع سنين وقد تخرج الكثير من الاصدقاء في الاعلام والفن والمسرح والاخراج، بفضلهم، كان دورهم كما الذي ينثر بذور الورد فتزهر الارض بعد المطر بكل الألوان ازهارا.

ويقول:

- ذات مرة حدثنا (الاستاد) ناصر معلمنا في درس التربية الوطنية، والذي نستمع لاحاديثه واسلوبه الشيق ونستمتع بنسج قصصه الجميلة التي يرويها لنا في الصف وينقلك إلى أجواء كأنها شريط سينمائي، وذكر بانه ذات يوم كانوا مجموعة أصدقاء مسافرين إلى الاتحاد السوفياتي وعاصمته موسكو فتوجهوا إلى زيارة الساحة الحمراء وفيها قلعتهم امبراطورية روسيا القيصرية آنذاك وضريح قائدئهم ورئيسهم الذي قام بالثورة الاشتراكية، وتجولوا فيها فاذا باحدهم من المجموعة يرمي سيجارته في الساحة وليس في الحاوية المخصصة لرمي الاوساخ والنفايات، فاذا بأمرأة عجوز تنزل من اعلى العمارة وترزل ذلك الشخص الذي رمى بسيجارته، فاعتذروا إليها لهذا الخطأ.

ويؤكد المعلم ناصر:

- بهذا علمتنا العجوز درسا في كيفية المحافظة على النظافة!.

يذكر وسام:

- كانت بيوت الجيران بسيطة تبنى حسب امكانيات العوائل المادية فهي تتراوح ما بين العوائل الفقيرة تبني اوتسكن بيوت من (اللبن) والطين بعد ان كانت تسكن الاكواخ قبل قيام الجمهورية والمتوسطة الحال تبني أو تسكن بيوت من طابوق (الكورة) لا تغلق أبوابها الا ماندر، والعوائل المتمكنة ماديا تبني بيوتا كبيرة من الطابوق المفخور من معامل الطابوق تتوسطها ساحة وسطية وتتوزع حولها الغرف.

ويرتبط الجيران عموما بعلاقات اجتماعية طيبة لا تمييز بين الطوائف والاديان من مسلمين ومسيحيين وصابئة أو من القوميات عربا واكرادا والاقليات الأخرى حيث تسودها علاقات الود والاحترام والتأخي حسب العرف الاجتماعي الذي تربت عليه الاجيال واوصت به التعاليم الإسلامية يقال؛ حتى سابع جار، وتربت عليها الاجيال في المناسبات الدينية المتعارف عليها في شهر رمضان وشهر محرم، ولاحقا بالمناسبات الوطنية وبالافراح والاحزان جنبا إلى جنب، يلتقي ويلعب الصبية والتلاميذ في محلتهم أو في ما يسمى طرفهم ويلتقون بنفس الصف أو بنفس المدرسة. حيث تلاحظ وبشكل جلي ومبهج بان بعض العوائل المسيحية والصابئية تشارك جيرانهم في المناسبات الدينية وغيرها مثل المولد النبوي وعشرة عاشوراء وفي شهر

رمضان حيث تساعد بناتهم في اعداد الطعام من (التمن والقيمة، الزردة والهريسة) وتوزيعه على المحتاجين والفقراء.

ويستمر وسام بالحديث:

- كنت اذهب في الصباح مبكرا وقبل ذهابي للمدرسة، أجلب الفطور من السوق عند (الفلكة) حيث تتجمع بائعات القيمر واللبن والخبز عند مقدمة دكاكين الذهب في زوايا السوق والتي اصحابها من الديانة الصابئية المندائية، يقف عند باب الدكان رجل طويل القامة بشخصيته وهندامه العربي الجميل (سترة، صاية، عقال ويشماغ) بلحيته السوداء وعيونه الواسعة، تظنه شيخ عشيرة أو شيخ مسجد للتو انهى صلاة الفجر، ولهيبته ولعدة مرات بادرته بالسلام وتحية الصباح.

مرت الأيام وسئلت والدي عن هذه الشخصية فاجابني:

- انهم عائلة من الديانة المندائية التي تعتبر من اقدم الديانات في العراق، رحلت من الجنوب وسكنت المدينة، امتهنت صنعة الصياغة من الفضة والذهب، عائلة محترمة مسالمة تشارك المدينة افراحها واحزانها ومناسباتها الدينية.

ويؤكد وسام:

- أنهيت المدرسة وعرفت لاحقا وبالصدفة بان اولاده هم من زملائي التلاميذ في المدرسة المتوسطة والثانوية وافترقنا عند دخولنا الجامعة، ولم اعرف ولم اسأل عن ديانتهم ولم يخطر ببالي، يكفيني انهم من الزملاء الاصدقاء الطيبين، وعلمت بان عائلتهم تذهب لزيارة الامام الحسين (ع) في كربلاء وعلي امير المؤمنين(ع) في النجف الاشرف، وبناتهم يقمن بالمساعدة

بتحضير وطهي المأكولات وتوزيعها على جيران المحلة في كل المناسبات الدينية.

ربطت وسام علاقات طيبة بكل الجيران من الصبية والصبيات وبالفتية والفتيات وزملاء المدرسة لاحقا وحتى الاباء والامهات عندما يتقابلون معه يحييهم ويحييوه وذلك لمكانة جده وابيه اولا ولكونه طيبا ذي خلق حميد مسالما يحب مساعدة الاخرين هي هذه التنشئة الاجتماعية البسيطة النقية، تسودهم الالفة والصداقة الحميمية. كانت كواكب احدى الفتيات من جيرانهم وعلى يسار بيتهم، فائقة الجمال تكبره عمرا، عندما ينهي مطالعته وقرائته لدروسه على سكة القطار ويقترب من بابهم المقابلة لغرفة (المقصجي) يجدها متسمرة ببابها تراقبه وتنتظر قدومه ومروره نزولا من السكة، تناديه وتدعوه متحججة ليساعدها في تبديل المصباح الكهربائي (المحروق)، وكان يثير انتباهها وانتباههم وتعجبهم لمسكه السلك الكهربائي ولتلة التيار، حيث كانت الكهرباء القديمة واطئة الفولتية بحدود ١١٠ فولت، وبعمله هذا يحسن التكليف ويشعر بالفخر لتقديمه خدمة للجيران، تنتظر لحظة مؤاتية لتضمه إلى صدرها ليتيه بعطرها ويغمض عينيه بدفئهما فتقدم له قنينة عصير السيفون أو شراب الكوثر المثلج من صندوق التبريد الخشبي (بخشيشا) لتدركه ليطفئ وهيج نارها التي لسعت بقلبه. بعد هدأةِ يقفوا جميعا لبعض الوقت مع اخواتها الصغيرات يتبادلون الحديث عن المدرسة واحاديث الصِبا المتشعبة والمتنوعة، ويتصفح بعض المجلات لديها، وبنفس الوقت يحس بانه اخاً منهم ولهم.

ابوهم إنسان طيب جدا تراه منذ الصباح باكرا يتسوق للعائلة ويهم بعدها لعمله، وعندما يتصادفا يبادره وسام بالتحية والسلام تلقى استحسان الاب ولطفه، بعد أحداث ١٩٦٣ اغلق دارهم ولا احد يعلم إلى أين رحلوا، تألم كثيرا وحزن لهذا الفراق وظل لسنين يتحرى اثرهم من هنا وهناك بدون جدوى، لكن كواكب بقيت كوكبة مضيئة زاهية في ذاكرته وساندريلا بجمال عيونها وبتسريحة شعرها الجميلة وشريطها الأبيض ولون ثوبها السمائي. وباقي البيوت من الجيران فاغلبهم من نفس العمر أو ما يقاربه وبنفس الصف ونفس المدرسة حيث بكل القضاء توجد هنالك مدرستان؛ الابتدائية الأولى والابتدائية الثانية ومدرسة ثانوية؛ تخرج منها معظم الطلبة بكافة الاختصاصات من اطباء ومهندسين ومحامين ومدرسين وفنانين مسرحيين وكتاب وشعراء.

طيلة العمر لم يتذكر وسام بان احدا خاصمه أو تشاجر مع احد في المدينة او المدرسة أو المحلة الا مرة واحدة مع احد الفتية الذي منعه من المرور من خلال محلته، فكانت ردة فعل وسام قوية إذ طرحه ارضا فولى لابيه شاكيا وساما وعند المغرب وبخهُ ابوه بشدة على فعلته هذه.

تغير الوضع السياسي وازداد سوءا وافرز ذلك انعكاساته على عموم العلاقات وترديها وتفرق الجيران والاصدقاء الاطياب فمنهم من رحل إلى مكان أخر في الوطن أو في المهجر ومنهم من رحل إلى الحياة الاخرة ومنهم من سار في طريق النضال من اجل مبادئ الحق والعدل ومن اجل الوطن والتحق بالجبل في كردستان ومنهم من التحق بموكب الشهادة، فلهم الرحمة

والمغفرة وجنات الخلود والذكر العطر... لازالت محبتهم في القلب والضمير والوجدان.

يشير وسام إلى ان محلتهم هذه لم تدم، بل لحقها (القص) حيث ازيلت البيوت القريبة من خطوط سكة القطار من المحطة جنوبا وحتى شمال المدينة باتجاه بغداد، وقلعت فيما بعد اشجار النخيل والبساتين وجميع البيوت على الجانبين والموازية للسكة وخصوصا بيت أبو موسى الحارس والضامن للبستان، وتمددت المدينة تمددا عشوائيا حالها حال المدن العراقية الأخرى ورحل منهم من رحل وذهبت الذكريات الحلوة الا تلك التي نبتت بعمق في ضمير وذاكرة المحبين. سكة القطار الجديد التي بناها السوفيات، مغطاة بالحصى الأبيض يشكل بانعكاس اشعة الشمس خطا ابيضا مستقيما يتلاشى في الافق.

وذات يوم صيفي خرج وسام من البيت فاذا به يلاحظ رجلا اربعيني جالساً في سيارته يقرأ خرائطه، وبقميصه الأبيض ميدالية صغيره جدا بهيئة رأس شخص بنصف لحية باللون الأحمر مزرورة بالقرب من قلبه، سلم عليه بكلمة (كود مورننك) التي يعرفها، وهرع للبيت مبتهجا بانه تكلم مع اجنبي باللغة الانكليزية وجلب معه (طاسة) ماء بارد من الكوز(الحب) قدمها للمهندس، وبعد شربه الماء تشكر من وسام. اتضح بعد سؤاله لابيه بان هذا الرجل هو من المهندسين الروس العاملين في تمديد سكة القطار الجديد وعلم بعد سنين عن هذه الميدالية في فترة المدرسة المتوسطة بانها صورة لينين، من خلال صورة غلاف الكراس

الأحمر الذي اعطاه صديقه علي حسن (علوكي) لقرائته، كراس لينين عن مؤتمر الشبيبة الشيوعية.

امست السدة الترابية (متن السكة) ملتقا للصغار والتلاميذ يلهون ويلعبون شتى الالعاب (مثل الختيلة، الدعبل، المصرع، الجعاب، التوكي الخ) ويقرأون سوية في ظل بيوتهم المتجاورة، بل امسى متن السكة مسرحا للصبية والتلاميذ يستعرضون فيه ويقلدون معلميهم وحركاتهم ويرددون مفرداتهم المتميزة أو يتبادلون المجلات والطوابع التي يجمعوها، والفتية والشباب يتمشون وقت العصر وقبل الغروب على السكة مجاميع مجاميع وحسب المراحل الدراسية ولكل همومه واماله واحلامه واسراره ومواعيده ولقاءاته، كانوا من خيرة الشباب الطيب الواعي والهاوي للادب والرياضة والمدرك بفن السياسة، ومن دفع ثمنها تضحية بزهرة شبابه وحياته لاحقا.

عجيب وسام، لحبه لمدينته واصدقائه وزملائه الاعزاء، فمدينته هي محبوبة وملاصقة لقلبه والذي لم ينفك عن ذكر كل جميل ويذكرها دائما وفي كل مناسبة يرويها، ويذكرها:

- كم هو جميل لقاء الصبية في ظهيرة يوم الجمعة بعد ان تأمنت الخمسة او العشرة فلوس لدخول مقهى عبيد في منتصف السوق من خلال تقتيرها من المصروف اليومي المخصص للحانوت المدرسي خلال الاسبوع وذلك لمشاهدة فلم الجمعة خصوصا افلام الكابوي وقت الظهيرة متراصين في التخوت الأولى، (تلك المقهى مجمع لابناء المدينة صيفا وشتاء)، بعدها يتفرق الصبية على أمل اللقاء عصرا ليقلدوا ما شاهدوا وما

استمعوا من مفردات الفلم باللغة الانكليزية (..هانز اب)، او عند (دكة) دكان السيد علي الطيب الذكر ليجلب كل ما في معيته وما جمعه خلال الاسبوع من الطوابع، حيث ينفرد ابنه عباس صديق الطفولة بتزويدهم بالطوابع البريدية المستحصلة من الرسائل التي يستلمها على عنوان الدكان لفلاحي ومزارعي الارياف المحيطة بقضاء المحمودية والذين يقدمون إلى الدكان للتسوق من الشاي والسكر والتبغ ومما قسم الله لهم على الحساب او تسديده ليوم جمع المحصول عند النزول به إلى المدينة لبيعه، وهكذا كانت حركة السوق المتبعة بذلك الزمان الامين الجميل الاصيل.

توسع دكان السيد لدكان أخر مجاور... وبهذا وهب الصبية حرية في قضاء بعضا من الوقت عند دكته وتبادل الطوابع والمجلات في الضحى أو في العصر... فيغتني البعض بالطوابع وبالوانها الرائعة خصوصا تلك التي صدرت في فترة الجمهورية لحكم الزعيم عبد الكريم قاسم وصوره التذكارية في كل الاوقات والمناسبات الوطنية في افتتاح المشاريع المختلفة وبجنبه شعار الجمهورية وعلمها الزاهي (عبد الكريم كل القلوب تهواك!...) مما يبهر صبية المحلة، واذا حالفهم الحظ يكرمهم الاخ عباس بطابع أو بطابعين من رسائل خارج الحدود تحمل صورة ملكة بريطانيا العظمى اليزابيث وطابع أخر يحمل صورة الطفل الجميل عبد الله بن الملك حسين ملك الاردن وطوابع متفرقة، وكان عباس يحسن ازالتها من الظرف بالبخار باتقان... وكم هم سعداء فرحين لاقتنائهم طوابع لبلدان ما وراء البحار... وماهي الا للحظات يتقاطر الصبية حول دكة الدكان... يقدم قاسم محمد

غـالي الهـادئ الجميـل اللطيـف المسـالم ببسـمته الطيبـة البريئـة ومشيته كالبندول ويدخل في حلقة الصبية المنتظرين له ليلهمهـم من قرائته لليلة امس ويتحفهم ما خزنته ذاكرته الجميلة من ليـل المدينة الهادئ، عجباً من أين له هـذه المعلومات، بالرغم من ان جميع الصبية عاشوا في مراحل دراسية متقاربة!.

يصف وسام سوق مدينته الأولى وشارعها المؤدي إلى سكة القطـار جميـل بحركتـه واناسـه، يمينـه ويسـاره دكاكـين وعـلاوي متلاصقة يكمل بعضها البعض لسد احتياجات الناس ومتطلباتهم، خطـان متـوازيان وفـي جزرتـه الوسـطية تنتشـر وتمتـد فيهـا سـلال وصناديق الخضار والخضرة تفوح بطيبها وموازين الباعة، بائعي الخضـرة بكـل الخيـرات والالـوان ومنهم أبـو قاسـم محمـد غـالي ذلـك الإنسـان البسـيط، السـوق منـذ الفجـر وحتـى الغـروب يعـج بالمتسوقين من المدينة والزائرين، وتنتهي في تقاطع مقهى عبيد أو تتجاوزها إلى ماقبل سكة القطار بقليل.

يتناسـب طـول السـوق طرديـا مـع كميـة الحصـاد ووفـرة المحصـول والمنتـوج ومما وهـب الله للفلاحين والمـزارعين مـن الخيـرات والانعـام، ذروتـه الصـيف، فـي بـداية السـوق عنـد الدوار(الفلكـة) تخـتلط رائحـة القيمـر والخبـز الحـار بالبهـارات و(الفشافيش)، وتترابط الأخبار بالاسعار واخبار مظاهرات الطلبـة ومـا يترقبـه ويتبادلـه المجتمعـون مـن معـارف المدينـة عنـد (قنفـة) علـوة أو مقهـى أو دكـة دكـان أو فـي ليـالي رمضـان. ومـا احلـى (التشميسـة) والنقـاش مـع زمـلاء الدراسـة أحسـان داوود الصـباغ

وصلاح مهدي وابن عمه عبد الرحمن وعبد الزهرة واحمد المهنا.

حركة لا تركد كأنها النحل ممتدة من (الفلكة الرهيبة)؛ التي هي مسرح لكل الاحداث السياسية التي عصفت بالعراق وبالبلدان العربية والتي عندها تلقى الخطابات والكلمات وتنفك المظاهرات لتتوزع وتسري اخبارها من كل تقاطعاتها الاربعة إلى مقاهي المدينة ومحلاتها، شمالا إلى اليوسفية ولبغداد، وجنوبا إلى شيشبار واللطيفية إلى الحلة، شرقا لسكة القطار ومحطته وما خلفها من البساتين، غربا للجامع الكبير والمحكمة وما بعدها ولباقي النواحي والارياف المحيطة بالمدينة.

في الصباح تلقى قاسم يساعد اباه ومحمود اخاه في اعداد سلال الخضراوات حمراء خضراء صفراء بيضاء سوداء... ياتي بها الفلاحون لسوق المدينة وقت الغروب أو للتو وأن تأخرت فرائحتها الطرية ممزوجة بالطماطم والخيار والريحان تدخل الرئتين بارتياح. يكتمل تسوق الناس بهدوء... تنخفض حركة السوق قبل وصول الشمس سمتها بحين، يأتيك قاسم بمشيته المتباطئة متأبطاً مجلة الموعد يأتي بها من محلة الجديدة، من دكان عبد طاهر (الدكان الكنز من المجلات والنمنم) وفي داخل صفحاتها وريقات لا يعلم بها الا هو، يستلها بهدوء وتتلاقفها الايادي... تمعنُ الفتية البصر بصور واخبار الممثلين والممثلات، ومن دونهم وبتمعن... يُحسن من يسترق النظر إليها جبار رزوقي (الاقجم) بزاوية نظره القلقة المترددة المضطربة.. والله اعلم بحالته، وكذلك اخبار المسرح والسينما من لبنان ومصر وبعض

الدول العربية والنشاطات الفنية واخبار متفرقة مقتضبة أخرى لسهولة قرائتها على عجل... يُكرمْ قاسم أصدقائه بامانة وطيبة باستعارتها لوقت الغروب وعند الانتهاء من المطالعة العصرية عند سكة القطار اواللقاء عند غرفة (المقصجي) المقابلة لبيت عبد السادة.

... وتطورت عملية تبادل الطوابع والتصفح الشهري لاعداد مجلة الموعد والعربي إلى قراءة صحف ومجلات وكراريس وكتيبات للشبيبة والطلبة وكتب متفرقة لم تعرف من قبل، واخرى على اغلفتها صور لابي النصف لحية لينين، والاصعب منها لابي اللحية الكبيرة ماركس، ومفردات غريبة؛ انتاج، وسائل الانتاج، مواد وعمل وربح، توزيع الخيرات المادية، استغلال، طبقة عاملة، رأسمالية وامبريالية واشتراكية، سياسة واقتصاد، لا يفهم محتواها الا بصعوبة بالغة يحل شفراتها قاسم في بعض اللقاءات حينا، أو حينا أخر يشرح جانبها السياسي؛ الأكبر منا جميعا الاخ علي حسن (علوكي) والاقوى حسب مباراته والتي فيها يحمل على ظهره (وزنتين) من الاكياس نزولا من سيارة الحمل (اللوري) ويركنها في ساحة العلوة (لا فتى الا علي)، فعليٌ هو القاسم الاعظم وبالطيبة ايضاً.

يذكر وسام:

- ذات مرة نجوت من موقف محرج خوفاً من والدي، في لحظتها اعطاني علي (علوكي) كراسا احمرا "لابي النصف اللحية" لقرائته، تداركت الموقف بدسه داخل كتاب التأريخ اثناء التحضيرات لامتحانات الصفوف المتوسطة، وبالتحديد في

صفحة فصل العشائر، بالصدفة ورد هذا السؤال في الامتحان بماهية اعوص المشاكل التي واجهت مدحت باشا في العراق؟.

من هذا الوسط البسيط الجميل تعلم التلاميذ اولاد المحلة الكثير من المعاني والمفردات؛ اصدارات، اعداد شهرية، ارقام، صور، طباعة، ورق، كتاب، محررين، مؤلفين، مسرح، مسرحين، ممثلين، مخرجين، سينمائين، فنانين، رويدا رويدا أخبار متفرقة قصيرة تجذب الصبية إلى الجدل ويشاركون به بافتخار وبنقاش الاصدقاء، وان صعب شيء يشرحه قاسم أو يحسمه قاسمهم الاعظم أو من هو اقدم منهم بمراحلة دراسية اواكبر منهم عمرا، من امثال رزاق شعلان وعلي حسن واخرين... والشيئ الجميل يذكر؛ رحمة وسلاما لروح الاستاذ رزاق شعلان ولروح من رحل من الزملاء والاصدقاء من فتية المحلة والتلاميذ والطلبة القراء على سكة القطار....

- كان لقاسم الدور المحسوس بامكانياته واسلوبه الهادئ في الايضاح والاقناع... وذلك وفق مطالعاته واهتماماته المبكرة مع ان واقع الصبية المعيشي الاجتماعي يكاد يكون بمستوى متقارب.. وقد يكون السوق، العمل والكد المبكر، الفقر والقهر والجور والعوز والوسط الطيب الانساني والذي يعيش الإنسان فيها معاناة الحياة في كل مراحلها؛ تصقل اناسها بذلك الجمال الروحي والمواقف الانسانية. وبالفضل الجميل والدور الايجابي لبعض المدراء ومعلمي ومدرسي المدارس الابتدائية والثانوية الحريصين بشكل مباشر أو غير مباشر في زرع بذور الوطنية في

نفوس طلبتهم ومساعدتهم له الاثر الطيب الكبير، ويحق القول انهم تخرجوا من ذلك المعطف والعباءة الوطنية الحقة!.

- عند انتهاء الدوام المدرسي واثناء العودة من المدرسة الابتدائية (حلّة المدرسة أو بعد الردة) وفيما بعد الدراسة الثانوية، يفترق التلاميذ والطلاب، عند بيت قاسم المقابل لماكنة الطحين لحسن سلومي، ما زال ايقاع نوابض ماكنتها وضربات أحزمة عجلاتها امست سمفونية الانتاج والعمل وارتكنت في ذاكرة الصبا، بعد ان تتسلل رائحة الطحين (تراب الحنطة) الحارة الطيبة تخترق الخياشيم وبقوة تتغلغل إلى الرئة تتسابق مع رائحة تراب الطريق المرشوشة بالماء (مقابل بيت هراطه أبو طامي) إلى حويصلاتها، على امل اللقاء وقت العصر عند سكة القطار لتداول ما سوف تحتويه جعبة الأخبار غير الدراسية الاضافية للمصطلحات لذلك "الملتحي أبو نصف لحية لينين".

- لقد عايشت هذه المجموعة من الاصدقاء حينما كنا تلاميذ وطلبة فيما بعد جميع الاحداث السياسية التي عصفت بالعراق بوعي أو بدونه ولكن السمع والابصار على ذلك بشهود.. ومن هذه الاحداث:

ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ المجيدة التي قام بها الجيش بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم والضباط الوطنيين ومساندة جماهير الشعب والحزب الشيوعي العراقي باقامة النظام الجمهوري وانهاء الحكم الملكي وتبعيته وارتباطاته وتحالفاته واحلافه ورجالاته وشركات النفط والاقطاع، والمظاهرات التي عمت شوارع وساحات بغداد، وما قامت به الجمهورية الفتية من

التحـولات والمنجـزات الاقتصـادية السـياسية والاجتماعيـة؛ الاصـلاح الزراعـي وبنـاء الطـرق والمـدارس والمستشـفيات والمستوصفات والمعامل والمصانع وبناء المدن والدور لذوي الـدخل المحـدود وغيرهـا مـن المنجـزات فـي ظـرف الخمسـة سنوات.

يتذكر وسام ويقول:

- في صباح ١٤ من تموز خرجت متسللا إلى مركز المدينة (الفلكـة) كغيري من صبية المحلة وانتشلت صورة للزعيم عبد الكريم بزيه العسكري وعدت ادراجي مسرعا للبيت منتشيا زاهيا بحصولي على الصورة ولصقتها خلف الباب فوق صورة نوري السعيد رئيس الوزراء وهو (بالبجامة).

ويتسائل مع نفسه وهو ينظر للصورتين:

- احقا هذه النهاية!.

ان كـل هـذه الانجـازات ارعبـت الدوائـر الاسـتعمارية وفـي مقـدمتها بريطانيـا وشـركات الـنفط الاحتكاريـة والقـوى الرجعيـة عمـوما من بقايا الملكية والاقطاع والشيوخ والعشـائر وقسـم من رجـالات الـدين والشـرائح التي فقـدت مصالحـها بقيـام الثـورة، والتي كان من ضمن اهدافها الرئيسية تحقيق الاصلاح الاجتماعي وضـمان العدالـة بين أبنـاء الشـعب وتحريـرهم مـن الظلـم والفقـر والخوف والجهل والمرض وتشريع الاصلاح الزراعي رقم ٣٠ لسنة ١٩٥٨ والذي يمثل القاعدة الواسعة لهذا الاصلاح والذي وزعـت فيـه الاراضـي علـى الفلاحين ليصبحوا مـالكين لـلارض

لرفع مستوى الانتاج الزراعي ورفع مستواهم الاجتماعي وازالة اسلوب الانتاج الاقطاعي وازالة نفوذه السياسي.

وترافق الوضع مع اشتداد الخلافات بين جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم حول قيام الوحدة العربية شكلها ومضمونها ونظامها، حيث يرى عبد الكريم قاسم بان تقوم الوحدة في بداية الامر على التكامل الاقتصادي بين الدول العربية لتحديد التقارب بينها وتوحيد العملة ورويدا رويدا للوصول إلى الوحدة السياسية فيما بعد، حيث ان الدول العربية مختلفة بنظمها السياسية والتباين والاختلافات في ظروفها الداخلية والخارجية، وبالعكس من ذلك فان جمال عبد الناصر اراد اعلان الوحدة العربية بقيادته وباي شكل من الأشكال، فلازم العداء لعبد الكريم قاسم ومواجهة نفوذ الشيوعيين، فأُحيكت الدسائس والمؤامرات والمخططات في قلب النظام الجمهوري والانقضاض على ثورة تموز ومنجزاتها الوطنية، ابتداءا من تعرض الزعيم إلى عملية اغتيال فاشلة في ساحة الغريري في بغداد في ١٩٥٩ وبعد نجاته من هذه العملية صرح الزعيم بكلمته المشهورة (عفا الله عما سلف)، وبعدها قيام جمال عبد ناصر بتقريب عبد السلام عارف له ودعمه للقوميين والبعثيين والانقلابيين وتجهيز تشكيلات الحرس القومي ومقراته ومدها بسلاح بور سعيد وتوجيه بث اذاعة "صوت العرب من القاهرة" إلى العراق.

وفي الثامن من شباط الاسود ١٩٦٣ قام الانقلابيون والبعثيون وزمر الحرس القومي بالانقلاب المشؤوم وقتل الزعيم عبد الكريم ورفاقه الابطال بطريقة وحشية دموية، وتسلم عبد

السلام عارف والحرس القومي الحكم في العراق واقاموا (مقرات الابادة الجماعية) والمعتقلات والسجون والتي نزفت منها دماء المناضلين الوطنيين. وان جميع هذه الانقلابات العسكرية والمؤامرات في مصر والعراق وسوريا اجهضت التحولات الديمقراطية وتراجعت الحياة السياسية الحزبية وقادت البلدان العربية إلى الانتكاسات والخيبات والهزائم والازمات الداخلية والخارجية.

يقول وسام:

- كان يوم الانقلاب كانه يوم العاشر من محرم في معركة كربلاء، المدينة ميتة خالية من الحركة والناس، كان يوما مغبرا اصفرا قارصا تجمد فيه كل شيء حتى براميل الماء المخزنة في المقهى المقابلة لخان المحمودية وعلى يمين الصيدلية التي اعمل بها، وكانت واجهة خان السبيل الامامية من اعلاها قد استغلت بتعليق اللافتات والصور لحين من الوقت.

ويقول وسام كأنها كانت البارحة لم تفارق مخيلتي:

- حينها قدم الاخرس علي (الصانع الأخر في الصيدلية) مذعورا كانه الطير المذبوح يرفرف بجناحيه وكاد الرعب ينطقه لحدث جلل ولمشاهدته الدبابة الراسية عند مدخل احد الازقة ويشير باشارة على رأسه معناها (الزعيم أبو سدارة) جاء مسرعا لفتح التلفاز الصغير (اسود وابيض)، وقفت مذعورا متيبسا من الفزع وأنا انظر للزعيم ورفاقه الابطال يخرون صرعى مضرجين بدمائهم في مبنى الاذاعة، كان يوما اسودا انشقت فيه الأرض، وكاننا فقدنا فيه اهلنا امواتا وامسينا ايتاما، ظل هذا اليوم مؤلما

يحز في قلوب الناس التي احبت عبد الكريم ورفاقه والمناضلين الاخرين.

ويسائل وسام نفسه:

- ايستحق الزعيم ورفاقه الابطال هذا القتل، وهو الذي عفا على من قام بعملية الاغتيال وباطلاق النار عليه.

وحينها قال الزعيم عنهم:

- (عفا الله عما سلف).

فاية همجية هذه واي اجرام!.

وما انفراط عقد الوحدة العربية وفشلها (وحده ما يغلبها غلاب عربانة وتجرها جلاب..) الا دليلا على صحة ووجهة نظر وموقف عبد الكريم قاسم بصدد الوحدة العربية، وشهد العراقيون وفاة الرئيس المشير عبد السلام في البصرة أثر سقوط مروحيته ما بين البصرة والقرنة (صعد لحم نزل فحم) في ١٣ نيسان ١٩٦٦ وتسلم اخيه عبد الرحمن عارف (لا يحل ولا يربط) وزمام الأمور بيد طاهر يحيى (الملقب بابي فرهود) رئيس وزرائه...

ويؤكد:

- وبالرغم مما فعله جمال عبد الناصر بالعراق وبحق الزعيم عبد الكريم ومناصبته العداء الا انه وعند وفاته في ١٩٧٠ خرج قسم من الاصدقاء عاطفيا يبكونه عند سماعهم الاخبار، الا أنه يعتبر رمزا من رموز القومية العربية في تلك الفترة.

ويقول وسام:

- لقد رحل جمال عبد الناصر ورحلت معه الاحلام وأغبرت الشعارات في الوحدة العربية وتحرير فلسطين وامست القضية الفلسطينية مجرد لقاءات وقمم عربية.

ويتذكر ويقول:

- وفي ظهرية من أيام تموز والفتية مجتمعة في نفس المكان عند دكان سيد علي وكل كتابه بيده وقسم منهم يقلب مجلة الموعد... تأكد خبر انقلاب ١٩٦٨ وتسلم حزب البعث للسلطة.. كبرت حلقة الطلبة بانضمام بعض من الشبيبة الرياضية إليها تتبادل النقاشات عن ماهية هوية الانقلاب والانقلابين... اختلطت الأخبار والقطار، جاؤوا بقطار امريكي!.

اي قطار هذا؟، وان الاتحاد السوفياتي هو الذي شرع ببناء القطار الجديد ومدد سكته العريضة، فمن أين بهذا القطار الامريكي.

.. تكاثرت الاسئلة وتشعبت فما كان برزاق شعلان وعلي وقاسم وجواد كظوم الا ان يبادروا ويوضحوا للفتية مفهوم ومغزى هذا القطار، والايام والذكريات شواهد أثبتت صحة تلك التوقعات، فبأي وعي وفكر نقي مبكر كانت فتية وشبيبة المدينة مكتنزة ومتقدة، اخوة ليسوا باعداء.

توالت الأخبار فيما بعد من داخل الوطن، بانفراط عقد الجبهة الوطنية واشتداد الهجمة الدموية بحق العراقيين عموما وغير المنتمين لحزب البعث الحاكم في السلطة والتضييق عليهم من قبل اجهزة الامن العامة السيئة الصيت بالاعتقال واعدام الالاف من الشيوعيين واصدقائهم وتصفيتهم الجسدية وتغيبهم

في المعتقلات والسجون وبالمقابر الجماعية، تفرق الاصدقاء من مدينته الأولى والثانية ولم يستطع احد حتى السؤال عنهم، ففي بداية الثمانينيات اعدم صديق الطفولة والفتوة المسالم عباس السيد علي بتهمة انتمائه لحزب الدعوة وزميل المدرسة عبد الزهرة غلام ولاحقا الاستاذ المثقف الرياضي عبد الرزاق شعلان والصديق المعلم سكران مرهج والمعلم عباس مصعب واخرين من الحزب الشيوعي العراقي واضطر قاسم محمد والي كما غيره من الاف المثقفين والصحفيين والكتاب الديمقراطيين والشيوعيين إلى الخروج من العراق او الصعود إلى جبال كردستان او الاختباء بكل الأشكال، اضطر للخروج من العراق مشيا للحدود مع سوريا، عمل فيها صحفيا، كاتبا، بعدها مكث بعضا من الوقت في رومانيا لغرض الدراسة، واثناء التوجه إلى كردستان في ١٩٨٢ التقيناه مع صديقه الصحفي احمد المهنا مرة أخرى في دمشق وسئلوا وساما عن وجهته، بقى اولئك الاصدقاء ينضحون طيبة وحبا للناس وللوطن، قسم منهم قد رحل مبكرا وقسم قد صفي في زنزانات الامن العامة والمقابر الجماعية، كان عليهم الانتظار ليروا ما آلت اليه الظروف، حيث ضاع الحق والعدل واستلب الحلم والامل.

ويذكر وسام بان صديق المحلة قاسم محمد غالي وهو من على فراش الموت في احدى مستشفيات لندن حملني بوصية قال فيها:

- ارجو ابلاغ سلامي إلى جميع الاصدقاء في مدينتنا من أصدقاء المحلة والدراسة، وأسف لعدم اللقاء ببعضهم طيلة فترة الغربة ومرضي.

كل شيء من ذكريات المدينة والطفولة عبق بطيبة. كان المكان المحبب لدى التلاميذ وطلبة المتوسطة والثانوية للمطالعة بعد العصر هي سكة القطار يناشدها وسام ويقول:

- أحلفك انسيت يا حصى القطار
فتية مروا بك هم من الابرار
وشفاههم تفوهت باحلام غد واسرار
اياك استعين بذكرى لهم وباطلالة اذار
عندك الملتقى في الغروب والافطار
احلفك لا تنسى يا حصى القطار
فتية مروا بك هم اعزاء بافتخار

يذكر وسام ويقول:

- ان انحدار معظم التلاميذ والطلبة من عوائل فقيرة ومتوسطة الحال من المدينة والريف. حيث يصلون المدارس مشيا على الاقدام شاقين الازقة والدرابين والشوارع في البلل والطين والبرد شتاءا والحر صيفا، نتذكر تمثيلية تراجيدية لزميلنا الطالب محمد جيراننا وكيفية طريقته ومعالجته لصعوبة الوصول في فترة الشتاء، كان بعراك مع اخيه الكبير موسى بسرق بسطاله العسكري لينتعله ليخوض به تجمعات ماء المطر (الجيح) في طريقه إلى المدرسة وعندما يصل المدرسة مبكرا مثقلا بما احتواه بسطاله كيلوات من الطين الثقيل، يرن جرس الانذار لصبري الفراش

وقتها يدخل انذاره (ج) وليزيد من همه في هذا البرد ويخرج من طوره مضطرا بمنع هذا (التراكتور) خوفا من دخوله باب المدخل الرئيسي واجتيازه ارضيته المكسية بالموزائيك تاركا اثاره مما جلبه من الطين، ليقوم ويفتح له خصيصا الباب الجانبي لتمريره.

- اما أبناء العوائل الغنية والمتمكنة من المدينة والريف تصل أبواب مدارسها بالسيارات الفارهة او البيك بات.

ان المدارس والجامعات والتربية والتعليم هي انعكاس لسياسات الانظمة المتعاقبة وما تمليه على الوزارات المختلفة من التربية والتعليم والبحث العلمي والتدريس عموما برسم برامجها وخططها التعليمية واختيار الهيكل والكادرالتدريسي منذ العهد الملكي ومرورا بالجمهوري وحتى الوقت الحاضر.

2

اثناء دراسته الثانوية رغم تخللها بعراقيل ومشاكل الحياة واحداث كادت تغير مجرى حياته بشكل اخر، حيث كان المد والشعور القومي في اوجه وتأثيره وانعكاس ذلك في صفوف الطلبة حيث اراد قسم من الطلبة الاصدقاء الالتحاق بالعمل الفدائي من اجل فلسطين العربية المغتصبة من إسرائيل، الا انه وفي اللحظات الاخيرة تم الحيود عن هذه الفكرة، الأنه لم تتخذ الاجراءات الكاملة لاستقبال هؤلاء المتطوعين سواء كانوا متطوعين بدافع شخصي فردي اومن قبل الأحزاب الوطنية.

لقد عايش وشهد عن وعي بكل هذه الاحداث والمرارات المؤلمة والتي لم ينعم العراق بها بالاستقرار والامان؛ بدأ من انقلاب ١٩٦٣ الدموي على وجه الخصوص واحداث حرب ١٩٦٧ وما تركته من تأثير نفسي سلبي على المزاج العام، وما بعدها انقلاب ١٩٦٨ وتسلم البعث مقاليد السلطة في العراق، ووفاة جمال عبد الناصر وضياع وفقدان الامال في شعارات تحرير الأرض الفلسطينية وتعقد الأوضاع فيما بعد من جراء الاخفاق بسياساتها الهمجية والقمعية وحروبها العبثية واحلال التفرقة بدل الوحدة المنشودة جلب الكوارث للوطن ولشعوب واقتصاديات بلدان المنطقة.

ومنذ اليوم الاسود المشؤوم في انقلابات ١٩٦٣ وما تلاها في ١٩٦٨ بصدور قانون الاصلاح الزراعي ١١٧ لسنة ١٩٧٠ في بداية الأمر مبرقعا بشعارات المجلس الزراعي الاعلى وبنهاياته كرست سياساته برجوع الاقطاع وبقاياهم وكبار الملاك بشكل أخر كرؤساء للجمعيات الفلاحية والتي ارهنت عملها خدمة لسلطة حزب البعث الحاكم مستفيدة من تعين ابنائهم ضباطا في الجيش والشرطة ودوائر الامن، وتباعا حصل التردي في المسئلة الزراعية وذلك لعدم اتباع سياسة اصلاحية حقيقية في تغير واقع الفلاح والمزارع الفقير الامر الذي دفعهم إلى ترك الأرض والتوجه للمدن للبحث عن مصدر للرزق، وامسى قسم من هؤلاء الرؤساء يرتعون في المدينة يرتادون النوادي الليلية تاركين الأرض ومشاكلها ومتطلباتها لمن تبقى من الفلاحين الفقراء وزج ابنائهم في جبهات الحرب والقتال مما ادى إلى تدهور الانتاج الزراعي، وامست الأرض سبخة ورحل راعيها، شحَّ النهر وقلع النخل، فتُرك الزرع وصدأ المنجل واصفر المرعى ويبس البيدر.. ومنه فزعت اسراب القطا.

ويتألم وسام:

- وفي هذه الظروف التي عشناها من معاناة وبؤس ومأساة وضياع وحرمان واضطهاد وقمع وتضييق، وبعد تأدية الامتحانات الوزارية لمرحلة الدراسة الاعدادية وانتظار نتائجها ونتائج القبول ودعت حياة المدرسة والمدينة والتحقت بالدراسة الجامعية في بغداد، كانت تحدوني اماٌل كغيري من الطلبة في التخرج وايداء

الخدمة العسكرية الالزامية ثم العمل ويسعدني الحلم بالحب الأول الذي رسمته مخيلتي وبناء عش الزوجية.

كانت المراحل الأولى من الجامعة جميلة جدا، أعوام انتقال من الحياة المدرسية في المدينة إلى الجامعة في العاصمة بغداد، إلى مرحلة انضج حيث بدأ الوعي ينمو يتطور يتكامل ويتبلور، في الجامعة وكلياتها المتنوعة حيث يكون للاختلاط والتعارف بين الطلبة المختلفين بمستوى الوعي والثقافة والمنحدرين من مختلف شرائح المجتمع العراقي والقادمين من مختلف المحافظات تأثيرها الايجابي على الطلبة عموما بتبادل المعرفة وخبرة العمل الحزبي والنشاط الطلابي والوعي السياسي والثقافي.

في السبعينيات كان الزي الجامعي يوحد كافة الطلبة وبالاخص في جامعة بغداد، وهي ظاهرة جيدة تقلل التمايز المادي بعض الشيئ في مظهر وملبس الطلبة في الجامعة طلاباً وطالبات حيث البنطلون باللون الرصاصي والسترة باللون الأزرق الغامق، ويستطيع الطلبة التمكن لحضور الفعاليات والنشاطات المتنوعة من الادب والفنون والصحافة والسياسة والاقتصاد والفلسفة والعلوم الأخرى في كليات الجامعة الأخرى. وفي العاصمة بغداد فيها كل ما تتمناه الانفس وتهواه وما تطلبه من مستلزمات وادوات وكتب ومجلات قديمة والجديد ما يباع وينشر في المكتبات ودور النشر والمطابع المتوفرة في شارع المتنبي وملتقيات للادباء والكتاب والشعراء واهل الفن والفنون، اضف إلى ذلك المتاحف والمعارض ودور السينما والمسارح

والمعاهـد الأخـرى والنـوادي والجمعيـات والمنتـديات والمراكـز الثقافيـة. امـا أيـام المدرسـة فجميـع الطلبـة معـروفين متعـارفين في المدرسـة الواحـدة او المحلـة والشـارع فالنشـاطات والعلاقـات محدودة ومحددة.

استفاد عند الالتحاق في الجامعة في بغداد ومن وجود غالبية المدرسـين فـي المدرسـة يعيشـون فـي العاصـمة، اسـتفاد ماديـا؛ بعـرض مـن اسـتاذه صـفاء العـاني معـاون المدرسـة (شـيوعي قـديم وضـابط احتيـاط ادى خدمتـه فـي النجـف الاشـرف) والـذي كـان يعمـل محاسـبا (عمـل اضـافي بعـد الـدوام) في شـركة للمقـاولات لاحـد رفاقـه، بالعمـل فـي الشـركة حيـث عـرض عليـه ان يعمـل حارسـا للمكاتـب في السـنة الأولى بعـد انتهـاء الـدوام، غرفتـه في الطابق الأول للشركة يستغلها للراحة والنوم، وبعض الأحيان كـان يلجـأ الكثيـر مـن الاصـدقاء والـزملاء مـن طلبـة المحافظـات المنقطعين والمتأخرين ليلا في الوصـول للقسـم الداخلي تأويهم هـذه الغـرفة المزودة بوسـائل الـراحة، وبراتـب لا بـأس بـه يضـاف إلى المخصص الشهري من الجامعة.

وفي السنة الثانية شرع بمساعدة المهندسين في تحضير بعض المخططـات والرسـومات ويتقاضـى عليهـا اجـرا اضـافيا فـي حـين تقـوى نتيجـة ممارسـته الرسـم الهندسـي وتوسـعت معلوماتـه الهندسية. كانـت أيـام الجامعـة حلـوة واوقـات الفـراغ يقضـيها فـي المطالعـة والقـراءة وقـد غـرفَ وارتـوى ثقافيـا مـن وجـود بعـض الكتـب لـدى المهندسـين المتنـورين العـاملين في الشـركة، ونتيجـة الاخـتلاط بالوسـط الطلابـي المتنـوع والاصـدقاء تسـارع النشـاط

وكبرت وتوسعت حلقات المعارف والاصدقاء من المحافظات الأخرى وناشطيهم وتعداه إلى النشاط الحزبي في المدينة اثناء نزوله أخر الاسبوع، واصبح نشطاً ومحبوبا بين صفوف الطلبة والطالبات حتى اسماه احد الاصدقاء مازحاً "دون جوان" مسؤول خط الطالبات وخصوصا بين بنات المحافظة، كان يسدي عليهن الخدمة والمساعدة في كل شيء حتى إذا ما اجتمعن ورغبن بدخول دار السينما احاطوه علما لكي يرافقهن وكانه المدافع و(راعي الحرم) وامين سرهن، واذا انتهى الاسبوع الدراسي يوم الخميس يهمُ في حجز المقاعد الخلفية لباصات النقل في كراج العلاوي لحافلات المحافظات الجنوبية المزدحم بالمسافرين وبعمله وسلوكه هذا هو موقف شيمة ونخوة ريفية عراقية والتزام خلقي.

هكذا كانت هي اجمل العلاقات علاقات الاخوة والدراسة والزمالة والصداقة والمعرفة والعمل الطلابي والرفقة والفكر والمبدأ، الامر الذي اثار غضب طلبة الاتحاد الوطني والبعثيين وامسوا يتصيدون لكل ناشط طلابي غيرهم ويحيكون الدسائس لهم، وقد حصلت عدة انتهاكات ومضايقات في الحرم الجامعي وخارجه، وأصبحت ممارساتهم لا تطاق في المراحل الاخيرة من الدراسة بعد ان جمعوا الكثير من المعلومات من الرصد والمراقبة للطلبة المستقلين وغير المنتمين للاتحاد الوطني أو لحزب البعث واصبحوا يعدون الخطط لاغتيال من يعارضهم وبهمجية.

يؤكد ويذكر وسام:

- ساءت الأوضاع بعد انقلاب ١٩٦٣ حيث زج بالالاف من الاساتذة والمدرسين والمعلمين ذوي الميول اليسارية في الجامعات والكليات والمدارس في السجون والمعتقلات وشن الحرس القومي ابشع صور ووسائل الارهاب والتعذيب وصفيت اعداد كبيرة من الاساتذة في السلك التعليمي في هذه المعتقلات والسجون ومنهم من حالفهم الحظ افلت بالهروب إلى خارج الوطن واللجوء إلى بلدان العالم. واشارة لبعض من الممارسات التي قام بها الحاقدون على السياسة التعليمية في كافة المجالات.

ويذكر وحسبما أشيعَ من أخبار، انه في زمن عبد الكريم قاسم عندما قام بتعيين الدكتور الفيزيائي عبد الجبار عبد الله رئيسا لجامعة بغداد، اعترضت المرجعية في النجف على هذا التعيين بحجة ان الدكتور من الطائفة الصابئية، كان جواب عبد الكريم قاسم:

- بانه تم تعيين الدكتور ليس في الجامع بل في الجامعة وباختصاصه العلمي وهو اهلا لذلك.

بعد ١٩٦٨ تغيرت الأمور نحو الأسوأ بدخول وتدخل السياسة والحزبيات بشكل مباشر في السلك التعليمي والتأثير على المدرسين والاساتذة في التدريس حيث يجب ان يكون مدراء المدارس من الحزبيين البعثيين، وانتهاج سياسة الترهيب والترغيب والتضييق على المدرسين الاخرين من غير الحزبيين ذوي التوجهات الديمقراطية الاجتماعية والشيوعية وتهميشهم رويدا رويدا مما ترك اثره السلبي على الطلبة ودراستهم ونشاطهم

وابـداعهم عمومـا وبـدأ الاسـتقطاب والتنـافر والتمحـور فـي العلاقـات عمـوما داخـل السـلك التعليمـي وانعكاسـاته السـلبية والضارة على مجمـل الحيـاة الطلابـية والجامعية، حيـث وبايعاز وتوجيه من قبل رأس النظام وباشرافه المباشر وتعليماته قامت الاجهزة الامنية وعناصرها وعناصر الاتحاد الوطني لطلبة العراق بحملة امنية ارهابية دموية بشعة ضد الطلبة في المدارس الثانوية والجامعـات وشـملت المدرسـين والاسـاتذة الجـامعيين غيـر المنتمين لحزب البعث، بداياتها في عهد البكر واشتدادها بعهد صدام عند تسلمه السلطة والتي اسماها بتنظيف (كـورة الـزنابير) في الجامعات والمدارس راح ضحيتها اعدام وتصفية المئات من قوائم المعتقلين من الطالبات والطلاب والاساتذة والمدرسين والمعلمـين مـن الشـيوعيين واصـدقائهم انفـرادا أو فـي مقـابر جماعية وممن اختفت اثارهم ولم تسلم جثثهم لاهلهم وذويهم وبدون قبور، وقسما من هؤلاء الشهداء من أصدقائه وزملائه في المدرسة والجامعة ومن معارفه ورفاقه في مدينته.

لـم يتسـن لـه اسـتلام شـهادة التخـرج مـن الجامعـة أسـوة بالخريجين من دورته التي اسميت حينها بدورة الرئيس أحمد حسن البكر، حيث يتذكر وسام كانت الدراسة في بداياتها باجواء الجامعة وحرمها جميلة وهادئة، حيث يتسارع الطلبة للنهوض مبكرا والخروج من القسم الداخلي والتوجه إلى صوب نادي الطلبة حيث يلتم ويلتقي الاصدقاء من الزملاء والزميلات لتناول الفطور ولتبادل الأخبار ولشم أنواع العطور لتضفي بهجة للصباح يروق فيه المزاج.

ويقول وسام:

- ذات صباح مبكرا كنت متوجها إلى قاعة الامتحانات قادما من النادي بعد تناولي الفطور، وعن وصولي باب القسم المدني فاذا بسيارات سوداء وبحرس مسلحين توقفت امامي فما هي الا لحظة ويترجل منها رئيس الجمهورية احمد حسن البكر.

تسمر وسام بمكانه فجاءة كانه عمود الحديد ووجهه المصفر من الخوف يقابل وجه الرئيس مرتبكا لا يعرف ما العمل، ادى وسام له التحية وباستعداد عسكري قائلا متلعثما:

- مرحبا عمي مرحبا سيدي.

وسأل الرئيس البكر:

- أين رئيس الاتحاد الوطني؟.

في الأثناء هرع طلبة الاتحاد نحو التجمع ومن ضمنهم رئيس الاتحاد الوطني والذي اتضح فيما بعد بانه من اقرباء السيد الرئيس وكان حينها طالبا مؤدباً، لحظتها لم يدركوا الرئيس الا وهو وحمايته قد دخلوا القاعة القريبة لمدخل القسم المدني ووقفوا عند احد الطلبة الوسيم الوديع الجالس في المقعد الامامي منكبا في كتابه يتهيأ للامتحان ولم يدرك ما الذي يجري من حوله وللحظتها لم يستطع النهوض من مقعده، اهي لحظة خوف أم ارتباك لم يعرف.

سأله احد افراد الحماية:

- لِمَ لم تقف للسيد الرئيس؟.

هز بكتفه ولم ينبس ببنت شفةٍ ولم يعرف ان يجيبهم ويتدارك الموقف المفاجئ هذا، وللحظات اخذته ازلام الحماية إلى

المعسكر لتأديبه لكي يكون عبرة لغيره ولمن لم يقف للسيد الرئيس احتراما له، وبعد ساعات اعادوه لمكانه حليقا مخدشا مرصعا بالكدمات في الوجه والرأس وكانه اصبح اخرساً، بهذه الأثناء هم وسام بمغادرة المكان وعدم حضور هذا اللقاء او الاجتماع تفاديا لاشكالات أخرى قد تترتب، فاذا بالطالب يتوجه اليه طالبا منه واقية الرأس لتغطية رأسه وامام طلبة الاتحاد الوطني، فاغتاظوا لذلك غيظا وتحاملوا على وسام لحين اكتمال جمع المعلومات عنه وعن علاقته ولقائه بهذا الطالب البغدادي الهادئ المسالم الوسيم والذي لم تعرف أخباره بعد انتهاء الفصل الدراسي.

لقد مارسوا وابتدعوا كل المجاملات والصلات والعلاقات في القسم الداخلي للطلبة لمعرفة توجهات وسام السياسية والتي كانت لحد هذا الوقت لم تصقل بعد بالمستوى المطلوب ولكنه وهو الريفي الشهم يمتاز بقوة الحس والحدس، ومن خلال خبرته البسيطة في المدرسة الاعدادية وتجربته في العمل الطلابي في اتحاد الطلبة وطيبته جعلتها بان تحيد وتشتت من دسائسهم ونواياهم الخبيثة وحقدهم وتمتص من حقدهم غضبهم وغبائهم، ومع ذلك لا يعلم ما تضمره من قادم الأيام، فاخذ يتحرك بيقظة وحذر عند تنقله خارج الحرم الجامعي، وبعد ان تجمعت المعلومات لديهم اصبحوا ينتهزون الفرصة الملائمة ويعدوا العدة للغدر بوسام وبزملائه الاخرين.

عند اداء الامتحانات النهائية حاول وسام التواري عن الأنظار بسرعة بسبب ملاحقة المسؤولين من الاتحاد الوطني وازلام

الامن العامة بالتحريات والكبسات المستمرة لحرم الجامعة وبعد ان قاموا بالاعتداء الغاشم على بعض الطلبة وكان من ضمنهم حيث ابرحوهم وابرحوه ضربا في حلقة كحلقات عصابات الكاوبوي عند السياج الخلفي للجامعة حيث اغمي على احدهم واصابوه بجروح بليغة نقله المارة إلى المستشفى خلف الجامعة، حاول حينها وسام النهوض والافلات بنفسه بسرعة وبمغادرة المكان إلى مدينته وانتظر لحين ان تهدأ الأوضاع وتعلن نتائج البعثة التي قد قدم لها في وزارة الري.

انتهت الفترة الزمنية للترشيح للبعثة الحكومية ويئس منها وبعد ان ابلغه المسؤول البعثي عن البعثة في الوزارة بان تسلسل اسمه ازيح إلى الاحتياط لخلو ملفه من كتاب تأييد من فرع حزب البعث في مدينته. تيقن بانه لا يستطيع الحصول على هذا الكتاب من فرع الحزب لارتباطه بالقوى الامنية وتيقن كذلك بان عليه علامات استفهام وكما يقول المثل بان (وشيعته مصبوغة بالاحمر)، لذلك استوجب الامر الالتحاق لاداء الخدمة العسكرية الالزامية حيث لم يبق الا يوم واحد وخلاف ذلك يعرض نفسه لعقوبة التخلف من الخدمة العسكرية بوقتها (يوم لا ينفع.. الا من أُتى بكتاب من البعث العظيم)، لقد حسم هذا الأمر وقادته ساقاه إلى معسكر الرشيد بعد ان اشترى حقيبة صغيرة للملابس (حمراء) صناعة عراقية، كتلك الحقائب التي يشتريها الجنود عادة من ساحة الطيران منطقة باب الشرقي بدراهم معدودات.

التحق بالمعسكر في ضحى النهار في أول أيام شهر رمضان، وقد سبقه بالالتحاق الكثير من الزملاء المعارف بيومين أو ثلاثة

من نفس دورة التخرج، التقى خلالها ضباطا وضباطا مهندسين من أبناء المدينة الامر الذي قد خفف عنه بعض الشيئ في المراقبة كما حصل ذلك في الجامعة، وبعد يوم من التحاقه للمعسكر، ادخل معسكر الرشيد في انذار بسبب نشوب الحرب بين سوريا واسرائيل ١٩٧٣ وكان ذلك في شهر رمضان، لم تكن فترة التدريب صعبة فيه وذلك بوجود بعض الاصدقاء الضباط والضباط المهندسين من بلدته ومن معارفهم، والامر الاخر لوجود عدد من زملائه الخرجيين والذين احسنوا التصرف والالتزام بسبب معرفتهم المسبقة واطلاعهم بمعلومات من هنا وهناك إلى انه يجب عليهم وزملائهم الحذر والانتباه وعدم القيام باي نشاط سياسي أو حزبي داخل المعسكر، وربما قد تكون حرب تشرين اشغلت الحزبيين البعثيين بغض النظر عن المراقبة والتحري عن الجنود غير البعثيين.

انتهت مدة التدريبات العسكرية في معسكر الرشيد والتحق الجنود الخريجون بعدها بمديرية الاشغال العسكرية مقابل وزارة الدفاع (مقابل لبن اربيل) والتي قامت بدورها بتوزيع هؤلاء الخرجين حسب اختصاصاتهم الهندسية إلى المعسكرات القريبة من مدن سكناهم حيث ان الخرجين من مهندسين ومعاونيهم تم توزيعهم إلى شُعب ومواقع الاشغال العسكرية في هذه المعسكرات.

كان موقع المعسكر المنسب اليه في حامية المسيب بالضفة الأخرى من نهر الفرات باتجاه منطقة جرف الصخر، حامية عسكرية قديمة منذ أيام الانكليز وفيما بعد مقر للفرقة الأولى،

وكباقي المعسكرات في الفرات الأوسط والجنوب والوسط امست الحامية مركز قيادة للفرق العسكرية، فيها ساحة تعداد للجنود وغرف للقيادة وقواويش ومكاتب تسمى القلم، تحيط بالمعسكر أشجار الكالبتوس العالية واشجار الياس والنخيل وحدائق من بقايا الانكليز ونادي للضباط، وهنالك دور للضباط ونواب الضباط، اضافة إلى المصنع العسكري للاسلحة وورشه والمستشفى والمستوصف العسكري، كان الاشراف على المباني والمنشأت من قبل ضابط الاشغال مهندس مدني ومشرفين فنيين ونواب ضباط متواجدين في قلم الاشغال، كانت تسودهم علاقات اجتماعية طيبة منذ فترة حكم عبد الكريم قاسم وتعقدت في فترة السبعينيات لدخول الحزبيات والانتماء لحزب السلطة، وبشتى السلبيات من الفساد والخوف والحذر والمصالح الضيقة وتحريم أي نشاط حزبي أو سياسي ما عدا حزب البعث الحاكم وذلك لبناء جيش عقائدي يكون السد المنيع للسلطة السياسية، وسيطرة ضباط التوجيه السياسي على مجرى الامور في المعسكرات، فالويل كل الويل من تلصق به تهمة الانتماء الحزبي لغير حزب البعث العربي الاشتراكي وعقوبتها الاعدام.

تقديرا وتثمينا للجهود المبذولة من قبل ضابط الاشغال ونواب الضباط والجنود الخرجين والفنيين والعاملين في الموقع في تنفيذ بعض المشاريع؛ مشاريع بناء وحدات سكنية للضباط وضباط الصف، الطرق والمساحة وتعديل الخرائط والاشراف على بناء مخازن العتاد الغربية المغطاة تحت الأرض ومشاريع أخرى مثل اسالة الماء وتصفيته وشبكة توزيعه والاشراف عليها،

صدر كتاب شكر من قيادة الفرقة الثالثة لهذه الانجازات وتم بموجبه التحاق ضابط الاشغال بدراسات الماجستير.

وبعد انتهاء عملية استلام وتسليم لاعمال الموقع وتوقيعها من قبل الطرفين ضابط الاشغال ووسام، اغلق الضابط باب المكتب وطلب من وسام بالجلوس والاستماع إلى ملاحظاته ونصيحته ووفق تجربته.

اجابه وسام:

- نعم سيدي.

اردف ملازم الاشغال:

- اجلس بدون سيدي.

يوضح الملازم لوسام؛ بان هذا اللقاء هو لرد الجميل لخالك، وهو معلمنا الأول في المدرسة ولمواقفه المشهودة واحترامي له يدفعني الأمر ان اقدم لك هذه النصائح كاخ والالتزام بها في المستقبل لحين انهاء خدمتك العسكرية:

- يجب عدم الوقوع في أي خطأ، أي يجب دراسة المخططات المصدقة بعمق وتمحص.

- وعدم التوقيع على أي كتاب رسمي إذا لم يتم التأكد من محتواها وصحته بالتمام والكمال وبالاخص العمل مع المقاولين، وبعكسه تعرض نفسك لعقوبات عسكرية صارمة ولا سيما انك لست من البعثيين.

بعد الاصغاء والاستماع لهذه النصائح اجابه وسام:

- شكرا سيدي لهذه النصائح وسوف اكون عند حسن ضنكم. واتمنى لكم التوفيق في دراستكم اللاحقة.

وبهذا الشأن طلب منه مهندس المقاول ذات مرة والذي يكبره عمرا وخبرة ان يقوم بفحص الاعمال الخرسانية واعطاء امراً بالسماح له بصب الخرسانة، قام بالفحص حسب المخططات في الموقع ووعده عندما يعود إلى المكتب يصدر امر السماح. وصل وسام المكتب وحسب وصية ضابط الاشغال اراد ان يتحقق من المخططات المصدقة، وجد حقا بان هنالك فرق طفيف في كميات الحديد بينها وبين مخططات الموقع، اتصل بمهندس المقاول واخبره بالغاء عملية صب الخرسانة لحين تبيان الامر، اتضح الأمر بخصوص هذا الأشكال واعتذر مهندس المقاول بهذا الخطأ. ازداد وسام قناعة بالاخذ بنصيحة ضابط الاشغال في هذا الشأن، بعدها استمرت العلاقة بين وسام ومهندس المقاول طيبة مبنية على الثقة والاحترام المتبادل في تنفيذ المشروع.

وذات مرة طرق باب الدار احد المقاولين المحليين بعد الفطور وجاء لزيارته يشكره على السماح له بمواصلة العمل وتنفيذه، اجابه وسام:

- بان هذا من حقك، بعد التحقق من الأمر بارسال النماذج إلى المختبر التابع للاشغال العسكرية في بغداد ونجاحها في الفحص المختبري ومطابقتها للمواصفات، لذلك كان عدم التوقف في العمل.

بنهاية الزيارة ترك المقاول ظرفاً مغلوقاً، سأله وسام:

- ما هذا الظرف؟.

اجابه المقاول:

- هذه هدية لكم لشراء سيارة.

غضب وسام لهذا التصرف واجابه:

- ارفع هذا الظرف من الطاولة ومرة أخرى ارجوك ان لا تطرق بابي ثانية.

الح عليه المقاول واراد ان يشكره، ورده وسام:

- مجيئك هو تعبير عن الشكر وبهذا صار يكفي، وأنا قمت بواجبي وشرف المهنة يحتم علي التصرف حسب الاصول.

رفض وسام رفضا قاطعا ونصحه بعدم الاقدام على هذا الاسلوب مرة أخرى. وودعه إلى الباب.

ورجع لغرفته يتذكر جرة جده لاذنه، وقال:

- نعم هكذا هي تربية جدي ونعم هذا بما اوصاني به.

منذ الصباح مبكرا يخرج وسام بزيه العسكري الجميل إلى مقهى في مركز المدينة يتناول الفطور او يأخذه معه بحقيبة صغيرة وينتظر مرور سيارة ضابط الاشغال ليقله معه إلى المعسكر ومعهم في بعض الأحيان المستخدمين الفنيين، وتتكرر عملية النقل كل يوم ما عدا يوم الجمعة مع السائق نائب العريف يوسف من مناطق كردستان الذي يشبعهم بنكاته ولكنته الجميلة حتى وصولهم الموقع عند عدم وجود ضابط الاشغال معهم.

وذات يوم حينما كان وسام يتناول فطوره في المقهى واذا بهيأة استاذه الموصلي بمادة المساحة، التي تشبه هيأة المخرج والممثل المصري يوسف وهبي قد انتصبت امامه في المقهى المقابلة في الجهة الأخرى للشارع، تسائل مع نفسه؛ مالذي جاء باستاذه إلى مدينة المسيب وفي هذا الصباح الباكر، همَّ إلى

ملاقاته ولكنه توقف اخذ لدقائق يراقب الموقف، قطع الشارع مسرعا ليتحقق من امره، نعم هو بعينه وبجسمه ولون وجهه الاحمر الاستاذ فؤاد الفندقلي، سلم عليه ورحب به اجمل ترحيب وعرض عليه بتقديم المساعده، فعرفه الاستاذ بان هنالك مشروع لتزويد الارياف والقصبات بالماء النقي يروم لدراسته وتقديم العروض، فعرض الاستاذ عليه العمل بعد الدوام الرسمي للقيام باعمال المساحة لهذه القرى والقصبات في محافظة بابل ويتطلب العمل بتحضير صبات خرسانية بحجم (السطل) كنقاط للمناسيب وسيارة بيك اب مع عمال لتثبيت هذه النقاط، استدعى وسام بعض الطلبة في المحلة للانخراط بالعمل معه وجلب المواد الاولية من الرمل والحصى والاسمنت وقطع من الحديد لصب هذه القطع الخرسانية في ساحة متروكة قرب البيت مقابل اجور يومية، وصادف ذلك الوقت العطلة الصيفية للطلبة.

كان لباس وسام العسكري (الخاكي) اقرب منه إلى المدني، حيث حال خروجه من المعسكر يضع القميص فوق بنطاله ويضع غطاء الرأس (البيرية) في جيبه فيتحول كانه لباس مدني ويستقل سيارة العمل التي تنتظره خارج سور المعسكر مارا بالعمال ليحملوا الصبات الخرسانية ويتم توزيعها على النقاط التي تم مسحها في القرى المعنية، يستمر عملهم لساعات متأخرة من النهار الصيفي، استمروا بهذا المنوال والحال إلى ان انهوا الاعمال المناطة بهم، استفاد وسام ماديا من هذا العمل وبقية الطلبة من أبناء محلته، ومرت الأيام وانقضت الاشهر بدون ملل إلى حين اقتراب نهاية خدمته العسكرية، الامر الاخر اطلع على

المجريات والاجواء والعلاقات في هذه الارياف والقصبات والابتعاد عن أجواء المعسكر.

صب وسام جل اهتمامه على تنفيذ المشاريع بعناية وامانة وحرص وحذر، ونتيجة لكثرة الاعمال التي انيطت به وعمله المتفاني فرض احترام كبارالضباط في المعسكر وتقديرهم العالي له مما ادى إلى اعفائه من التعداد الصباحي في ساحة العرضات كبقية الجنود والامر الذي زاد من حقد ضابط التوجيه السياسي له في المعسكر.

في المعسكر اخذ وسام يتحاشى وبحذر لقاء ضابط التوجيه المتهور الفارغ والحاقد على الخرجين الجامعيين وبكيله بكافة التهم الكاذبة وبعد ان اعتقلت كوكبة من الجنود الخرجين الشباب بتهمة علاقتهم بالحزب الشيوعي وقد يكون الضابط يتحمل جزءا من الخطيئة والمسؤولية، حيث ان التهمة هذه وما فيها؛ ان احد الجنود من معارفه قد نسى وجلب جريدة (طريق الشعب) بدون حذر ودسها تحت وسادته في قاعة المنام، اعدموه فيما بعد ولم ينفع مع القيادة العراقية طلب ورجاء القيادة السوفيتية في العدول عن امر الاعدام وكان الرد بانه قد حسم الامر، وامسى اعتقال الجنود المساكين يقلقه وينتابه الارق والكوابيس ويؤرقه لاعوام طويلة.

الأمر الاخر، كان وسام ولمرات عديدة ينسى غطاء الرأس (البيرية) عند الخروج والدخول من والى غرفة القلم المقابلة لغرفة ضابط الاشغال وعندما شغل الموقع بعض الاشهر لحين وصول الضابط المهندس الجديد، حيث اكثر الضباط ومن الرتب

العالية كانوا يترددون على مهندس الموقع لتزويدهم بخرائط مقترحة لبناء بيوتهم الخاصة وهو يشارك في رسمها وتقديمها لهم، ولم يتذكر بانه ادى التحية له في فترة تواجده في المعسكر. هذا وفي احدى المرات لاحظ وسام ضابط التوجيه بسيارته (الفيات البولوني) يعاكس احدى فتيات المحلة المقابلة لمحلتهم زوجة احد الجنود الشباب، فأخذته المروءة والحمية ان يقف في مكانه متسمرا يراقبه ولكي يحسسه بان الصورة والتصرف الوقح واضح للجميع، اذن اليس من خجلٍ، وهو اضعف الايمان الامر الذي ازاد الحساسية في العلاقة بينهما لاحقاً.

انهى وسام الخدمة العسكرية لمدة سنة وشهرين على مضض وقلق، جاء خبر التسريح لدفعتهم من قبل احد الاصدقاء الخريجين المجندين لوجوده في (القلم) بوحدته العسكرية واطلاعه على محتوى البرقية حيث لم تصل البرقية إلى دائرة الاشغال في المعسكر وقد يكون عدم الاعلان عنها مقصودا من قبل النائب الضابط في موقع الاشغال.

على عجالة وقلق وحذر وبسرعة البرق وبحجة اخذ العينات من مواد البناء إلى المختبر العسكري في بغداد، اخذ رقم كتاب التسريح الصادر إلى مديرية الاشغال العسكرية مقابل وزارة الدفاع في العاصمة وتصديقه ومن ثم توقيع دفتر خدمته العسكرية في منطقة تجنيده. لقد تحرر من هذا الحمل الحرج وازيل من صدره هماً وثقلا ورعباً وتوتراً خوفاً من ان تلصق به تهمة عابرة أو صدفة غبية لئيمة حمقاء تؤدي إلى نهاية حياته.

امسى عصر اليوم التالي مدنياً بقميصه الأبيض جالساً في مقهى المدينة، كان قبل ثلاثة أيام يجلس فيها مبكرا يتناول فطوره الصباحي منتظرا مرور سيارة الاشغال، اليوم لقد ادى خدمة العلم والوطن بشرف وافتخار وخلالها ازداد خبرة في مجال الهندسة المدنية ورجولة وخبرة حياتية واكتسب حب واحترام الاخرين من أبناء مدينته، ورغم كل هذا كان يراوده تصور وتمني بان حبيبة العمر سوف تُسر لهذا الخبر فخرا وتقديرا سوف تنزل من قصرها العاجي وتدعمه بالوصل وقرب الحلم والامل.

الان اصبح حرا طليقا يستطيع قضاء الوقت مع أصدقائه في المقهى المطلة على نهر الفرات وعند الجسر العتيق يراقب مجرى النهر المتدفق تطفو علية شموع اماني واحلام الفتيات راسخة على الواح الخشب تنحدر عبر منحنيات البساتين إلى سدة الهندية، يفكر بعمق بحياته الجديدة وسيواصل ويعيد علاقاته الاجتماعية ليبني مستقبله كبقية الشباب في العيش الكريم وليساعد اهله وعائلته وارتباطه بفتاة أحلامه التي يحبها حبا لا يوصف، حب الجنون حب الهيام. ويعيد صِلاته الحزبية التي بدأها في الجامعة وتوقفت وجمدت قبل أداء الخدمة العسكرية.

لم يستطع التعين بدوائر الدولة ويعرف بماهية الاسباب التي حالت دون ذلك، مع العلم بان الكثير من خريجي دفعته خصوصا الطلبة المنتمين لحزب البعث وطلبة الاتحاد الوطني قد حصلوا على التعينات والامتيازات في الدوائر والمؤسسات الحكومية والوزارات، وانخرط الكثير من أبناء العشائر والشيوخ في الكليات العسكرية والشرطة وتخرجوا ضباطا في الجيش والشرطة والامن

والاستخبارات برتب ورواتب عالية حيث احتكرت هذه المؤسسات فقط للمنتمين لحزب البعث الذي اراد ان يبني جيشا عقائديا، وقد استفاد الحزبيون المنتمون والعاملون في التنظيمات والمؤسسات التابعة للبعث في النقابات والجمعيات الفلاحية من كل الامتيازات في تحسين اوضاعهم الاقتصادية والمالية واوضاع عوائلهم وابنائهم من امتلاك الاراضي والعقار والشركات والمعدات.

رغم هذا استطاع وسام ايجاد عمل له في مدينة بابل في مجال اختصاصة في شركة ناشئة في مجال هندسة البناء من خلال علاقات القربى والمعارف، ينهض الصباح مبكرا مسرورا نشطا متجددا ليغادرالى موقع العمل ويعود المساء ليعاود جلوسه في المقهى ليجالس الاصدقاء بعد ان اعاد نشاطه السياسي باوساط الشبيبة والطلبة يحذوه حلم وامل في امنيات بسيطة مشروعة في الحياة.

الا ان هذا الحال لم يدم طويلا حيث تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، لم يكن بالحسبان الذي جرى فيما بعد، فقد تغيرت سياسة حزب البعث الحاكم وبعد توقيع ميثاق الجبهة الوطنية بوقت لم يستمر عرسه طويلا وبعد ان تعاظمت نشاطات الحزب الشيوعي بين اوساط الطلبة والشبيبة والمرأة والعمال في المصانع والمعامل والكسبة في المدينة والفلاحين في الريف وبين اوساط المثقفين ووجوه اجتماعية معروفه لها مكانتها، الأمر الذي دفع الحزب الحاكم إلى التضييق على نشاط الشيوعيين والانفراد بالسلطة والسياسة والمال وشدد من قبضته الحديدية

على كل زمام الأمور حيث اعتبر البعث الجبهة الوطنية جسرا للنظام لينال رضوان الاتحاد السوفياتي وبعض بلدان المعسكر الاشتراكي لتجميل وجهه، الا ان البعث وفي عشية توقيع ميثاق الجبهة ١٩٧٣ قام بعدة اغتيالات لاعضاء قياديين نشطين من الحزب الشيوعي وبعدها بدأت عملية تبعيث المجتمع حيث سياسة السوط بيد والحلوى باليد الأخرى بواسطة ادواته القمعية وهي كل الاجهزة القمعية؛ الامن والامن العامة وامن الدولة والاستخبارات والاستخبارات العسكرية والاجهزة الحزبية وفي كل نواحي الحياة في كل المدن والاقضية، حيث مارست الاجهزة الامنية ابشع الجرائم وبدأت بالاعتقالات والاغتيالات والتصفيات الجسدية والمراقبة والسجون والاعدامات والتغيب.

ومن خلال حدسه ورصده ومراقبته للوضع، قد علم واستشعر بان رجل الامن الفاشل اجتماعيا والمملوء بالامراض والعقد النفسية يرابض في بداية الزقاق لتجميع المعلومات وان سيارة الامن (الفولكس واكن السمائية اللون – الركة) تتابعه وترصده وتقف في بداية الشارع، فهو الذي تمرس أيام العسكرية وخبر سلوك وتصرف الاجهزة الامنية والتنسيق بينها وبين الاجهزة الحزبية وتحركاتها الامرالذي استوجب تغير طريقه عدة مرات عندما يقصد مكانا ما اوعند رجوعه لا يتبع نفس خط السير بل بتغيره ويتخذ زقاقاً ضيقاً بحيث لا تستطيع السيارة ان تمر منه أو إذا تطلب الموقف عدم رجوعه إلى البيت بل التوجه إلى محافظة بابل وبقائه عدة أيام هناك، وكان الأهل يساعدوه في اخذ الحيطة والحذر من قبل رجالات الامن، وخصوصا من والدته

فهي التي اختارت له كلمة السر واشارة إذا كانت هنالك احتمالية خطر يداهمهم في البيت؛ يصل اليه الخبر بان عمك أبو محمد يزورنا فمطلوب ان تشتري الرز والدهن، (ابو محمد هو ميشيل عفلق وقد اسمى ابنه محمد، أي معناه بان الامن ممكن ان يداهمنا اليوم)، وبهذا فعليه عدم الرجوع للبيت واتخاذ احتياطاته من رجال ومفارز الامن، وتتغير الاشارة حسب تغيرالاوضاع والظروف، فكان يمسي المبيت في بيوت اولاد خالاته المتعددة في المدينة وفي الريف ولعدة ايام، ومرات عديدة يهجع من التعب ويتمدد في سيارته بعد ان يركنها في مكان منزوٍ. تسممت علاقته بالبيت نتيجة تأخره في الليل واضطرابهم وقلقهم عليه وهو يشق المسافة من مكان عمله حتى مدينته وامسى مستهدفا من قبل مفارز الامن حتى في الطريق، لا يعرف متى يحين الوقت لمداهمته واعتقاله.

امسى اسير الوضع هذا لا يعلم ماذا يعمل، واصبح الوضع عامة لا يطاق، ما العمل؟، وهل التوجه والصعود إلى كردستان هو الحل؟، لا يعلم، ولم تكن الظروف مهيئة بعد، ولم يكن هنالك توجها معلنا بصدد ذلك حيث لازالت الجبهة الوطنية قائمة شكلياً، لكن فعليا المضايقات والرصد والمراقبة مستمرة وهو يتحسس ويشعر بذلك وفق حسه المكتسب، واخبار الاعتقالات والمداهمات للبيوت بدأت بالتداول بين الرفاق.

اتعبه العمل والتنقل والتهجول والسهر والحذر والتخفي والقلق اعياه والمبيت والاحراجات في بيوت اولاد خالاته، حيث في بعض الأحيان تأخذه غفوة نوم في سيارته بعد ان يصفها في

وسط السيارات الأخرى بحيث لا تثير الانتباه، وتقلقه اخبار اعتقال الجنود في المعسكر التي تدور في رأسه وتفكيره وقلقه في حالة ورود اسمه فيما بعد ضمن قائمة الجنود من خلال اجراء التحقيق مع احدهم حول مدى معرفته وعلاقته بوسام.

وفي عمله كان يترصد له صعلوك من نقابة العمال الحكومية مرتبطاً باجهزة الامن يرفع تقاريره عن المهندسين والعمال وتحركاتهم، وفي مدينته اصبح محروما حتى من اللقاءات العامة مع الشبيبة والطلبة وهو الذي قد اطلق العنان بلا هوادة لنشاطه الحزبي كما كان أيام الدراسة الجامعية وتعويضا لتجميده العمل الحزبي اثناء خدمته العسكرية وهذا جهاز الامن يمد يديه في كل مكان والقادم اخطر، وحياة عدم الاستقرار حيث مبيته كل يوم في مكان وبتردده على بيوت أبناء الخالات في اطراف الحلة وخارجها يضع نفسه والاخرين في حرج، وقد جرجروا والده هو الأخر ويعتقد انه قدم ورقة للامن تشبه البراءة ليدفع بها شرهم والخلاص من اسئلتهم وتحرياتهم، والحزب الذي احبه والذي يعتبره ابوه الأخر واهله واصدقائه ورفاقه وخلقه واخلاقه وتربيته وفخره ولا يستطيع فراقه في مدينته ولا سيما وان الرفاق قد رسموا لهم برامجا في تطوير العمل اللاحق بين اوساط الشبيبة والطلبة والعمال والكسبة.

وجنان فتاة الاحلام والامال التي غلب عليها حب الذات بعد ان اغرم وهام بحبها لم تعد تهتم بحاله ووضعه حيث لاحظ ذلك من خلال زيارته للكلية التي تدرس بها لزيارة بعض الاصدقاء والزملاء وانتبه بانها وبعد السنة الثانية في الجامعة

وبتأثير ونقر وشحن من أبيها عَبأها واحادها لكي تنظر وتختار إلى من هو بمركز جيد من الجاه والمال والاملاك وكان هذا حلم لبعض من فتيات الجامعة في فترة السبعينيات (حلو وموظف وعنده بيت وسيارة) وابتعدت عن الزملاء في اتحاد الطلبة العام وانصبت اهتماماتها على الملبس والتفصيل والمودة، وعلى العكس للبعض الأخر من الطلبة والطالبات يجمعهم ويلفهم حب حقيقي وحلم حيث حينما ينهي الشباب المتحابين دراستهم الجامعية يشقون طريقهم بانفسهم ويبنون عشهم وحياتهم سوية ولم يكن الوضع المادي غاية في نفوسهم وتفكيرهم ومنظورهم وحتى في بعض الحالات يحصل حيود عن العرف الاجتماعي مثلا؛ القومية، الديانة، الطائفة والملة لم تقف عائقا في طريق الخطوبة والزواج بل المهم التفاهم والاتفاق على ذلك من قبل الطرفين نظرا لانتعاش العلاقات الاجتماعية ونهوض الوعي الاجتماعي وانتعاش وانفتاح في الحياة الثقافية والفنية نتيجة تحسن الوضع الاقتصادي من جراء الارتفاع الحاصل في ايرادات النفط بعد تأميمه في ١٩٧١ والنهوض في القطاع الصناعي والزراعي إلى مستويات جيدة من مصانع ومعامل ومزارع وانبثاق الجبهة الوطنية ما بين حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي العراقي مما ترك اثره الايجابي في المجتمع وتحرره من بعض الكوابح القديمة، وهذا ما لوحظ في الاوساط الطلابية والشبابية وذوي الميول اليسارية والمتفتحة في الكليات والجامعات والمنتديات والنقابات والجمعيات.

من القصائد التي جمعها في دفتره محتفظا به منذ أيام دراسته في المدرسة الثانوية؛

صغيرة وما تعرف اتحب
ولا دغدغ صدرها الشوك
حريمه بشط هواها الروح
دوم معاتت وي المـوج
صغيرة وحسرتي اجبيره
يا صاحب ما اظنها تفل
ولا دمع يهمل
اعاتبها وتراضيني
وترد تجفل
ولا سـاية اطـرت مني
ولا جلمة كلت
عنها ولا عني
واهيم
واكولن ما ارجع بعد
تجي بطيفي تفززني
والله ياستادي وحق علي الهادي
لاحرم عليك منها طبة النـادي
وشحـدها ولـو تكـلك طـب
صغيرة وما تعرف اتحب

قالـت لـه امـه ذات مـرة متظـاهرة بانهـا متعاطفـة معـه وبجانبـه وذلك للتخفيف من ردة فعله، واحس بانها مجاملة لا فائدة منها

لقلبه المكلوم، ولكن قلبه يعلمه بان شيئا ما قد حيكت خيوطه بحجة (غربوا النكاح) للابتعاد عنها، حيث ان عمتها تميل إلى الرأي في تحسين النسل الا وهو تفضيل الزواج بعيدا عن حلقة الأقرباء.

وقالت له امه حينها:

- قطة سوداء تذهب تأتيك قطة بيضاء أخرى.

لكن هذا القول لا يشفي غليله ويضمد جراحه وينسيه عذابه، فهي أول فتاة فتح عينه بوجهها الصبوح متبهرا حين قابلها أول مرة بثوبها الوردي، أول لقاء يقابل فتاة بهذا الجمال وهو الفتى القادم من الريف في مرحلته الدراسية المتوسطة، وثاني لقاء جمعهم مع الأهل بزيارة اولاد مسلم في المسيب وركوبها (المراجيح) العالية، حينها خفق قلبه خوفا عليها، ما اجملها في وجنتيها فرحة باسمة، وما اجملها في ارجوحتها وبثوبها المتطاير،... وحدها احسنت اللعبة.

من المقابلة تلك والنظرة الأولى تعلق القلب بها وتمنى ان تكون له وان يكون لها، احبها، هو أول حب روحي عذري مقدس له، منذ تلك اللحظة تاه ولهان بها حيران يفكر من أي كوكب قد نزلت، يفكر في لقياها فكيف الوصول إلى حماها وليس له من الأمر حيلة، عذر أو وسيلة، وامسى في ليله يناجيها، فكر اكثر من مرة لايجاد حجة للقاء بها.

وذات يوم حدث بالصدفة ان يتوقف باص نقل الركاب (المرسيدس) بين الحلة – بغداد عند المقهى المقابل لخان المحمودية والملاصقة للصيدلية التي يعمل بها وسام ليتزود

الركاب بالماء وليتسنى صعود أو نزول مفتش التذاكر للباص للقيام بواجبه، في هذه الأثناء لمح جنان جالسة في وسط الباص عند النافذة ذاهبة إلى بغداد بعد ان امضت العطلة بزيارة اختها الكبيرة، فبحركة لا ارادية شاط كالفارس الشداد، اقفل باب الصيدلية، ادار محرك السيارة المركونة بعد ان لف رأسه باليشماغ مغامرا لغرض التمويه عن شرطة المرور لكونه لا يحمل اجازة السوق وهب مسرعا لكي يلحق بالباص وملتصقا به على طول الطريق، فما ان وصل الباص كراج العلاوي ببغداد، اركن السيارة واسرع إلى الباص ينتظر نزول الركاب فبعد ان نزلت رأها وتأكد بانها هي جنان الجنان بعينها القى التحية والسلام وهمَّ بتناول حقيبتها لتوصيلها إلى محطة الباص الأخرى، ودعها واقفل راجعا إلى مدينته، ارجع السيارة في مكانها كما اركنها صاحب الصيدلية، ويسائل نفسه:

- أية مغامرة هذه يا صاحبي!.

- ولِمَ كل هذه المخاطرة والجنون.

خرافي وسام في حبه الجنون لجنان، اكتسب الجرأة هذه المرة وبدأ يفكر في ايجاد الحجة والعذر والمناسبة للوصول إلى بيتهم لرؤياها فقط، ففكر في الحصول على هدية (صوغة) كأنها من الريف قد حضرت لجلبها لهم، وبعد مفاتحة مريم بنت جيرانهم لبيت جده الكبير، والتي يعتبرها مثل الاخت الكبيرة في محلتهم ويسود علاقتهم الود الاخوي وتربط الجيران علاقات اجتماعية طيبة بسيطة، مريم طويلة القامة كلبؤة بعينين عسليتين وكانت الاخت الوحيدة للعائلة الجميلة الأسماء تيمنا باسماء

الأئمة والانبياء بدأً من الاب، كاظم، والابناء؛ موسى، مريم، محمد، عيسى، يونس والخضر، طيبون كابيهم وامهم، يعملون عند (الملاج) مالك البستان أو من يضمنه سنويا مقابل مبلغ يتفقون عليه، وتعيش العائلة في البيت الذي هو عبارة عن غرفة واحده ومكان للطبخ عند سياج البستان، يعملون، يحرسون، يزرعون، يفلحون، يرعون ويبيعون البيض والحليب بانواعه ومنتجاته المصنعة في بيتهم والذي تقوم به مريم وامهم، وحيث كل صباح تمدهم بالحليب الطازج مقابل بعض الفلسان.

اما الابناء فهم أبناء الجيران يلعبون ويلهون ويقرأون يطالعون واجباتهم المدرسية سوية عند سكة القطار وامام بيوتهم، موسى الاكبر، طيبا هادئا، كان يتفنن بعمل لعبة (اللوريات) هيكلها من (السيم) الاسلاك الحديدية وعلبة اصباغ الاحذية وبكرات الخياطة، التحق مبكرا بالجيش أيام الجمهورية، محمد من عمره وبنفس الصف المدرسي منذ أيام المدرسة المتوسطة والثانوية حتى افتراقهم إلى كلياتهم المختلفة.

عندما تخبز أخته مريم أو امهم قبل الغروب، يأتي محمد برغيف الشعير فيه الزبدة والبصل وتمر(الجسب) فيتقاسماه سوية يغنيه عن تناوله العشاء حتى الصباح. عندما كان محمد ينهي زيارته الاسبوعية للبيت يعود إلى القسم الداخلي في كلية الزراعة محملا بوزنة أو وزنتين من التمر(الجسب) الذي جنيه من بستانهم لتكون فاكهة حلوة المذاق يتقاسمها الطلبة في المساء أو في رمضان.

وذات صباح اخبرته مريم بانها قد اعدت له (الصوغة) وهو اللبن الناشف ووضعته له في قماشه الأبيض المخصص للحفظ، أخذه (بزَّنبيل) أنيق محاك بيدها، في الصباح التالي طار به وأتجه صوب بغداد كالفاتح المنتصر ويداه مملوءتان (بصوغته)، اليوم اليوم وليس غداً فالارض لا تلمه حتى وصوله لبيت الحبيبة، فقط، كي يراها، يكحل عينيه بمحياها، يتأملها خجولا، يدعونه لتناول الغداء سوية معهم، يتحرج من الاقتراب أو الأكل عند طاولة الطعام و(اتكيت) اهل المدينة، يخيفه ترتيب صحونها، ملاعقها، شوكاتها، سكاكينها ويخيفه ان تصدر منه حركة يرصدها الجالسون من ضيفهم الريفي.

يتحجج بما اوتي به من الاعذار للتملص من هذا الجلوس، لا يريد شيئا اخر، يريد ان يراها، وها هي الان قد اطلت متأبطة بكتابها تنزل برقة وخفة من السلم بثوبها الوردي، خفق قلبه لهذا الجمال والشعر الحنائي، تسمر بمكانه وتسمرت عيناه بالنظر إلى حركة نزولها، اقتربت للجالسين ونظرت اليه باستغراب للوهلة الأولى، اعتقد بانها الان قد فهمت مغزى مجيئه، جلس الجميع حول المائدة، ترَّخصَ منهم وعليه ان يرجع قبل الغروب ودعهم وولى وجهه صوب اقرب مطعم رخيص سوف يصادفه في طريقه والرجوع إلى مدينته سعيدا فخورا من جانب ومكسور الخاطر من جانب اخر. يخاف من أبيها بكيفية الدخول معه بنقاش بما يرضيه.

كان ابوها مديراً مربياً تربوياً مسالماً وهو الابن الأكبر لابيه الشيخ وعالم الدين، يحب مبادئ العدل الاجتماعي ويحب

القراءة والثقافة والفن والسياسة ويقضي طيلة وقته في الاعتناء بحديقته الكبيرة حاوية للاشجار والشتلات والورود بانواعها، يودع مساءَهُ بصحن سلطة ونصف (ربعيّة) عرق على طاولة صغيرة ينتصب عليها راديوه الصغير عند الباب الجانبي لمشتمله يستمع لاخبار العالم.

ذات مرة احتفظ وسام بقصقوصة من قماش قميصها خاطته لها أخته الكبيرة، دحسها في محفظة الجيب قريبة للقلب رافقته في رحلته وترحاله وغربته وشتاته ونضاله ولسنين عديدة. وبعد سنين ضاع الحلم وكسرت بخاطره، أتعبته وألمته وحرمته من ذلك الحلم الجميل البسيط ولذة العشق والحب الحقيقي، ذلك الحلم الذي بناه منذ أول مرة التقاها واول وهلة ونظرة حينما تلاقت العيون مبهرة ببعضهم البعض، ولاحقا تركت آهات وحسرات لا قيمة لها الا لتزيد من القساوة الحمقاء، تركت له السهاد والهيام لروحه وتركت في نفسه مرارة وردود فعل تائهة بلهاء،.. (ياحريمه ياحريمه)..، انه لم ولن يعرف في دنياه ولم يمتلئ قلبه ولم يفتحه لاحد مثل حبه لجنان أو مثل هذا الحب... حباً ابدياً، ورغم كل ما جرى فهي قد سكنت قلبه وروحه واستقرت فيهما.

وقف يلمظ دمعه.

وهنا يستذكر قصيدة يا حريمه للشاعر ناظم السماوي كي يريح نفسه وليهدأ ولو قليلا، والتي فيها يقول:

ياحريمه ياحريمه

ياحريمه انباكت الجلمات من فوك الشفايف

ياحريمه سنينك العشرين مامرها العشك والعشك خايف
ياحريمة لا على بختك ما اني سالوفه صرت بين الطوايف
ياحريمه ياحريمه
يازلف يتغاوه وياالليل باطراف الكصيبه
هاك روحي الما غفت والطيف ما مره حبيبه
وهاك جرحي الما تعطب وانت عطابه ولهيبه
هاك عمري الضاك حنظل وانت برحي
ياحريمه الشوك مر بوحشه تايه
ياحريمه ياحريمه
...
وانه سجة درب سواني زماني
ياحريمه ياحريمه
...

لقد عاش وتربى في كنف جده عالم الدين الذي كان الاقرب إلى قلبه حتى من أبيه وامه، يشعر بالامان والهدوء حينما يكون معه وادواته واقلامه واحباره واوراقه، كان جده يحبه حبا جما الأنه حفيده المنتظر، يدلله ويشتري له الالعاب حينما يسافر إلى بغداد لزيارة معارفه واصدقائه، يضعها في جيب (الصاية) وحينما يقترب منه يفاجئه بلعبة يحبها ويضمه إلى صدره، علمه أول ما علمه الكتابة والقراءة وحفظه جزء عمة وقراءة القران وقص عليه بعضا من قصص الانبياء في وقت مبكر وادخله المدرسة بعمر الخمس سنوات علمه الحق والصدق والامانة وحب واحترام الناس.

ويواصل:

- ذات مرة اتيت لجدي بدراهم معدودات من مكان الوضوء في البيت العتيق وسلمتها له وحينها لم اكن اعرف قيمتها بعد، اخذ جدي الدراهم واقعدني بجنبه، وشرع يحدثني باسئلة واجوبة وتوضيح وتنبيه بلطف.

واوضح جدي:

- اردت ان أتوضأ فعلقت السترة بالمسمار والظاهر قد خرت الدراهم من الجيب المفتوق وهذه هي ملكيتي الحلال وانت أول من دخل مكان الوضوء فجلبتها لي أمانة ، خذ هذا نصيبك من دراهمي هدية لامانتك.

ومسك جدي شحمة اذني وقال:

- هذه للتذكير... وحسب فهمي انك اتيت لي صادقاً اميناً فاياك أياك يا جدي ان تأخذ مالا غير مالك الحلال وان تلتزم جانب الصدق والحق دائما، ولا تخف، اما المال الحرام فلا تلمسه ابداً في حياتك فهو حرام حرام، فاحفظ وصيتي هذه يا وسام (ترجية بالاذن).

أومأ وسام برأسه موافقا:

- نعم يا جدي.

فجلسا سوية يقص احاديثه الشيقة كانه فنانٌ مخرجٌ ووسام ينصت اليه بحب وبشغف وبعد ان اخرج له قطعة من حلوى (الحلقوم).

كانت هذه أول الدروس في الحلال والحرام فاحتفظ بها وسام أمانة وكلما مر بموقف كهذا تلمس شحمة اذنه.

وبقى وسام على العهد نظيف اليد والضمير عزيز النفس شهما منذ صغره رغم كل المغريات في الحياة وبكل مكان حل به.

اخذ وسام يحاور ويخاطب نفسه:

- لقد رأيت بام عيني كيف يمارس الظلم والجور والباطل من قبل الاقطاعيين والسراكيل بحق الفلاحين والمزارعين الفقراء.

- ورأيت كيفية تحاملَ الاقطاعيون على جدي في المنطقة واخذوا يكيدون له كيدا، حُورب وحِيكت ضده الدسائس ووصل الأمر بهم إلى ايداعه بعمامته السوداء في مخفر الشرطة في الحلة عند السوق المسقف الكبير بأمر من مأمور المركز الذي تربطه بعلاقة القربى مع الشيخ وبوشايته الظالمة؛ بحجة ان السيد يؤلب الفلاحين في القرية ضد الشيوخ، كان ذلك قبيل ثورة ١٤ تموز١٩٥٨ بايام.

خرج من التوقيف في الخفارة متألما مقهورا مكسور الخاطر والوجدان، حيث ان للعمامة لها مكانتها واحترامها آنذاك فكيف له وهو عالم الدين ان يحتجز في مخفر الشرطة، بعدها بشهور اعتكف في بيتنا الكبير ينهض مبكرا لاعداد دلال القهوة ويقضي بعد صلاة الفجر والعشاء وقتا لا بأس به مع اصحابه واصدقائه المقربين له، وامسى قليلا ما يذهب للجامع الكبير وبشكل متقطع لم ادرك ماهية ردود الفعل هذه حينها، والانكى من كل هذا، وبعد فترة من الزمن وجد والدي نسخته من القرآن مبتلة مرمية على قنطرة ساقية مقابل نادي الموظفين في المدينة، لقد فعلوا

فعلتهم الشيطانية الدنيئة هذه وذلك لتشويه سمعته بين اوساط المدينة والصقوا به تهمة بانه من انصار السلام شيوعيا.

الذي زادَ الطين بلة وبفترة ١٩٦٣ هو؛ قرار جده وبعض الاصدقاء الذهاب إلى المرجعية الدينية في النجف مغتاضا متألماً للفتوى التي استغلتها زمر الحرس القومي والقوى الرجعية والاقطاع التي اهتزت مصالحها وكل القوى الداخلية والخارجية المتأمرة على الثورة، فتوى رفضها جده ولم يقبل بها الخيرون البالغون في العلم والحكمة والتي منحت الفاشست التعكز عليها في تصفية الآلاف من خيرة الابناء والبنات وهتك الاعراض وحملات الاعتقال والتعذيب والتغييب، وقد خطتْ وكتبتْ على جدران البيوت في بعض المدن، فتوى أسفين سخرتْ ودقتْ بعمق في قلب المجتمع العراقي ولحد الان يعاني من جرحها الخضب، وبهذا الصدد يقول وسام:

- كيف ضايقوا جدي لمواقفه هذه، وحاكوا الدسائس ضده، ومن جراء ذلك اضطر ان يعتزل عن الجامع ويركن إلى ديوانيته يتلوى الماً وحرقة من خذلان المتنفذين في المدينة له.. اهتز بدن جدي لافعالهم الخسيسة هذه وتمرض مرضا شديدا اقعده البيت يحيطه اصحابه وعيونهم تتأمله وتدعوا له بالشفاء والعافية، لا ذنب له الا لاختياره طريق الحق والعدل والمساواة ولم يخف لومة لائم.. وكان يعلم عن جده علي بن أبي طالب امير المؤمنين (ع) حينما قال:

- لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه.

يتذكر وسام الاحداث والوقائع جيدا:

- كنت بالقرب منه في أيام مرضه وعزلته اقضي طيلة النهار معه، استمتع بحديثه الطيب وهدوئه الجميل يضفي على الجلسة راحة وبهجة.

- توفى جدي الماً وبعد وفاة السيد محسن الحكيم بايام وخرج الناس على بكرة ابيهم حزنا لتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير في كربلاء، وبنى والدي له مزارا متواضعا في مقبرة الوادي.

اقيم مأتم العزاء لثلاثة أيام لم يفارقه اصدقاؤه ومحبيه وظل وسام يحسن التجويد وقراءة القران بفاتحته.

ويتذكر ويقول:

- وكم ذرفت الدموع برحيله!.

احتفظ وسام بمقتنيات جده؛ باقلامه وقصباته ومحابره النحاسية واوراقه وكتبه ودواوينه لفترة طويلة حتى هدمت بعض البيوت ومنها بيتهم العتيق بعد سنين وذلك لتوسيع مد خطوط سكك الحديد الجديدة.

ويؤكد وسام:

- لقد اخذت تتضح امامي كل مجريات الأمور من الظلم والجور والاستبداد والفساد والنفاق والخداع والنذالة والسفالة، والسلوكيات والتصرف والمواقف النفعية لبعض الناس، في الريف والمدينة والجامع، أستوعبتها وفق مستوى تفكيري وذهنيتي وتحليلي البسيط لها مبكراً رغم صغر سني.

- وما بين تربية جدي وعلاقات الريف الجميلة والدراسة في مدارس المدينة لاحقا والوسط المتنور من المعلمين والاساتذة

وتقربي لخالي سيد جابر وللاصدقاء من الحزب الشيوعي والذين عن حق نهلت منهم المعارف ومبادئ العدل الاجتماعي والسياسة ومن اخلاقهم وسلوكهم وتواضعهم ومواقفهم وتضحياتهم وثقافتهم وشهامتهم ونكران الذات في خدمة وحب الناس وحب الوطن، ومن معاناة الواقع المرير، وبكل هذا روت النفس وتنور التفكير، وصيغت الشخصية، فكيف يكون الحبُ في قلبي للناس، وحبُ من احب!.

وبعد ان اغلقت كل السبل والابواب امامه، ابلغ في نهاية المطاف وللمرة الثانية وبانه قد رشح لاكمال الدراسة في الاتحاد السوفياتي هذه المرة وما ما يترتب عليه؛ ان يحضر نفسه ويستعد لذلك وان يستخرج جواز السفر وبعض الأوراق والشهادات ويكون مستعدا لأسوأ الظروف وسلوك كافة الطرق إذا استعصي الأمر وتكون المهمة بسرية تامة لحين التبليغ بشكل نهائي، وكما حصل في المرة الأولى بعد انهاء الدراسة الاعدادية حين تم ابلاغه بحصوله على زمالة دراسية إلى بولونيا وبعد فترة تم ابلاغه بتغير القرار إلى اشعار اخر وذلك حسبما ترتأيه الضرورات الحزبية.

كان ذلك بنهاية الصيف لا يعرف مالعمل، انه لامر صعب الحصول على الجواز ولاسيما انه ملزم باداء الخدمة في دوائر الدولة اولا وثانيا ان (وشيعته مصبوغة) مستقاة من الرفض الأول للبعثة الدراسية لوزارة الري، اسودت اللوحة أمام تائه حيران ما بين فرحته بانهاء خدمة العلم وحصوله على العمل وسراب الحب والامل، افاق من تفكيره العميق بعض الشيئ يخاطب نفسه:

- ولكن يبقى عليك يا وسام ان تغامر وتخاطر وللمرة الاخيرة (اتركها لله، ذبها على الساطورة، جرب حظك، والمبلل لا يخاف من المطر.. لوهره، لو وره) لقد اجتزت كل العوائق والمنغصات والمخاطر طيلة هذه السنين، والان ليكن ما يكن.

اضحى في احد شوارع العاصمة غريباً يائساً مكسور الخاطر يخطو الخطى يناقش ويتكلم مع نفسه:

- والله لا اعرف إلى أين اتجه.

وهو بهذه الحالة من الاضطراب والقلق يعبر الشارع التقى باحد أبناء مدينته الأولى صديق المدرسة للمرحلة المتوسطة والمتعلق بحبه لكرة القدم منذ صباه حيث كرس كل وقته لذلك، الامر الذي الهاه وابعده عن استمراريته في الدراسة وافترقا لسنين، الصديق المحبوب البسيط الطيب كما كان ولم يتغير، لقد انخرط شمخي في سلك الشرطة بعد المتوسطة واصبح احد لاعبيها المميزين في فريقها لكرة القدم مع عمله في الجوازات. بهذه الزحمة، أرتكنا من حرارة الصيف في بار بسيط يطل على شارع السعدون، تجاذبا اطراف الحديث لفترة الافتراق وظروف المعيشة وبعض التفاصيل من المعاناة واخبار الاصدقاء والزملاء، عرض شمخي عليه خدماته ومساعدته.

ابلغه وسام:

- (لقد اتى بك الله من حيث لا اعلم، أنها لفتة ربانية) وحقا احتاج إلى المساعدة في الحصول على جواز سفر لكي أسافر للخارج لأجل العلاج.

اجابه صديقه:

- سوف يتحقق ذلك يا وسام اوعدك!.

اجابه وسام وبدون تردد:

- المثل العراقي يقول؛ لا تطلب الحاجات الا من اهلها.

حدس وسام بذلك بان صديقه قد فهم الموضوع كله بدون أية مقدمات ولانه يعرف مواقف وسام من أيام المدرسة وكانوا حلقة طيبة، ومن هذا الواقع المرير ويعلم حجم المعاناة التي عاناها هذا الجيل جيل المظاهرات والثورة والانقلابات واخرها فترة حكم البعث، وقد عانى الاثنان وكبقية اقرانهم بشكل متقارب بعضا من هذه المعاناة...

في ختام الجلسة طلب شمخي؛ بتزويده بعدد من الصور ومبلغا للرسوم المطلوبة وكتابا من غرفة تجارة يحمل اختصاص أخر غير اختصاصه الحالي ان يغير عنوان مهنته بحيث لا يمنع من السفر ولكونه خريج جديد ويجب عليه ان يخدم في دوائر الدولة بقدر عدد سني الدراسة.

وختم شمخي مؤكدا قوله للتخفيف عن قلق صديقه وسام:

- وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق ذلك واسخر علاقاتي مع المسؤولين ومكانتي في الفريق، وبعد ثلاثة أيام تكون النتيجة ان شاء الله خيرا.

وصل وسام وقت الغروب إلى غرفة تجارة بابل وكان احد الأقرباء بانتظاره تم تزويده بالكتاب لعضويته فيها كمقاول، بسرعة البرق توجه وسام ليلا إلى صديقه شمخي لتسليمه ما طلب، خرج وسام المدينة مودعا صديقه شمخي وواثقا منه بانه كما يصيب الهدف سوف ينجز المهمة هذه وذلك من خلال كلامه ومنطقه

وتوجيهاته وطلبه للرسالة من غرفة التجارة تؤكد المامه ومعرفته المسبقة بقضايا من هذا القبيل.

ثلاثة أيام بلياليها قلق وارق، أنها ليست ثلاثة أيام بل أنها ثلاثة سنين بهذه الحالة، وما ان حل اليوم الثالث فاذا بقلبه يعلمه آن الاوان ان يمر ببيت شمخي ليلا ابتعادا عن عيون رجال الامن والمراقبة و"السين والجيم" الزائدة في هذا الوقت الحرج، وتسللاً ساقته قدماه إلى زقاق المحلة، بهدوء وقلق طرق باب دار صديقه بخفة خوفا من ان يثير انتباه الجيران النيام فوق السطوح لهذا الزائر الليلي ودقات قلبه تخفق اضطرابا وقلقا، وانتظارا لدقائق معدودات لحين نزول صديقه من السطح، سماع صوت حركة، وما ان انزلق الباب الا وبنفحة رائحة البطيخ من داخل فناء الدار دخلت خياشيمه وبعدها ليفاجئه شمخي بوعده الصادق وبان رحمة ومعجزة ربانية قد نزلت من السماء، انه جواز السفر "الشباك الاخضر" بعينه اهو حقيقة أم هو حلم أو خيال، حضنه بصدره وقبله وشكره، تلمس الجواز وتلك هي صورته، ذهب القلق الان فَرِحا سعيدا بعض الشيئ لهذا الموقف الرجولي الاصيل النبيل لصديقه وانه قد فتح له فتحا مُبينا.

رجع طائرا لمدينته واصابع يده لا تفارق لمس الجواز في جيبه، ومنذ الصباح المبكر سافر للعاصمة لا تلمه الأرض لتأمين ولشراء تذكرة السفر، مرتديا الزي الجامعي وكتاب الرياضيات للتمويه لكي يبعد الأنظار عنه عند نقاط التفتيش. وقت الغروب عاد لبيته، عند الباب وجد امه تغسل اكواما من الثياب، اخبرها بانه على سفر بعد يومين إلى الخارج لتكملة دراسته، نظرت اليه

مذهولة ومحرجة لا تعرف ماذا تقول له وهي قلب الام التي تتحسس مدى الخطر الداهم إذ دنست مفرزة الامن البيت والقت القبض عليه وترمي به كما رمت بالاخرين في زنازين الامن العامة السيئة الصيت، ولا تنفع واسطة ولا هم يحزنون ويغيب كما غيبوا الاخرين.

اعد حقيبته (الانتيكة) الحمراء التي رافقته أيام خدمته العسكرية في معسكر الرشيد، استلقى بثيابه لبعض الوقت ولكنه غط في نومه من جراء التعب والسفر المتكرر بين المدن وشد الاعصاب ما بين القلق والسهر والحيطة والحذر وتشتت التفكير وعدم الراحة النفسية وسفر مجبر عليه للابتعاد عن اجهزة الامن والتي باتت وعلى وشك ان تقوم بفعلتها الغادرة كما فعلتها مع رفاق اخرين.

عندما حان موعد سفره لم ينم تلك الليلة، عند الغروب ودع رفاقه بسرية تامة وتمنى الجميع له بالنجاح في مهمته، تلاطمت الافكار وازداد تفكيرا واضطرابا وقلقا يكاد ان ينفجر رأسه، ايترك امه التي انتظرته طويلا لتسعد به بعد تخرجه وليساعد اخوانه واخواته وهو الاخ الأكبر لهم بمكانة الاب، ايودع رفاقه الاوفياء الذين امسوا يرسمون البرامج لنشاطهم الحزبي وحلمهم، يطارده القلق والتفكير حول مصير بعض من أصدقائه الجنود الذين خدموا معه سوية في العسكرية واتهموا بعلاقاتهم مع الحزب الشيوعي وما الذي حل بهم الان، وتجني ضابط التوجيه السياسي وسلوكه وتصرفه في المعسكر، ايودع حبيبة القلب والاحلام، أم سوف يؤنبها الضمير وتأتيه لاخر مرة ولو بكذبة مودعة كباقي

الحبيبات اللاتي انتظرن وينتظرن احبائهن سنين وايام لبناء احلامهم الانسانية، وتاتي لتقول له أيضا أنت لي ذلك الحلم والفخر، سوف انتظرك لتخرج من ازمتك وعندما يتحسن الظرف القاك.

الان.. والمهم كيف له هذا النفاذ من عيون واجهزة السلطة الامنية وشباكها، يسائل نفسه بنفسه ويخاطبها:

- حقا لا اجابة لذلك، وعلى ما يبدو بان (وشيعتك) لم يكتمل صبغها ولم تصل الأخبار للجهات الامنية لكي تمنعك من السفر اذا كنت مطلوبا لها وإذ كان اسمك قد دخل القائمة السوداء أيضا لا يمنحونك جواز السفر والذي هو بين يديك وقد تم تغير المهنة، وحاول ان يطمئن نفسه في اتخاذ الخطوة الأخرى والاكثر جرأته الا وهي النفاذ بجلده والسفر، ها هي تذكرة السفر والتأشيرة قد حصلت عليها، كل شيء حسب الاصول، تحزم بالشجاعة واحسم الامر، وليكن ما يكن.

اخذ يردد ابياتا من قصيدة للامام الشافعي:

دَع الأيام تفعل ما تشاءُ وطب نفسا إذا حكم القضاءُ
ولا تجزعْ لنازلة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجلاً على الاهوالِ جلداً وشيمتك السماحةُ والوفاءُ
وان كثرت عيوبك في البرايا وسرك ان يكون لها غطاءُ
تَستر بالسخاء فكل عيب يغطيه كما قيل السخاءُ
ولا حزن يدوم ولا شرور ولا بؤسٌ عليك ولا رخاء
وارض الله واسعةٌ ولكن إذا نزل القضا ضاق القضاء
دع الأيام تغدر في كل حين فما يغني عن الموت الدواء

...

واخذ يدمدم مع نفسه:

- الموت يأتي مِرة واحدة.

كلها عذابات، ابتداءا من أيام المدرسة الثانوية والنشاط في اتحاد الطلبة العام وفي الانتخابات الطلابية، وقضية فصله من المدرسة نتيجة المشاجرة مع استاذ اللغة العربية حسن خرنوبة والمسؤول البعثي في الثانوية المسلح دائما بمسدسه ودائم الاستهزاء بالطلبة ولا يستطيع احد يجرأ ان يوقفه عند حده حيث احرج واهان وسام وصفعه أمام زملائه بدون وجه حق على موضوع الانشاء الذي كتبه والقاه بشكل جيد واسترساله حول جيفارا الثائر الموقف الذي اجبره برد الاهانة حيث قام بدفع الاستاذ بقوة إلى السبورة وبعدها ترك الصف وخرج وعلم فيما بعد بفصله من المدرسة لحين استدعاء ولي امره بمقابلة المدير. بعد اسبوع انتهت وحلت القضية، حيث صادفت فترة غياب أبيه منشغلا بعمله وغياب المدير لمرضه وبتدخل مباشر من معاون المدرسة ومدرس اللغة الانكليزية وهم من الاساتذة المحسوبين على التقدميين واليساريين وبرجاء الفراش صبري للمدير.

ذهبت الأيام والتحق بالجامعة وبعد تخرجه بفترة التقى استاذ اللغة العربية عند نقطة السيطرة للامن عند منطقة الدورة، اراد وسام ان يضرب عصفورين بحجر، أي بحجة ان يكلم الاستاذ وبنفس الوقت يغطي على نفسه لكي ينفذ بهذه الساعة من نقطة التفتيش، تملك وسام الشجاعة والجسارة فركن سيارته وترجل إلى استاذ حسن تحدث معه ليدعوه لتوصيله إلى قريته، وافق

الاستاذ وبركوبه السيارة نفذ وسام من السيطرة بدون تفتيش لان رجال الامن يعرفون الاستاذ حق المعرفة بانه من المسؤولين الحزبيين البعثيين.

لقد تعرض لكل هذه المضايقات والمعاناة وامتحن، وعاش بقلق منذ مدرسته الثانوية والايام الاخيرة في الجامعة والعسكرية والعمل في بابل. لقد عايش فترة الجمهورية وعايش انقلاب ١٩٦٣ الاسود المشؤوم الذي قام به الحرس القومي والذين جاؤوا بقطار امريكي واستمع إلى خطابات جمال عبد الناصر الملهبة لقلوب الشباب العربي وشعاراته الجميلة في استنهاض الجماهير وتأمره بنفس الوقت ضد الثورة في العراق، ويا ريت عيونه لم تشهد ذلك المساء الذي اعدم فيه عبد الكريم قاسم وزملائه الابطال وخيرة رجالات ثورة ١٤ تموز المجيدة، تألم شديدا لاعدام الزعيم وصحبه الاماجد في يوم شباط الاسود، يوم قارس البرودة درجة الحرارة واطئة جدا وذلك لان براميل الماء الموجودة في المقهى المجاور للصيدلية متجمدة والجو اصفر مغبر وانقلبت السماء كأنها يوم العاشر من عاشوراء، حينها كان يعمل صانعا سوية مع الصانع علي الاخرس في صيدلية احد اقربائه حينما جاءه الاخرس ما بين العصر والمغرب حائرا هائماً كانه الطير المحزوز المذبوح يرفرف متألما يذرف الدموع يشير بيده يؤشر على رأسه وكتفه ومعناها (الزعيم) وان حدثا ما قد حصل، اراد ان ينطق في تلك اللحظة من المه وحزنه فحاول فتح التلفاز (الاسود وابيض) الصغير في المقهى؛ ليشاهد الصبية كيف

زخ الانقلابيون عبد الكريم قاسم بوابل من الرصاص برشاشاتهم وهو يهوي من كرسيه مضرجاً بدمه مع رجالات الثورة.

في مدينته الأولى والثانية رأى بام عينه رغم تأثير الروابط الاجتماعية التي حدّت بعض الشيئ من التجاوزات غير الاخلاقية والغريبة عن المجتمع التي مارستها شراذم الحرس القومي والتي في الغالبية منهم شلة من الشباب الفاشلين دراسيا ومغرر بهم لا تخاف الخجل والحياء.

ففي مدينته الأولى رأى بام عينيه كيف التقت هذه المجاميع من الشباب قبل أيام من وقوع الانقلاب، بدافع أو بدونه، حيث تجمع قسم منهم عند بيت (ابو طلال) البيت المجاور لبيت جده القديم؛ أبو طلال مضمد صحي وبنفس الوقت ملاك "ملاج" أو (ضمان بساتين) يلبس طاقيته كطاقية الضباط الانكليز وبنطاله القصير الخاكي وياخذ سلاحه (الكسرية) للصيد في مناطق اللطيفية بسيارته (الجيب كشفة)، اختفى بعد ذلك عن المدينة وغابت اخبارهم، كان ابنه الأكبر طلال طويل القامة شابا وسيما يتأنق يضع زيتاً على جانبي شعره مقلدين المغني الامريكي الفيس بريسلي، وعلى ما يعتقد بانه لم يكمل دراسته الثانوية حسب ما ادخر بذاكرة وسام فيما بعد، بسلوكه بوجهه وهندامه، يشبه إلى حد ما المليشيات الفاشية الايطالية في فترة موسوليني حاكم ايطاليا ما بين ١٩٢٢-١٩٤٣، والشاب الاخر (مطيرجي) يجني الطيور يقضي وقته في السطوح، واخرين عطالين بطالين وحتى بدون مدارس والاغلبية منهم على هذه الشاكلة.

لقد اقاموا المقرات (مقرات الحرس القومي منذ ١٩٦٣) السيئة الصيت في مراكز المدن ومنها في بغداد في قصر النهاية الرهيب (قصر العائلة الملكية) وما جرت فيه من المصائب والاهوال المرعبة ما يعجز عنه الوصف، وفي مراكز المدن وهي مراكز اعتقالات وتعذيب (تعليق المعتقل بالمراوح والضرب بالهروات وقلع الاظافر والعيون) وتصفيات جسدية، ونصبوا خيام التفتيش في اطراف المدن حاملين اسلحتهم الرشاشة (بور سعيد) يجيبون المدينة ويتسللون إلى البيوت، وكانت الاسلحة هذه تتسرب للعراق بكافة الطرق في فترة جمال عبد الناصر وفي فترة اشتداد الخلاف بين جمال وعبد الكريم قاسم حول اقامة الوحدة العربية، ولقد سمع عن اساطير المناضلين الشجعان في المدن والارياف وشاهد بام عينه وسمع باعتقال المناضلين في مدينتة وفي كربلاء حيث رميت ثلاث جثث لمعلمين شيوعيين في جدول البزل في السعدية في مدينة كربلاء، وفي الحلة.. وفي كل (الوية) المحافظات بدون استثناء وجرى تعذيب كل من يشكوا بانتمائه أو قربه للشيوعيين من رجال ونساء في مقرات الحرس القومي.

لقد قص خاله المعلم سيد جابر وخالاته عليه هذه الاحداث حينما كان فتى في المرحلة الدراسية المتوسطة وتعرف على ملاحم المناضلين وصلابتهم ضد جلاديهم حتى استشهادهم من جراء التعذيب، كبطولة سكرتير الحزب الشيوعي الاسطورة سلام عادل ومحمد صالح العبلي وجمال الحيدري وغيرهم من رفاقه المناضلين الشجعان والذين اصبحوا مصدر الهام لكل المناضلين

العراقيين، عرف لاول مرة كلمة السجناء السياسيين حينما كان صغيرا يجلس مع أبيه في المقهى المقابل لسجن الحلة، حيث استأجرها والده وكان يديرها العم طعمة ابن شبادة صديق جده واخ قندة الكبير قبل ان يلتحق بالعمل في هيئة الماء والكهرباء في الحلة، واستنتج وسام فيما بعد بان طعمة قد انخرط في العمل الحزبي والنقابي منذ ان كان في ريف منطقة النيل وحتى قبل احداث الحرس القومي وانقلاب ١٩٦٣ في شباط الاسود.

وسمع بصدى ملحمة هروب السجناء السياسيين من سجن الحلة وحفرهم خندقا من تحت جدرانه خروجا إلى ارضية مرآب السيارات المجاور للسجن وفرارهم ولجوء قسم منهم إلى الاهوار بجنوب العراق ورفعهم السلاح في وجه السلطات المتعاقبة بعد انقلاب ١٩٦٣. لقد اختمرت مجريات الاحداث في ذاكرة وسام لحين مرحلة المدرسة الثانوية والتي علم باخبار هؤلاء المناضلين الاشداء في انتهاج طريق الكفاح المسلح في الاهوار.

وفي مدينته الثانية المسيب حيث بيت جده لامه، قص عليه خاله بعضا من ممارسات فرق الحرس القومي في المدينة، حيث كانت في وسط المدينة روضة للاطفال حولها الحرس القومي إلى مقر لهم، وذات يوم جاء اليه احد معارفه وقد أزرورقت عيناه وادمي وجهه واجزاء من جسمه وقد كسرت نظاراته الطبية ولا يستطيع السير بدونها، تسلل إلى خارج المقر بعد ان نالوا منه على طريقة عصابة الكاوبوي، واخرجه خاله خارج المدينة

واوصله إلى مدينته كربلاء وخلصه من الاوغاد الاوباش عن طريق احد طلبته الفاشلين وكان من ضمن هذه الحلقة الاجرامية.

بعد سنين قص عليه الاستاذ علي الشبيبي حادث اعتقاله وتعرضه لهذا الاعتداء في مقر الحرس القومي ولجوئه إلى خاله وبدوره تم توصيله إلى البيت. ولانتهاك الحرس القومي الحرمات، يقول وسام:

- عاقبة الظالم عذاب أليم.

حيث علم بان هذا الطالب الذي قام بتعذيب الاستاذ الشبيبي في المقر رُقيَّ من رتبة نائب ضابط (موس) إلى رتبة ضابط بعد ١٩٦٨ وهو لم يكمل دراسته الثانوية، اخذ يتبختر بمشيته ولباسه الزيتوني وسلاحه في وسط المدينة وبدناءة علاقاته غير المرغوب بها مع الناس، لقد قضى نحبه في حادثة مروعة في حرب كردستان ولم يكن له قبراً.

لقد احب الناس الزعيم عبد الكريم والذي نادوه بابي الفقراء لبساطته ولاخلاصه ولمواقفه الوطنية لقضايا الوطن والشعب، احبه وسام عندما حصل على صورة الزعيم التي وزعت في المدينة عند اندلاع الثورة حيث لصقها فوق صورة نوري السعيد المتواري عن الأنظار والملصقة خلف باب احدى الغرف في الجانب الغربي للدار القديم دار جده، وشارك مع مدرسته لاستقباله، حينها ارتدى وسام لاول مرة فرحا ملابس الكشافة، اشتراها له والده، ومن يومها احب (اللباس العسكري الفاتح) واحب الزعيم وهو يظهر في الأعياد والمناسبات الوطنية كعيد نوروز؛ عيد يحتفل به الشعب العراقي بعربه واكراده واقلياته، عيد

انتصار كاوة الحداد ضد الحاكم المستبد ضحاك، عيد فيه تشعل النيران على قمم الجبال، عيد الربيع والخير والعطاء في رأس السنة البابلية والاشورية، اوعيد الام ويوم الشجرة ليخرج الزعيم ليغرس شجرته (عبد الكريم كل القلوب تهواك)، كل يوم عيد، حيث كان الزعيم كل يوم يفتتح مدرسة، مصنعا، مستشفا، مشفا، ومجمعا سكنيا وفي حركة دائمة.

لقد كانت فترة الحرس القومي ١٩٦٣ المشؤومة فترة مظلمة وصفحة سوداء ملطخة بالدماء في تاريخ العراق السياسي في ارهابهم وفاشيتهم ودمويتهم ضد أبناء الشعب المناضلين في جميع مدن العراق وزجهم بالسجون الرهيبة والسيئة الصيت مثل سجن أبي غريب والكوت ونقرة السلمان وغيرها، واستبيحت حرمات البيوت مستغلين الفتوى "الشرخ" من المرجعية في هذه الفترة:

الشيوعية كفر والحاد

حيث حرفت مقولة "الدين افيون الشعوب"، والصقت بالحزب الشيوعي العراقي، والحزب الشيوعي ليس بمصدر لهذه المقولة، أنها كلمة حق ارادوا بها باطلا؛ حيث استقطعت المقولة واستغلت وسخرت بشكل يخدم مصالح الحكومات المتعاقبة والاقطاع وبقاياه وبعض من رجالات الدين وكل المعادين لثورة ١٤تموز ١٩٥٨ والجهات التي ضُربت مصالحها في العراق ومنها شركات النفط الأجنبية الاحتكارية والتي لا يروقها مجمل الانجازات الاقتصادية التي جاءت بها ثورة تموز المجيدة.

وبعد سنين وتضحيات ادرك الجميع خبث استغلال هذه المقولة منذ ١٩٦٣ الاسود المشؤوم والتي صبت الزيت على نار المحرقة التي احرقت العراق ولازال سعيرها يحرق الاخضر واليابس، راح ضحيتها اجيال من خيرة بنات وابناء العراق وعوائلهم وضياع مستقبلهم ودمار الوطن اقتصاديا وسياسيا وما تلاها على الصعيد الاجتماعي من التفرقة والاقتتال وشق اللحمة والفساد وضياع القانون والامن والامان، أنها الفتوى "الاسفين" التي دقت في قلب النظام الجمهوري، وفتت المجتمع العراقي الذي نهض للتو ليبني مستقبله.

عند زواج والده الرابع أو الخامس من امرأة جميلة خضراء العينين كربلائية ابنة الشيخ المعمم والتي احبته واحبها كامه، سكنوا حينها مدينة كربلاء ـ حي السعدية، بسعيها وحرصها تم ختانه واعدت الوليمة بهذه المناسبة. في هذا العام التحق وسام في مدرسة المخيم (بالخيمكة) على نهر العلقمي في الصف الرابع ابتدائي، حيث يتذكر جيدا؛ بان معلما معمما (كشيدة خضراء حمراء) في مادة الدين عاقبه بعصى الرمان حتى ازرقت اصابعه في فصل الشتاء أثر مزاح بدأه زميله المشاكس صلاح النداف والجالس سوية معه في مقعدهم (الرحلة)، حول نقاش بكيفية ذبح طير الدجاج في المكان النظيف والتوجه الصحيح باتجاه الكعبة.

لم يكن وسام مخطأ في ذلك بل صلاح هو المسبب لاثارة الضحك في الصف، مرت الأيام واذا بهذا المعلم يتصدر مجلسا في احدى الحسينيات في المدينة وقت عاشوراء، وصوته ملعلعا

في مكبرات الصوت يصل إلى الجهة الأخرى من نهر الفرات، يلقي محاضرة حول نظرية اصل وتطور الانواع (اصل الإنسان من القرد) لدارون وربطها بالشيوعية حيث كان يقول:

- رضيتُ ان اكون قردا ورضيت ان تكون قردا، ولكن ايكون الامـام الحسين ابا عبد الله ابن بنت رسـول الله (ع) اصلـه قـردا، حاشـــا لله حاشـــا لله، هكـذا هـم الشـيوعيون الكفـرة يوصـفون الحسـين (ع). والنـاس البسـطاء والفقـراء تبكـي علـى ذكـر اسـم الحسين، وهـو بخطبتـه وحركاتـه وتمثيلـه يوجـه حقـدهم الاعمـى ضد الشيوعيين.

اقترب وسام من الحسينية ووقف عند بابها ولاحظ بام عينيه الجالس على المنبر، بانه هو نفسه المعلم المعمم وخاطبه بشكل لا ارادي ومن على البعد:

- أية عـلاقة لـدارون ونظريته مع الحزب الشيوعي العراقي واي كـذب وافتراء وتجني وخـداع للنـاس ومـن علـى هـذا المنبـر الحسيني.

واردف:

- فانـت كـذاب منـافق تلصـق التهم، ومنـذ يـوم عـاقبتني بـدون وجه حق وادميت اصابعي.

تبين فيما بان كل هذه الافتراءات والغاية منها تسقيط الحزب وتشويه صورته الحقيقية في المجتمع، وحينما نهض الحزب من ضـربته ومحنتـه فـي ١٩٦٣ وتعـافى مـن جديـد ومـا بعـدها عنـدما ازدادت شـعبيته مـن جـراء سياسـته ومواقفـه الوطنيـة السـليمة ومـن

اجـل الشـعب وبـين صـفوف العمـال والفلاحـين والكـادحين والكسبة والفقراء، في الحق والعدل الاجتماعي ومصالح الوطن.

والناس تعرف وتعلم بان عزاء وموكب العباسية الذي يهز كـربلاء والسـلطة فيهـا يشـارك بـه وبنشـاط عـدد مـن الشـيوعيين الكـربلائيين حيـث يقومـون بالتحضـير والتهيئـة وتنظـيم وصـياغة الـردات الحسـينية فـي العاشـر مـن محـرم ذات المغـزى السياسـي والانتقاد الحاد للسياسات الخاطئة للانظمة المتعـاقبة والتي تعتبر مظاهـرة سياسية ينتظرهـا ويرددهـا الناس يصـل صـداها إلى بغداد وباقي المدن العراقية.

وهنالك حقيقة يجب ان تـذكر بـان اغلبيـة قيـادة الحـزب هـم من عـوائل عراقية دينية عريقة معروفة وبيـوت ودواويـن ومجالس فـي كـربلاء والنجـف وبغـداد وسـامراء والبصـرة والمـدن العراقيـة الأخـرى مثـل بيـت الصـافي، الشـبيبي، الجزائـري، الجـواهري، الموسوي، القبانجي، القريشي، الشرقي، أل سميسـم، بحـر العلـوم والحكـيم والحيـدري والاعظمـي وغيـرهم مـن العوائـل العراقيـة المتدينة وذات الحسـب والنسـب والمواقـف الوطنيـة بيـوت الـدين والخير والعلم والثقافة والادب والمعرفة.

وتبين فيما بعد والمعلومات تفيد بان هذا المعلم المعمم كان يعرف كل منتجعات وبيوت الراحة والاستجمام في دول امريكا الاتينية حيث يمتلك بعض العقارات هناك عن طريق اخطبوط من العلاقات والاسماء من المعارف والاقرباء.

وبخصـوص تلـك العبـارة التـي اشـهرتها وزورتهـا جيـوش ومعسكرات وانظمـة استعمارية ورأسـمالية مـن اعـداء الماركسـية

ظهرت بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧ في روسيا ومن ثم قيام الاتحاد السوفياتي وبازدياد شعبية النظام الاشتراكي وانتشار الفكر الماركسي، وبهذه المقولة كان ماركس يطرح حجة بنيوية وظيفية عن الدين، حيث ان للدين بعض الوظائف العملية في المجتمع تشبه وظيفة الافيون بالنسبة للمريض أو المصاب، فهو يقلل من معاناة الناس المباشرة ويزودهم باطمئنان وباوهام طيبة، ولكنه يقلل أيضا من طاقتهم واستعدادهم لمواجهة الحياة الجائرة، عديمة القلب والروح التي اجبرتهم الرأسمالية ان يعيشوها. حيث كتبها ماركس كجزء من مقدمة انتقد فيها كتاب الفيلسوف هيكل، نشرت في ١٨٤٤.

استلقى وهو يناقش نفسه بنفسه:

- كن قويا وشجاعا يا وسام كما العهد بك ايها الريفي الثوري وكن كما علمك جدك الصدق والحق والعدل ومحبة الناس والموقف الشجاع... فلا تستوحش الطريق... لا تخف!، سوف تمرق كل هذه الشدة وتتغلب على الصعوبات التي امتحنتها في بدايات طريقك، أنها فقاعات هواء، أنها زوبعة وسحابة صيف عابرة، وهكذا نحن نذرنا انفسنا من اجل الشعب والوطن.

(واليمشي بطريقنا شيشوف لو موت لو سَعادة يابو علي... يابو علي).

3

لم ينم طيلة الليلة فمنذ الفجر توجه إلى المطار الدولي ببغداد ومعه حقيبته الصغيرة الفضيعة (الحمراء)، ولكنه بهذه الهيئة لا يشبه مسافرا إلى بلد الجليد بل يشبه عسكريا ملتحقا إلى معسكره، دمعت عيناه بتوديع خاله السيد جابر الذي هو بمثابة وبمكانة الاب والاخ والصديق والرفيق، الإنسان الطيب المثقف النير الفكر الذي لا يرضى بالضيم والظلم والمحبوب من أبناء مدينته، حينما يمر الخال بالمقهى (مقهى مهدون مسيبي) في الشارع الرئيسي بالمدينة يقوم بعض الاصدقاء والمعارف بالوقوف احتراما له ولطلته والسلام عليه، كان يضرب المثل بوالده السيد المعمم القادم من قرية السادة في ريف الحلة بانه (يشعل الاخضر) واهل المدينة يحترمونه كرجل دين ويتباركون به.

كان الخال معلما ثم مديرا للمدرسة مربياً للاجيال يساعد الطلاب الفقراء في توزيع المكافئات للمتميزين من التلاميذ من ملابس واحذية كمعونة الشتاء للمحتاجين منهم والفقراء ويأخذ بيدهم في الدراسة، جمعته بخاله طيب القلب علاقة صميمية حميمية يتداول معه النقاشات والاسرار والحوار، ينبهر عندما يدخل غرفته ومكتبته المتواضعة وفي كيفية حصول خاله على كتب قيمة، حيث اضاع مكتبته للمرة الثالثة، اخرها حينما

اضطرت جدته الحكيمة من امه وقبل مداهمة قوات الحرس القومي للبيت من انزال الكتب في قعر البئر في وسط الدار.

من هذه المكتبة التي جمعها خاله من جديد اعد وكتب وسام أول انشاء باللغة العربية حول جيفارا الثائر(الانشاء الذي كسَر رقبته) وادى إلى طرده وفصله من المدرسة لولا شفاعة الله واساتذته وتدخلهم لتخفيف الأمر، طبعا لازال وسام يحتفظ بهذا الدفتر (دفتر الانشاء).

كانا يقضيان اجمل الأيام حينما يأتي الخال إلى البيت ليشاغل الوالدة بعض الشيء بحجة السلام عليها وما ان يناديها عند الباب الخارجي يتسلل وسام بسرعة إلى خلف البيت لينتزع من قوارير المخللات المكبوسة ما لذ وطاب بكيس من النايلون كي يأخذونها مزة إلى نادي الموظفين لقضاء الوقت من أيام الخميس.

دخل صالة المطار منبهرا وهو لاول مرة في حياته يرى بها المطار أو يركب الطائرة كمعظم الناس، حائرا تائها يدور بلفتاته بحذر شديد ذات اليمين وذات اليسار متأنيا لا يعرف إلى أين التوجه ماسكا حقيبته الحمراء (الفضيعة) التي استخدمها اثناء خدمته العسكرية، ويده الأخرى تتحسس جيب قميصه محكماً بالدبوس فيه محفظته وبعض العملات التي استطاع تحويلها بكسبها من عمله وقصاصة من قميص فتاة الاحلام، فكم من الاعوام والمسافات جالت المدن والجبال وتنقلت معه قريبة لقلبه.

بدخوله المطار هنالك اشارات توضيحية لمحها؛ القادمون في ذلك الاتجاه... والمغادرون في هذا الاتجاه...، اذن هو مع المغادرين.

اخذ يفكرمع نفسه ونوى وقرر:

- حشرٌ مع الناس عيد.

وتوجه بتأني حيث يتجه المسافرون المغادرون إلى طاولات وكاونترات يقف بخلفها الموظفون والمفتشون الامنيون، تقدم بعض الخطوات واذا به يلتقي مع جمع من الشباب متركنين عند احد اعمدة الصالة، يكبروه عمرا بعض الشيئ ببدلات واربطة انيقة وحقائب سفر كبيرة لاتشبه حقيبته الصغيرة النشاز، تباطأت خطواته وقف واستدار ومد يده لاحدهم يسلم عليه، بل تحاضنوا، انه كريم نفسه؛ ابن بلدته بلون وجهه الوردي والذي قد سبقه بثلاث مراحل في المدرسة وزميلين اخرين من نفس المدرسة ومن مناطق الريف.

وكان سام يعرف كريما حق المعرفه؛ شاب جميل خلوق انيق محبوب من عائلة مترفة، سافر إلى مصر العربية لغرض الدراسة قضى عام دراسي هناك ولم يفلح بانهاء دراسته وعاد بخفي حنين، كان يلتقيه في مقهى الوطن العربي أيام الخميس والجمعة مع مجموعة من الشباب والموظفين من نفس العمر يتعللون ليلا لقضاء الوقت ومشاهدة التلفاز ولعب الدومينو ومتابعة الأخبار.

جميع الشباب من المدينة والارياف المحيطة بها واوضاعهم وحالتهم المادية جيدة كانوا من ذوي الافكار القومية والعروبية والناصرية والوحدوية والبعثية وخصوصا أيام جمال عبد الناصر

وايام الوحدة (التي لم يغلبها غلاب) بين مصر وسوريا واليمن وما بعدها من احداث ١٩٦٣ وصعود حزب البعث في سوريا والعراق حيث انخرطوا في سلك الشرطة والعسكرية وتدرجوا في هذه المناصب خصوصا بعد استيلاء البعث في العراق في ١٧ – ٣٠ تموز سنة ١٩٦٨ على السلطة. بعد رجوع كريم من مصر التحق بالكلية العسكرية ليتخرج منها ضابطا وتدرج برتبه العسكرية.

سلم على الاخرين وتبادلوا الحديث واتضح بان وجهتهم إلى الاتحاد السوفياتي في دورات عسكرية متنوعة، متظاهرا كانه أيضا مثلهم عسكري بل اكثر منهم عسكريا بهيئته، واخذ يسترسل بحديثه مع كريم عن العمل في مواقع الاشغال العسكرية التابعة لمديرية الاشغال العسكرية المقابلة لوزارة الدفاع وتنفيذ كثير من الاشغال المدنية والعسكرية مثل اسالة وخزانات الماء ومخازن العتاد الشرقية والغربية المحصنة من اختراقها محصنة من المدفعية وحفريات وشق طرق والتعب في رسم خرائط والحفريات الترابية والاغبرة التي اثرت في نهاية المطاف على نظره ونيلهم كتاب الشكر من قيادة الفرقة العسكرية على جهودهم المبذولة في نطاق العمل الموكل لموقع الاشغال.

وابتغى وسام من ذلك بان يلهي نفسه ويلهيهم مندمجاً معهم كانه من ضمن هذه الشلة ليبعد الشك ولكي لا يثير انتباه خفر (العيون) من رجالات الامن، اختلط معهم وكانه بالفعل من هذه المجموعة من الشباب ولكنه تميز عنهم بالمظهر فقط بعدم ارتدائه بدلة فاخرة وربطة عنق انيقة وبحقيبة سفره "الانتيكة" من

"باب الشرقي" إذ لم يتسن له الوقت باقتناء بدلة تليق بسفره وكان الشيئ الوحيد في تفكيره الذي يهمه ويقلقه هو سفره ونفاذه عن طريق المطار.

واثناء تقدمهم رويدا رويدا نحو الطاولات وقبل الحاجز فاذا بهم يقفون يتحدثون مع ملازم الشرطة المربوع الواقف عند الحاجز ذو الشوارب الصفراء والوجه الجميل الذي يميل للحمرة كحمرة وجه كريم، والذي يعرفه وسام اكثر منهم.. انه هشام البصري بعينه؛ زميله في الدراسة في المرحلة المتوسطة وكان مدير المدرسة حينذاك اخوه الأكبر من كبار البعثيين القدامى، تردد بعض الشيئ وفجأة سلم عليه واحتضنه، كان هشام أيام الدراسة ياتي إلى المدرسة من بغداد مع اخيه المدير، مسالما هادئا حسن الهندام والاخلاق، افترقا قبل مرحلة الاعدادية وذلك لانتقال اخيه المدير إلى وزارة الثقافة والاعلام وتركه المدرسة، عاشت المدرسة بفترته سلاماً ووئاماً.

لم يصدق وسام بنفسه بما صادفه من لقاءات ليست على البال ولا على الخاطر، مالذي يجري؟، مالذي حدث هذا اليوم منذ الصباح لقاء وأحتضان وبلقاء وباحتضان اخر، اللهم اجعله خيراً، مالذي دعى شريط الذاكرة ان يظهر الان وفي هذه اللحظات ليحث طاقة ايجابية تنبعث تسود وتغطي هذه الأجواء، حقيقة أم صدفة أم مصيدة، اصبح وسام يجول بنظراته الخاطفة يتحسس وجوه الاخرين ويترقب ردود الافعال، اهو حلم أم خيال، بعد ان تعدى كريم وقسم من مجموعته توجه الملازم هشام بسؤال وساما عن سبب وجهته في السفر؛ اجابه وسام

وجهتي للعلاج، رده الملازم بجوابه الواثق ضاحكاً وبغمزة عين بلهجتة البغدادية:

- للعلاج أم للبلاج؟.

تساءل وسام مع نفسه:

- أهل هذا هو الأخر يمزح أم يسئل أم هو تحقيق مبطن.

رن جرس ذاكرته بان كل ما يدركه من اختلاطه بهشام من أيام المدرسة المتوسطة بانه لم يكن عدائياً ولم يسيئ لاحد من الطلبة حيث ربطتهم علاقة زمالة ودية فلم يتوجس منه شراً وضراً او خباثة او انانية، هذا وقد هبطت دقات قلبه بعض الثواني اثناء حوارهم الثنائي، توقف الطابور بعض حركة غريبة من قبل بعض الضباط خرج احدهم وبيده بعضا من جوازات السفر خضراء اللون إلى الغرف الجانبية بعد الحاجز، ساد قلق شديد، ازدادت دقات قلبه، وقد يكون غاب عن الوعي للحظات لا يعرف مالذي جرى له، فتور ونحول وضعف، اتكون هنالك اخبارية جاءت من الامن العامة لالقاء القبض عليه.

تمالك نفسه بعض الشيئ، خجل من كريم لعدم مواصلة الكلام معه، قال له؛ بانه لم يتناول فطوره ويعتقد بان هنالك هبوط في ضغطه، طال الانتظار وزداد القلق، ودقائق أخرى رجع الضابط وبيده تلك الجوازات، تحرك الطابور وعاود الضابط بختم تأشيرة المغادرة (اللهم اجعلها نفاثة) (وجعلنا من بين ايديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فاغشيناهم فهم لا يبصرون)، وقبل الخروج من الحاجز الأخير للتفتيش وعيون وسام مركزة على حركة ايدي ضابط الجوازات الجالس بجانب ملازم هشام

وتراقب طمغة الخروج على أي جواز سفر تختم، وهو لازال يتوسط الوفد ويتقدم معهم، فاق لصدمته وانتبه لكلمات هشام إذ قالها مبتسما وبهدوء كانه لا يريد ان يلفت انتباه الملازم الاخر:

- على كل حال تمنياتنا وتهانينا "روح الهواء بظهرك".

صوت الختم (الطمغة) على الجواز ازاحت ضيق وثقل جاثم عن صدره، وخفتت دقات قلبه... لقد فلتَّ يا وسام روح...روح... روح الله وياك.

ما هي الا بعض الامتار تفصله عن الحاجز الاخير من نقطة التفتيش والمنع، وهو بهذا الحال تمنى ان يكون في يده مصباح علاء الدين السحري ليقفز به من على هذا الحاجز كشعاع يرتفع كلهب يهب به إلى داخل الطائرة ولا احد يستطيع الامساك به. ويسائل نفسه:

- بمن تفكر الان يا وسام.. لا تخف!.. لقد ختم على جوازك ختم الخروج بفضل ملازم هشام وتغطية جيدة من ملازم كريم، هذا هو رد الجميل لدى الإنسان النبيل، هكذا الرد عندما لا تسيئ للاخرين، فخلقك الطيب وعلاقاتك الطيبة هي شفيعك في المواقف، ان تعمل خيرا خيرا ترى، وان تعمل شرا شرا ترى.

وما ان خرج من الحاجز وهو يتوسط مجموعة الضباط وبجنبه كريم واذا بالطائرة قد امتثلت امامه جاثمة بجناحيها واطاراتها، طائرة حقيقية ولكن وجهها يشبه الدولفين مرتدية لوناً اخضر جذاب تستقبل هذا الوفد رفيع المستوى كاستقبال الوفود التي شاهدها أيام التلفاز (الاسود والابيض)، حقا انبهر لذلك الأنه لاول مرة يشاهد طائرة حقيقية امامه، انقطع تفكيره بعض الشيئ

وهو لا يعلم ولا يصدق كيف وصل إلى سلم الطائرة، امسك بقوة بمقبض السلم خوفا من التعثر بدرجاته او السقوط ليصبح فضيحة كبرى ومن ثم يحيلوه إلى المستوصف ويحققوا بالسين والجيم وينكشف امره وتحين ساعة (السودة)، يقال بان المسكين على ظهر الجمل وعضه الكلب، والله وياك يلي رايح لابي غريب، وسوف يلاقي اصدقاءهُ الجنود المعتقلين في معسكر المسيب ويعاد التحقيق مرة أخرى إذ هم لا زالوا على قيد الحياة ويلاقي حتفه المؤكد وحينها يشمت به ضابط التوجيه السياسي ويشفي غليله (الله جابك منين، اجيت برجليك، اهلا بيك يل المنحدر)، حينها لا ينفعه شمخي وجواز السفر ولا الملازم هشام وتغطية ملازم كريم ولاختم الخروج وحجة العلاج.

لا يعرف من أين اتت له كل هذه القوة ليكون في اعلى سلم الطائرة وعند مدخلها (والغرقان يتشبث بقشة)، ادار بوجهه للخلف ليرى ما تحته وكيف يصعد المسافرون، قبل ان يهم بالدخول إلى ممر الطائرة وقعت عيناه بوجه فتاة جميلة بشعرها المصفوف وعيونها السود ورموشها، تفوح عطرا زكيا مرحبة بالمسافرين، من طاقيتها ومنديلها الاخضر الفاتح الشفاف وملبسها الاخضر الانيق الذي يليق بها خمن أنها المضيفة الجوية كما هي في الصورة، ولا يهم اليوم وليكن ما يكن، ليطير معها إلى السماء السابعة، سبحان الخالق لهذا الجمال... أين من عيني هاتيك المجالي... يا عروس البحر يا حلم الخيال... واذا طابت النفوس غنت؛

العيون السود رموشهم ليل

ليل بيحلم باللي غايب باللي غايب
العيون السود خذوني آه ياقلبي ياللي ذايب
من هواهم رحت اغني آه ياليلي آه يا عين

ابتسم لها بطيبة ورمقها بنظرة وحسرة وخزن وجهها في ذاكرته، ودلف داخل ممر الطائرة يتبع كريم ليجد المكان المخصص له، من الظاهر تبين بان لكريم له تجربة وخبرة سابقة بالسفر بالطائرة حيث وزع الاماكن بسرعة على مجموعته وخصص المكان لوسام عند النافذة وهو جنبه، لم يصدق نفسه وهو لاول مرة يركب الطائرة لمس مقاعدها نوافذها تفحص خزاناتها والازرار العلوية فهذه لا يحتاجها ولا يمسها.

لازال في الممر لغط وقهقهات ومجاملات فارغة، لازال باب الطائرة مفتوحا لم يغلق بعد وذلك من خلال اشعة الشمس النافذة إلى الممر، دخل الممر ثلاثة من ذوي الشوارب (٨ شباط) الكثيفة من هيئتهم واجسامهم الضخمة كانهم رجال امن يتجهون صوبهم، ادار بوجهه إلى كريم واراد ان يختلق حديث ما عن عمله عند التحاقه بالعسكرية وبمن التقى من أبناء المدينة خلال هذه السنين أو ما حل بالبعض الأخر واخبارهم، بتقدمهم اخذ هؤلاء كأنهم ينظرون اليه والى كريم، ازدادت دقات قلبه (هل يمرهذا اليوم على خير)، انزل وجهه إلى الاسفل كي لا يقع أو يتقاطع نظره بنظرهم.

بدأ يسائل نفسه:

- من هؤلاء ايعقل بان لديهم اخبارية ما متأخرة بشأنه؟.

توقفوا عند حد مقعد كريم، فنهض إليهم كريم واوضح شيئا ما لسؤالهم المتعلق بالعدد وبعدم التحاق احدهم للدورة لاسباب طارئة، اتضح من الاستفسارات والردود بان كريم هو الاقدم فيهم، تنفس الصعداء عندما ابتعدوا بعض الشيئ للخلف عن مقعدهم ولازال الممر مزدحماً بالمسافرين الذين يبحثون عن مقاعدهم.

شعر بهدير المحرك واهتزاز وارتجاف في جناحي الطائرة كأنها هزة ارضية والباب النحس للطائرة لم يغلق بعد لكي يرتاح القلب بعض الشيئ من هذا القلق الموجع وصعود روحه عدة مرات عندما يتفحصون يراقبون الاوجه، أحس بتقدم أثنين مرة أخرى من ذوي الشوارب العريضة (٨ شباط) صوبهم، كانهم رجال الامن بل اكثر كانهم شرطة الغيستابو الالمانية، يكاد يصيبه الدوار ويتخلخل ضغطه حيث انه منذ المساء ولحد اللحظة لم يدخل في جوفه شيئا ما عدا الماء، يكاد ان يفقد وعيه، كان يتذكر وجوه الحرس القومي حينما ارسله ابوه لتقصي الأخبار في نهاية الشارع وتوقف الدبابة بمدفعها لكي تغلق الزقاق (الدربونة)، وقفواعند مقعد كريم مرة أخرى، خاطب وسام نفسه؛ اليس من مكان اخترت لتجلس بعيدا عن كريم لتتخلص من هذه الهبطات وياربي؛ الم يحن الوقت لاغلاق الباب الملعونة هذه، اليست صعوبة عليك ان تغلقها!، ينهض كريم ليرد على اسئلتهم، تمتما وتواريا في ممر الطائرة خلف الستارة، اخيرا اغلقت الباب (طب دب)، تنفس الصعداء واغلقت دقات قلبه، لون اخضر، لون احمر، التصق بالنافذة يراقب من خلالها ما يتسنى له من رؤيته في

الخارج ولكونه يحب الجلوس عند نافذة الباص او في القطار مع جده منذ الصغر يستمتع بمشاهدة الزرع والمراعي والماشية والترع وحركة النخيل والاشجار البعيدة عنه حيث تبقى تتنقل معه على طول الطريق اثناء سير القطار.

لازال هناك في اسفل الطائرة بعض الرجال وعلى ما يبدو بانهم رجال الامن والحماية، واخيرا ظهر الجمال الرباني؛ انتصفت المضيفة أم العيون السود في مقدمة مدخل الطائرة تشرح وتوضح كيفية استعمال واستخدام مستلزمات الطوارئ، يسائلها مع نفسه؛ لماذا لم تظهري منذ البداية لتزيلي هما وتهدئي من روعي وخوفي لتحييد وتحديد حركة المرعبين المفزعين، لا يهم فقد ظهرت لتلطف الأجواء بطلَّتها الجميلة واستجابة لامنيتك وان تبدد مخاوفك وقلقك، ومن وراء الساتر اختفت؛

يا أم عيون حراكة كوللي شوكت نتلاكه...

فدوه رحت لعيونك خايف لا يحسدونج...

عيني يابه فدوه للهوى وعشاقه...

صدح المايكرفون يرطن، ازدادت دقات قلبه، انتبه لنفسه ليسأل الله الساتر، على ما يبدو لن تنتهي العملية، ومن الضوضاء ظن ان شيئا ما مطلوبا بالمايكرفون، ايمكن الان ان ينزلوه من الطائرة مخفوراً؟، لكن لا مؤشر لاي شيء، ارتبك وقد لاحظ ملازم كريم ارتباكه ووجهه مصفراً بلون الليمونة.

ازدات حركة المحركات وهزهزات اجنحتها كنسر ارتجفت اجنحته قبل (الاقلاع) النهوض للطيران، خفظت الاصوات،

تحركت الطائرة في مسارات ومسارات إلى ان توقفت فجأة، قال له كريم مبتسما:

- خلص، خلص، أنها في نهاية المدرج وسوف تجهز للاقلاع.

اراد كريم ان يهدئه من اضطرابه الاخير...، تمسك وسام بمقعده بقوة كانه في قارب يتلاطم به الموج خوفا منه ان يهوي. التصق بالنافذة مرة أخرى، اقلعت الطائرة وتعالت نحو العلالي وشقت واخترقت الغيوم، ياله من منظر جميل وانت تطير في جو العراق.

اخذ يشرح لنفسه:

- عندما كنا صغارا كانت الغيوم تعبر وتمر فوقنا اما الان فانت تعبر وتمر فوقها كنسر يجول فوق جبال بيضاء، سبحان مغير الحال والاحوال، حول حالنا إلى احسن حال.

عندما استوى الطيران، تجاذبا اطراف الحديث مع ابن مدينته، حيث كانت أخر اللقاءات في مقهى الوطن العربي عندما توفي جمال عبد الناصر وكيف خرج للشارع وهو يبكي على وفاته، تبادلا الحديث عن اخبار عن والده، دراسته في الجامعة وعمله في بابل، المضايقات والمنغصات وسلوك بعض مراقبي العمل فيما يسمون انفسهم بالنقابيين وتقاريرهم الظالمة، وهم بعيدين كل البعد عن خلق العمال وسلوكهم، نحن أبناء هذا الوطن بقومياته واقلياته واديانه، وطننا الذي نحبه ولاجله نضحي ونخدم الناس والوطن، بدون صراعات دموية، من اجل الخير والعيش الكريم، لا للتفرقة، لا للاحتراب، نحن اخوة ولسنا باعداء.

وبخصوص والده، يحدث وسام كريماً:

- ذات يوم وبعد انهاء خدمتي العسكرية وحصولي على عمل في مجال هندسة البناء، كانت معي زملائي من المهندسين راجعين من بغداد متجهين صوب الحلة، توقفنا عند المقهى لشرب الشاي وتزويد السيارة بالماء، شاهدني والدي وتقدم بتأني يطلب مني ان انزع ربطة العنق الحمراء ومرة أخرى ان لا البس من هذه الألوان، نزعتها بدون لفت انتباه الاصدقاء.

ويستمر وسام بالحديث عن الوالد فيقول:

- أخر الوقت تزوج الوالد امرأة أخرى وحسب احصائيتي التي اعرفها ممكن ان تكون الزوجة التاسعة، فسألت الوالد فيما إذا يسمح به الشرع الزواج باكثر من اربع زوجات في الاسلام (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع).

قال:

- نعم كذلك.

وسئلته بهدوء:

- الا ينافي ذلك الشرع...

اجاب الوالد باستفساره:

- الم تدرسوا درس الحساب في المدرسة؟، يقصد (مادة الرياضيات).

قلت:

- بلا.

قال:

- اذن أجمعها (١+٢+٣+٤=١٠)... كمتوالية عددية، ففي هذه الحالة من حقي ان اطالب بأمراة أخرى.

فضحكا الاثنان وضحك كريم ضحكاً من اعماق قلبه واردف قائلا:

- هكذا هم السادة، الله يحفظهم يحبون النساء ويحبون التعددية. هنا بادره وسام كالبرق بسؤاله؛ الكل يحب النساء وليس السادة وحدهم، فبدونهن لا تكتمل الحياة، ففي الحديث الشريف؛ تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني أباهي بكم الامم يوم القيامة، ولكن مالذي تقصده بالتعددية؟.

اجاب ملازم كريم:

- لقد اجبت بنفسك الان، وليست التعددية التي تريدونها وتقصدها أنت!. بل اقصد تعدد الزوجات للسادة، تبررون ما يعجبكم وتحببون ما ترغبون حتى ولو كانت من الصومال الشقيق؛ (ديربالك عليه حينما تكون في العلاج)، غرق الاثنان في الضحك مما أثارَ انتباه الجالسين خلفهم، وعقب وسام قائلا:

- دير بالك ترى السادة (يُشوْرون).

واردف كريم مؤكدا:

- طبعا اعرف (يُشوْرون) لذلك نهابهم ونحبهم ونحترمهم، وانني حقا يا وسام احب واحترم والدك، انه إنسان طيب ومسالم وله من الوعي والاطلاع، واتذكر مواقفه معنا وعلاقته بوالدي علاقة طيبة منذ زمان وعلاقته مع خالي علاقة طيبة جدا منذ أيام انصار السلام.

كان كريم نعم الاخلاق هادئ الطباع متفهم وذو معرفة واطلاع وذلك من خلال دراسته في مصر وسفرياته المتعددة للخارج في ذلك الوقت واختلاطه بمثقفي المدينة أيام الجمهورية الأولى وتعاظم المد القومي العربي ودخوله عدة دورات تأهيلية عسكرية في الخارج أهلته ان يكون شخصية طيبة محترمة تميزه عن الحزبيين البعثيين الاخرين. وضح له وسام بان الطائرة تحلق على جبال العراق، من خلال معرفته ودراسته للطوبوغرافيا والمسح الجوي عند دراستهم للسدود حينها كان استاذهم فؤاد الفندقلي الموصلي في مادة المساحة يدخلهم إلى قاعة المساحة ويجلب لهم صورا لمسح الاراضي من التصوير الجوي. بادره كريم وساعده بفتح المنضدة (الطاولة) المخفية في الكرسي لوضع صينية وجبة الاكل التي اتت بها أم العيون السود وبانحنائتها الحنينية نحوهم غطى عطرها رائحة الاكل وتخلل حاسة الشم عنده، فاه فمه، تابعها بنظرة وشكر وابتسامة، نسى جوعه ونسى كيف تناول وجبته.

فدوه رحت لعيونك

خايف لا يحسدونج

عيني يابه فدوه للهوى وعشاكه

تابعوا حديثهم المتنوع، هذه اراضي تركيا، هذه بدايات البحر الاسود على ما اظن...، اجابه كريم بهدوء وطيبة؛ نعم هنا البلاج بل اجمل بلاجات الدنيا كلها، حيث الماء والخضراء والوجه الحسن، تذكرنا يا سيد يا وسام (دخيلين جدك) يا بن مدينتي حينما تمرون ببلاجات البحر الاسود. هذه هي أول مرة يركب

الطائرة واول مرة يقف ويسير في ممرها إلى الخلف يتفحصها وهي تحلق فوق الغيوم...، بهذه اللحظة لمح أم العيون السود من فتحة الستارة تنظر إليهم.

استمرا بتجاذب الحديث؛ وحول سفر اكثر العراقيين واصطيافهم بذلك الوقت؛ يتوجهون اما إلى بيروت واما لايران بحجة زيارة الامام الرضا (ع)، وبدربك حبيّب، يعرج المتمكنون من العراقيين إلى طهران وشمال طهران حيث كانت تعتبر باريس الثانية زمن شاه ايران وتربط البعض منهم شتى العلاقات،... نحن الان على ما اعتقد نحلق فوق اراضي الاتحاد السوفياتي.

تركه كريم لبعض الوقت للتحدث مع رفاقه الاخرين بجواره وخلفه.

اخذ وسام يراقب من نافذته ويغوص في الأرض ويسائل نفسه:

- أين هو الان، وما حل بالاهل والاصدقاء والرفاق الذين لم يستطع توديعهم جميعا، وكيف تنام امه واخواته هذا الليل وكيف تتأكد من نفاذه من خلال المطار ووصوله الجهة التي سافر إليها، اياتيها النوم؟، اتتذكره جنان أم أنها اسدلت ستائر هذه النافذة لكي تفتح نوافذ اوسع لحسن وحرية الاختيار بالامتيازات والامكانيات، سوف يراسلهم حين يستقر به المطاف وحسب كلمات السر التي قد اتفقوا عليها مع امه، وحيث للحظة هذه لا يعلم بالضبط سر وجهته،.. وما الذي جرى للرفاق والاصدقاء من الجنود المعتقلين وما هي اخبارهم والتي لا احد يعرف عنهم شيئا، وما الذي سوف يجنيه ضابط التوجيه السياسي في حياته

وضباط الامن الذين عاثوا في الأرض فساداً واجرماً بحق خيرة الابناء من بلدهم وسوف يأتي ذلك اليوم لمحاسبتهم في الحياة الدنيا أو في الاخرة على ما فعلت اياديهم.

وتذكر وسام حياة الطلبة والحياة الجامعية في القسم الداخلي مع الاصدقاء من مختلف المحافظات العراقية من السليمانية والحلة والنجف وديالى والرمادي والناصرية والقائمة تطول ويخص بالذكر منهم الصديق القاسم المشترك فاضل الكناني الذي يتصيد وينتقي لهم المطاعم والنوادي الجيدة والرخيصة بنفس الوقت وذلك لكثرة معارفه من أبناء مدينته العمارة والذين يعملون في مطاعم ونوادي وفنادق بغداد انذاك، يتذكر الصديق قاسم محمد الذي غلَّبَ وحيَّرَ المسؤولَ الحزبي للقسم الداخلي للطلبة بتمثيلياته التي تفسد غسوله وتضحك الجميع؛ حيث يقوم مثلا بغلق الماء الحار وقت الشتاء اثناء دخول المسؤول حمام الغسيل بعد ان غطى الصابون جسمه واغلق عيونه مما يضطره بالخروج من الحمام عاريا ملعلعا بصوته متزحلقا متعثرا مصطدما بالجدران. يتذكر طلبة الاتحاد الوطني وتصرفاتهم العدائية الارهابية، أبو زيد الهلالي الثعلب الماكر الملتحي من الديوانية وعلاء كاظم الحزبي الفاشل الواشي من اهالي الوشاش واخرين، ولحد الان لا يعرف سر عدم التحاقهم في الخدمة العسكرية.

ها هي الان طائرتهم تحلق بسماء موسكو، زرقاء صافية وسحب بيضاء، وتهوي رويدا رويدا بعد ان تعبت من التحليق والضجيج، تتراءى للناظر منحنيات انهر زرق وقبب كنائس مذهبة مزخرفة من كل الألوان وحدائق وخضرة وبنايات يكسوها

قرميد احمر برتقالي واشجار وشجيرات مزهرة خضراء وردية جوزية فاتحة غامقة صفراء سيقانها بيضاء تودع صيفها الربيعي وغابات اشجارها باسقة عالية، حطت الطائرة بالمطار لسفرة سحرية لم تكن مفاجأتها بالبال أو بالحسبان، تنهد وسام تنهيدة عميقة، بعد كل هذا القلق وشد الاعصاب، دفع الله ما كان، ان بعد العسر يسرا!.

خرج الجميع من الطائرة، تباطأ وسام بعض الشيئ في خطواته يستشف الوضع، ولم تمض دقائق معدودات الا والجميع قد وصلوا عند حاجز الدخول (كاونترات استقبال القادمين)، تستقبلك موظفة فحص الجوازات والتأشيرات (الفيَّز)، الشقراء زرقاء العيون بالابتسامات الجميلة تضع الطمغات على فيزة الدخول وتؤشر لك بالدخول تبعث الاطمئنان والراحة النفسية، بدون رجال امن واستخبارات وشوارب ٨ شباط واسلحة نارية وتحقيقات، وفي صالة الاستقبال تجمعت مجموعة الملازم كريم على يمين (كاونتر الاستقبال) لان خروجهم من مخرج مخصص للوفود الرسمية، وقبل ان يفترقا ويتوادعا قال له كريم على انفراد:

- أنا اعرفك يا وسام منذ ان كنت في المتوسطة وعرفتك عندما كنت تعمل في صيدلية اقاربك وانت تحفظ لي الادوية حتى استلامها، واعرف طيبتك واخلاقك العالية، جلسنا المقهى سوية والحديث والنقاش الجميل ساد تلك الامسيات وليالي رمضان الكريم، فرحت لتخرجك من الجامعة وتادية خدمتك العسكرية وقد خمنت وجهتك منذ اللحظات الأولى للقائنا في

المطار فرحت في دواخلي واتمنى لك ان تقضي اجمل الاوقات في البلاج والنجاح في العلاج... الموفقية في دراستك المقبلة، سوف نلتقي يوما في موسكو إذا كتب الله لنا عمراً، واسُرك نحن في دورة عسكرية في مدينة فارونيج وارجوك إذا كنت تحتاج لمساعدة ما فانا اخوك الأكبر.

اجابه وسام:

- شكرا كريم لموقفك النبيل هذا ولن انساه ما دمت حياً، فنحن اخوة وابناء مدينة طيبة.

احتضن بعضهم البعض وسلم وسام على بعض أصدقاء كريم، تعانقا وتوادعا قبل ان يخرجا من حاجز الخروج من المطار إلى المدينة.

خرج وسام من المطار بحقيبته الفضيعة كانه مصلح لانابيب الماء (الخفير عند الطوارئ)، تائه لا يعرف إلى أين يتجه، كان هنالك من المسؤولين عن الاستقبال وبنفس الوقت التقى بجمع من الطلبة العراقيين ومن ذاكرته ومراسه استطاع تمييز وجه احد معارفه من الكوادر الطلابية النشطة في جامعة بغداد، تعارفا وقدمه لصديقه الاخر، فقادوه إلى اقسامهم الداخلية في منطقة (السوكل) ليرتاح بعض الشيئ من ذلك الارهاق وشد الاعصاب منذ خروجه من مدينتهم، منطقة السوكل هي مجمع لاقسام داخلية وتجمع للطلبة من كافة الاختصاصات العلمية وطلبة من جميع انحاء العالم.

بعد الاستراحة التقى باحد اقربائه وكان اللقاء بمثابة مفاجئة له حول مجيئ هذا الريفي العنيد وكيفية خروجه من العراق بهذا

الوقت الذي لا يسمح بالسفرالا للبعثيين ومبعوثي الدولة، بعد السلام وتبادل الأخبار على السريع اجتمع عدد من الاصدقاء والمعارف وقرروا الاحتفاء بقدوم من هو جديد ومن هو قادم من مدن أخرى، وهم بطريقهم إلى المترو طلب منهم في بداية الأمر الذهاب إلى الساحة الحمراء وضريح لينين، واثناء سيرهم ما بين الاقسام الداخلية للطلبة اثار انتباهه إلى احدى الشابات الشقراوات واذا بطالب افريقي يمسكها بقوة وهي تحاول التخلص والهروب منه، بهذه اللحظة امسك الاصدقاء بوسام وهو يحاول الافلات منهم هب لنجدة الفتاة الشقراء وهي بهذه الحالة مخاطبا اصدقائه؛ أين الشيمة والرجولة ايها الشباب اليست هذه هي من بنات لينين العظيم!، كيف يجري لها ذلك وامام اعيننا؛ الا تنظرون!.

امسكوه من يده واوضحوا له بما شاهده من موقف، ضحكوا وظل وسام متجهما يراقب الموقف، واردف احدهم مخاطبا متوجها إلى وسام:

- بان يترك وينسى (ريفياته) هذه والشيمة والرجولة التي تعنيها تكاد ان تعرضنا إلى بلبلة لا يحمد عقباها في هذا التجمع السكني للطلبة الاجانب.

تفهم وسام لتوضيح الاصدقاء وبين لهم موضحا موقفه:

- هكذا هي تربيتنا والعتب على معلمنا ناصر استاذ التربية الوطنية في مدرستنا الابتدائية الأولى (هذه هي احاديثه اللطيفة).

وصلوا محطة المترو وكرروا مقترحهم عليه، أي عند الصباح يذهبون به إلى حيثما يطلب ويرغب، لكن وسام اصر

برأيه يرجوهم مرورا سريعا بالساحة الحمراء ولرؤيتها فقط وليقول للجميع بانني الان في الساحة الحمراء، ووقوفا عند رغبته وافقوا على ذلك وذهب الاخرون للمطعم لحجز المقاعد ولكون المطعم قريب من الساحة، وعند وصولهم الساحة شرع احدهم بشرح مختصر: - هذه الساحة الحمراء والكرملين وضريح (لينين) وكاتدرائية باسيل القديس وقببها الملونة، ضريح الجندي المجهول، المركز التجاري الكبير، شارع غوركي وبعكس الاتجاه نهر موسكو.

واقنعوه:

- نتفق ونتعهد في الصباح نتفقد كل الساحة سوية.

سألهم وسام:

- واين البناية السكنية العالية؟.

اجابوه:

- لا توجد في الساحة الحمراء أية بناية سكنية.

اجابهم برده القاطع:

- بل توجد بناية منذ زمان.

وسألوه:

- وباي زمن؛ في زمن الحرب العالمية الأولى أو في الثانية؟.

ورد الأخر ايعقل بان صاحبنا استيقظ للتو من جماعة اهل الكهف!، اولانه للتو (ماكل فلقة من الامن العامة).

سمعه وسام ورده ضاحكا:

-لا عزيزي من جماعة (دك النجف).

واستطرد موضحا لهم:

- بانني اعرفها متيقناً منذ ان كنا في المدرسة الابتدائية، وللعلم انني اكلت اكثر من هذه الفلقة والعلقة أيام المدرسة الثانوية اهانات وصفعات (راشديات) وفصل من المدرسة واكمال في مادة اللغة العربية كل ذلك مكافأة لي لكتابتي الانشاء الجيد عن جيفارا الثائر حبيب الشعوب التقدمية (فوك حقه دكه).

- ومن أيام الجامعة وممارسات طلبة الاتحاد الوطني حينما يأتي مسؤولهم الحزبي الكبير يتداولون كلمة السر (عدنان القيسي)، ويغيرون بالاعتداء وبالضرب على من يخالفهم الرأي أو يتحسسوا من نشاطه أو يظنوا به مجرد ظناً، حينها يشكلوا حلقات (البوكسات) كحلقات عصابات (الكاوبوي) يغمى عليك وتخرج منها اما مغلق العينين أو مكسور الاسنان وانتم لا تصدقونني أو في عيونكم العمى.

يؤكد وسام ويقول باصرار:

- لقد حدثنا عنها معلمنا ناصر في درس التربية الوطنية عند حديثه ووصفه لزيارة الساحة الحمراء وضريح (لينين العظيم) لاكثر من مرة، ولست بقارئ المنبر أو قارئ الفنجان.

بعد هذا النقاش والتوضيح اجبرتهم قرصة البرد والضباب ان يتركوا الساحة على عجل لوقت الصباح، لقد اقام الاصدقاء حفلا بهيجا على شرفه ووصوله سالماً غانماً من العراق لم يمسسه الضر والاذى. أنبهر بدخوله المبنى وتساءل:

- اهذا أنا بمطعمٍ أم بمتحفٍ!؟.

حيث الجدران مكسية بالزجاج المنقوش والمرايا المزخرفة والاعمدة الرومانية والاقواس والسقوف المنقوشة والمرسومة

بـالالوان الجميلـة ومزينـة بالثريـات الكبيـرة مـن الكرسـتال ومصابيحها الزاهية المضيئة.

وهـو حقاً أول مـرة فـي حياتـه يـدخل مطعمـاُ ومرقصـاً بهـذه الفخامة والابهة بمثل هذا المطعم الفاخر العجيب من بقايا العهد القيصري وفي مركز موسكو، وهو وحسب العلاقات الاجتماعية السائدة في مدينته آنذاك لم يسمح لنفسه بدخول السينما أو نادياً إلى حين انهائه المدرسة الثانوية وانتقاله إلى العاصمة، وهـو الـذي كـان يتجبجـب ويعتـذر ويبتـزه الاحـراج حينمـا يجـالس (طاولـة الاتكيتـات) البغداديـة ودوشـة السـكاكين والملاعـق والشـوكات واطباقها وصـحونها ومناديلها من كل الاصناف والالوان، كتلك الجلسات التي في بيت جنان لا يحب الابهة ولا يستسيغها بل يحبذ البساطة في اغلب الامور، لا يكلف الله نفسا الا وسعها.

أيام الجامعة في بغداد كانوا مجموعة أصدقاء يقصدون مطعم تاجران في شارع السعدون كالمعتاد عند استلامهم المخصصات الشـهرية، يجـده ويتحـراه ويختـاره صـديقهم فاضـل وعنـد معرفتـه بوجـود عامـل مطعـم (كرسـون) مـن مدينتـه العمـارة فيتفـق معـه بزيارتـه مـع الاصـدقاء حينهـا يعتنـي العامـل بضـيوف ابـن مدينتـه، وعنـد الافلاس (التفليس) في نهايات الشـهر يقـودهم فاضـل إلـى مطعـم (تمـن فوكـه) ورأس بصـل فـي صـحن واحـد وقـوفاً، (وزد عليها عـوازة) وبدون تعقيد مقابل مقهى المعقدين.

واليوم... اليوم ليكن ما يكن، فلا وجود للحبيبة يخشى ان تلاحظـه ولا حـرج، فـاليوم يومـه براحتـه يأكـل مـا لـذ لـه وطـاب ويشـرب مـا يشـاء وحسـب مـا يروقـه المـذاق بعيـدا عـن المسـتحى

والخجل في بيوت أبناء الخالات عند عمله في مدينة الحلة، وليكحل عينيه ويهيم بهذا الحسن والجمال بعد صد وجفاء الحبيب وهيامه وعذابه وحرمانه طيلة هذه السنين؛ من الشقراوات وزرقاء وخضراء العيون وطالما انه في بلد الحب والادب وبلد الحلم والعلم. واليوم قد تحقق حلمه وبدخوله الساحة الحمراء ووقوفه أمام ضريح لينين العظيم كزيارته لضريح الامام يقبل شباك الضريح ويقبل بابه وعند خروجه لا يعطي للامام ظهره بل بوجهه ينحني بالقاء تحية الوداع، واليوم يستريح وينام نومة هادئة، واليوم لا زجر لشرطي ولا مداهمة لمفرزة امن في منتصف الليل ولا استلقاء في غير فراشه في بيوت أبناء الخالات ولا (كسرة نوم) من التعب في سيارته.

نهض من نومه في فندق (الكوموسمول) استقبال الطلبة المتعدد الطوابق يتفحص المكان من حوله، أين هو الان، ومن الذي اتى به إلى هذا المكان وكيف وصل!؟، لم ينم مثل هذا النوم العميق على مدار تلك الأيام التي قضاها في الوطن متهجولا بين البيوت، أطال بوقفته عند النافذة المطلة على الشارع العريض باندهاش يراقب حركة المارة والترامات الكهربائية وسككها المتوازية، تذكر جلسة البارحة الممتعة واللمة الجميلة لاناس هم من نفس الامتداد، وشغلت باله تلك البناية السكنية التي لم يرها في الساحة الحمراء، علهم قادمون الان على وعدهم ليتحرى عن الحقيقة في وضح النهار.

عند تجمعهم في صالة الفندق وللحظة خاطفة تبسمر وسام في مكانه حينما اقبلت عليهم فتاة طويلة القوام بوجه جميل

مشرق وبريق عيون وشفاه مرسومة، تفوح وتنضح انوثة ما بين شرقية وغربية، شامية، اندلسية، عربية، بخارية، روسية قيصرية، سبحان المخلوق ذات خصر جميل وشعر غجري يلامس وركيها مرتدية ملبساً رصاصي اللون يليق بها يظهر ويجسد مفاتن جسمها الجميل اما العيون السود فهي بحره المقسوم والمقصود ولاجله يتعهد بحسن الغوص والعوم عندما يحين الابحار وبدون ترجمة الشفايف سبقتها لغة العيون للعيون.

كالتعداد الصباحي نادتهم باسمائهم فتعارفوا، واتضح انه من ضمن مجموعة الطلبة الذين سوف يسافرون بالقطار إلى الجنوب وجهتهم إلى جمهورية اوزبكستان – طاشقند... طشقند، (طاش... طش قند، قند، قنده...) ترجوهم الالتزام بالموعد والتجمع مساءا في هذا المكان وسوف ترافقهم إلى محطة القطار لتوديعهم، واضحة جميلة مرهفة الذوق والاحساس واثقة في توجيهاتها وملاحظاتها، في هذه اللحظات قدم اصحابه على وعدهم وموعدهم، ظل مشدوها ونظره يتابع خطاها، ويقول لنفسه:

- لا خوف بذلك سوف تلتقي درتك هذا المساء. الم تقرأ لغة العيون ايها الريفي الفصيح؟!.

خرج مع معارفه في التجوال في مدينة موسكو وابهرته؛ المدينة وجمالها، شوارعها المشجرة، بناياتها الاثرية الجميلة المبهجة وكل منها يحكي قصة ورواية وتاريخ، جمال ناسها ونسائها ومجتمعها، حركتهم وتنقلهم والنظام، وجمال الساحة الحمراء، كاتدرائية القديس باسيل، ضريح لينين ومقبرة القادة،

سوروقلعة الكرملين، حديقة الجندي المجهول الكنائس والاديرة، نهر موسكو المحيط بها، جامعاتها ومكتباتها ومتاحفها وحدائقها، مترو موسكو، المسرح الكبير، تيقن من تفحصه للساحة بعدم وجود تلك البناية الرواية، ولكن سرها انبلج بعد ربيع اخرمن وصوله.

بعد تجوالهم السريع في المدينة ومشاهدتهم لمعالمها الرئيسية رجعوا للفندق مسرعين وهو المتلهف للقياها، ولكي لا يخرق الالتزام بالموعد لغرض التجمع حسب توصيتها وانتظارها من اجل التوجه إلى محطة القطار. ويناشد نفسه:

- ولكن ما اسمها؟، ومن تكون؟،... لازال هنالك متسعا من الوقت!.

... من نهاية الصالة ووسام يتطلع يدور برأسه وعينيه ذات اليمين وذات اليسار يطغي عليه القلق يتفحص ساعته كانه على موعد، حقا انه على موعد يريد ان يفتح ابوابه ونوافذه وهو اول موعد منذ ان حطت به الطائرة ارض موسكو خفق لها قلبه، لا يريد ان يضيعها أو يفقدها، يريد ان يعرف؛ هي من تكون، يريد ان يمسك بها، يريد ان يتعلق بها، ولا يريد ان يضيعها كما اضاع تلك الفتاة الدرة اللقطة، بذلك الموعد حين خانته جرأته ومستحاه.

وقتها كانوا شلة من الاصدقاء خرجوا من مقهى الجامعة في شارع أبي نؤاس بوجهتهم إلى شارع السعدون وبعد ان اجمعت جيوبهم ما يكفيهم من النقود قرروا الذهاب إلى سينما النصر

لمشاهدة فلم (نحن لا نزرع الشوك)، الطابور طويل جدا على شباك التذاكر والمكان مزدحم بالناس.

وقف وسام بزيه الجامعي في الطابور (السره) ليقطع التذاكر لاصدقائه، لحظتها توقفت سيارة شوفرليت سوداء وترجلت منها فتاة ذات حسن وبهاء وجمال بملبس اسود انيق وفجأة وقفت ملاصقة بوجه وسام، عطرها المحفز الغاصب اخترق حويصلات رئتيه وقلبه وعقله وخلايا جسمه، اضطرب لحظتها صامتا مقطوع الانفاس، تلفت يمينا ويسارا، مناشدا نفسه:

- أممكن قد تكون اخطأت واشتبهت به؟.

لم يتطلع إليها لا يعرف ماذا يقول لها، ادت تحيتها بابتسامة كأنها قريبة له، التمسته عذرا ورجته بان يقطع لها اربعة تذاكر ومدت يدها اليه بورقة نقدية.

اهتز بدنه وارتجف، وخاطب نفسه:

- كيف تقبل شهامة وغيرة ورجولة الريفي بأن ياخذ منها النقود.

واصر بتكفُله شراء التذاكر، كررت وبالحاح ان يأخذ النقود واوضحت له:

- باننا جميعنا طلبة.

الجميع من حوله المنتظرون في الطابور واصدقاؤه وسهام ابصارهم تتجه اليه يتساءلون من أين له هذه الفتاة الملائكية والثلاثة الباقيات وهو بنفس الوقت ينظر إليهم يسائل نفسه:

- من أي سماء هبطت هذه الحور العين!.

من الظاهر ومن هيئتهم وملابسهم ومن رقم لوحة سيارتهم انهم من عائلة متمكنة ماديا (من الحكومة)، ولم يستطع تحديد لكنتها للحظات وقوفها معه في الطابور.

قطع التذاكر عدد ثمانية ووقف جانبا، دنا منها وبخلسة سلمها الاربعة تذاكر والمتبقي من ثمنها واحتفظ بالتذكرة الخامسة وسلم المتبقي من التذاكر لاصدقائه، دخلوا السينما جميعا والاصدقاء الاربعة المتقاربون بالاعمار يتسألون عن السر العظيم والثلاثة من الفتيات متشابهات كانهن توائم مع امهم بملبسهن الانيق، انطفأت الانوار وبدأ عرض الفلم ووسام صامتا مذهولا بجوارها والاثنان على مدار عرض الفلم كل يلتفت للاخر بحسرة بدون ملاحظة أمها الجالسة بجنبها من الطرف الاخر، ولف عطرها انفاسه وتسرب بثيابه، تتلاقى النظرات تتقاطع الابتسامات بخجل ابتسامات الشفاه والخدود رغم الظلام.

انتهى الفلم وتوهجت الانارة من جديد، نظراتها اليه ما بين أسئلة واجوبة وانتظار وهو ينظر إلى ثغرها الارستقراطي الجميل بابتسامة هادئة يلفهم الصمت والسكون ونظرات الاصدقاء، شكرته مرة أخرى ولمحته أمها بنظرة مغلفة بابتسامة طيبة، تشجع عند نزولهم واومأ إليها بشكل لا ارادي بانه سوف ينتظرها غدا، هزت رأسها بالموافقة وتوادعا وظلت نظراته تودعها تلاحقها ملتصقة بها رغم الزحمة التي احاطت بهما بالخروج، وكان من العيب ان يترك الاصدقاء ويلحق بها.

امسى لثلاثة أيام مرابطا عند السينما حتى تقطعت رجلاه، وارتبط فلم (نحن لانزرع الشوك) بها كلما مر ذكراه وكلما صادف فتاة تلبس بدلة انيقة سوداء، كان عليه ان يكسر خجله الريفي والمستحى لأجل التعارف بها، قالت له نحن كلنا طلبة، ولكن كيف يلقاها، لا يعرف اسمها وسكناها، ايدور جميع الكليات واقسامها ويبحث عنها، لقد اضاعها وكيف ضاعت، وتبا لك يا وسام.

وسط هذه الزحمة في صالة فندق الكومسمول في موسكو والتي ضمت المئات من الطلبة الوافدين من شتى بلدان العالم والاكثرية من بلدان العالم الثالث وبلدان حركات التحرر الوطني والبلدان الفقيرة لمساعدتها في تهيئة الكوادر العلمية والاخصائيين في مختلف المجالات العلمية لينهضوا لبناء اوطانهم. وهو في هذه الأثناء يراقب وينتظر وصولها، فجاة ارتج جسده كانه قد مَسهُ التيار وخرجت عيناه من رأسه ينظر للامام واذا بمحيَّاها قد بزغ، ظهرت بطولها البهي الجميل وشعرها الاسود الحنائي الطويل عيناها السوداوتان العسليتان عطرها يفوح ينضح يسابقها ليحفز ويهز جنون وسام المسكين، فرس هائج جامح، فاتنة اذهلت وتاهت وهامت بها الأنظار، وهي تتطلع بوجوه ضيوفها الذين اصطفوا كحضيرة جند للمأمور وقد تجمعوا وفقا لارشاداتها، اقتربت إليهم، راقها الالتزام بالموعد، القت عليهم بتحية المساء بلغتها الانكليزية المفهومة واخرجت قائمة باسمائهم وبلدانهم، والجميع في غبطة وسرور، تسرب عطرها إلى خياشيم وسام، رددت اسماء وبلدان هذه المجموعة، طالب

من تنزانيا دار السلام واثنان من السودان الخرطوم ووسام من العراق وواصلت الحديث بتأكيدها؛ بانهم سوف يسافرون ليلا في القطار متجهين إلى طاشقند عاصمة جمهورية اوزبكستان، ردد وسام مع نفسه بابتسامة خفيفة؛ نعم اعرفها منذ زمان... طش.. قند... قنده... نعم اعرف طش واعرف القند واعرف عزيزتي قنده... قند... طش قند... طشقند.

وهو ينظر اليها ما بين التمعن والذهول، ويدمدم؛ وها هي قد تعرفت على اسمائهم وبلدانهم... ولكن صورتها انطبعت في دواخلي وهذه المرة لا اضيعها كما اضعت مرات ومرات. اكملتْ جميع توجيهاتها واكدتْ بان القطار سوف يستغرق المسافة بثلاثة أيام وعليهم ان لا يتركوا مقاعدهم وغرفتهم المخصصة لهم حتى وصول القطار إلى مدينة طشقند وعدم الخروج عند توقف القطار لفترات قصيرة في المحطات التي يمر بها في الطريق وعدم الاختلاط بالوجوه الغريبة واخذ الحيطة والحذر، ومع هذا هنالك توصيات للمسؤول عن القاطرة في غرفته المجاورة لغرفتكم، يراعيكم ويهتم بكم بما تطلبونه منه من الشاي والشراب وتبديل الفراش، لقد فهم الاربعة ما قصدته وفيما بينهم اكملوا توضيح توجيهاتها، وانتظرت فيما إذا لو كانت هنالك أسئلة لدى البعض منهم، الجميع اومأَوا بالفهم، صمتت بعض الشيئ واردفت؛ بان الباص ينتظرنا الان اجمعوا الحقائب ولنتوجه إلى محطة القطار وهناك سوف تستلمون بعض الروبلات لاغراض المأكل والمشرب خلال الطريق.

استقلوا الباص جميعا مع حقائبهم، ومع تسارع دقات قلبه تمالك وسام الشجاعة واستغل الفرصة للدنو وللتقرب منها والتحدث معها خلسة على انفراد، تائها ومنبهرا بكيفية تجاوبها معه حيث سألها بجرأة؛ أنت عندك قائمة باسمائنا وبلداننا ولكن لم اتعرف على اسمكم!، اجابته بهدوء ينم عن ثقة وتودد؛ كأنها تضمر شيئا أنا سوف اكون باستقبالكم في طاشقند يا وسام، اهتز بدنه لجوابها المفرح، احساس غريب، اهو الحب من أول نظرة، أهو الصدفة، اهو التودد، اهو التعارف والتقرب، اهو الصداقة أم هكذا هو من صلب عملها أو هو أسلوبهم أو هي هكذا اخلاقياتهم وسلوكهم منفتحين بدون تعقيدات أو بدون مقدمات مثلما يقولون عندنا بدون لف أو دوران. يسائل نفسه؛ الا تقرأ العيون حين تلاقت من أول اللقاء، الم تتيقن ايها الريفي الحاذق!، ولكن كيف تكون باستقبالنا هناك وهي لا تسافر معنا وكيف تلحق بنا، ومن قد تكون ؟!.

وصلوا محطة القطار بلونها الأحمر والابيض وبجنبها محطة باللون الاخضر والابيض والتي كأنها قصور القيصر أو قلاع امبراطورية أو متاحف مضيئة بانوار ومصابيح كأنها شمس النهار، ومن هذه المحطات تتفرع شبكات كثيرة من قضبان السكك الحديدية تتجه إلى كل جهات الاتحاد السوفياتي تتصل ببعضها البعض إلى كل عواصم الجمهوريات السوفياتية ومدنها الرئيسية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وصل الجميع ومعهم مضيفتهم ودليلهم إلى رقم رصيف القطار المتوجه إلى الجنوب إلى جمهورية اوزبكستان وعاصمتها طاشقند، ومودعتهم إلى باب

عربتهم ومسؤولها، وبيدها تذاكرهم تكلمت مع المسؤول وعلى ما يبدو اوصته أمانة بتوصيلهم بامان ورعايتهم وتقديم ما يطلبونه لانهم طلبة اجانب لا يتكلمون اللغة الروسية، ودعتهم وصعدوا العربة.

اتخذوا مقاعدهم في الغرفة المخصصة لهم والتي تسع لاربعة اشخاص، حيث اتخذ الطالبان السودانيان المقاعد العليا، والطالب التنزاني في المقعد التحتاني وتمددوا فيها، والمقعد الأخر بقى لوسام مع افرشته وحقيبته الحمراء، تحرك القطار وبقيت مضيفتهم على الرصيف تلوح بيدها لوسام الذي التصق بالنافذة وهو يلوح لها بيده حتى ابتعدت العربة وتوارت عن الأنظار؛ الرصيف والناس والمحطة وكاد يتلاشى بصيص الأضواء الحمراء والخضراء في الخلف والعجلات ترسل اصطكاكها عند تقاطع الخطوط وتسارع القطار في مسراه وعجلاته العربة ترسل طرقها للاسماع في هذا الليل وظل وسام متمسكا بالنافذة وعيناه تدمع من لسعة الهواء البارد الذي يطرق نافذته محملا برائحة الاشجار وعشب المراعي الرطبة حتى تباعدت وابتعدت اضواء المدينة وتعدى القطار مدينة موسكو واضوائها، الا ما بقي من بعض الأضواء البعيدة المرافقة لسير العربة وانوار واضاءة بيوت الريف المتناثرة على جنبي سكة القطار تخطف وتمر بسرعة بعكس السير.

ظل وسام واقفا عند نافذته لا يأتيه النوم غاطا في تفكيره بعمق يناقش نفسه بنفسه؛ أين كان قبل يومين واين امسى اليوم، كيف حصل له ذلك، من أين نفذ، وكيف نفذ، ومن الذي جاء به

هـو الان فـي هـذا القطـار اللاهـث فـي عبـاب هـذا الليـل البـارد الغريب، أين اهله واخواته ورفاقه في المدينة هل يتذكروه!، هـل لازال رجال الامن يرابطون عند بيتهم!، ماذا حل باولئك الجنود في المعسكر هل من اخبار عنهم أين صفى الدهر بهم، كيف هشـام، هـل قـدم إلـى الاسـتجواب فـي كيفيـة تخـريج وسـام ومساعدته في الافلات من المطار، وهل سيخبره الملازم كريم، ليكن ما يكن، هو الان في بلد لينين العظيم، وهل حقا سوف التقي بمودعتنا وموعودتنا في طاشقند!، ظل على هذه الشاكلة حتى الهزيع الثاني من الليل، تعب من الوقوف في الممر واستبرد، تسـلل إلـى الغرفـة بهـدوء كـي لا يثـير أي ازعـاج لمرافقيـه مـن السودان وتنزانيا، لاحظهم باسنانهم البيض وقد غطوا في نومهم يشخرون.

بعـد ان تأكـد مـن اغـلاق بـاب (كبينـتهم) غـرفتهم للحيطـة والامان، اخرج من جيب قميصه المغلق بزراره ودبوسه ثلاث اوراق مـن الـدولارات التـي اسـتطاع شـراءها مـن صـرافة بغـداد ودسـها فـي حقيبتـه الحمـراء مـا بـين (البطانـة) تغليفهـا الـداخلي وغلافهـا الخـارجي واعـاد البقيـة مـع المحفظـة الصـغيرة وفيهـا قصقوصـة مـن قمـيص الحبيبـة جنـان فـي جيبـه وازَرهُ باحكـام وبالدبوس ثانية، وذلك لاخذ الحيطة والحذر فيما إذا لو سرقت منه النقود أو ضاعت لسبب ما فهذه الثلاثمائة دولار احتياطية موجودة لا احد يعلم مكانها ولا تثير الشك من قبل الاخرين، لا يعلمها الا الله ولا يعرفها الا جيمس بوند.

بعدها استلقى بثيابه على فراش مقعده يتابع اضواء مدن بعيدة يمر بها القطار، ونفاذ شعاع الضوء لنافذة (كبينتهم) وبحركة عربة القطار وضربات عجلاتها على قضبانها الحديدية في هذه الليلة الأولى من مغادرتهم موسكو، (مرينه بيكم حمد واحنا بقطار الليل واسمعنا دك قهوة وشمينا ريحة هيل،... لا تمشي مشية هجر من تجزي بام شامات)...،... (ياريل طلعوا دغش والعشق جذابي..)، سالت دموعه بترديده قصيدة الشاعر مظفر النواب المغناة والتي حفظها وكتبها في دفتره منذ أيام المدرسة الثانوية، دمعت عيناه.. غفى من التعب وغط في نوم عميق.

مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل
وسمعنا دك قهوه وشمينا ريحة هيل
يا ريل صيح بقهر صيحة عشك يا ريل
هودر هواهم ولك حدر السنابل كطة
يا ريل طلعوا دغش والعشق جذابي
دك بيه العمر ما يطفه عطابي
تتوالف ويه الدرب وترابك ترابي
وهودر هواهم ولك حدر السنابل كطه
مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل

...

بدأت شمس الضحى تتسلل عبر نافذة (كبينتهم) في عربة القطار، صحوا تباعا واحدا بعد الأخر اولهم الطالب من تنزانيا ولحق به الاخوة من السودان واخرهم وسام، نهض وعيونه متفوخة وحيياهم بتحية الصباح (بالعربية الفصحى) وردوها بفتور،

تجاذبوا الحديث واتفقوا على كيفية تناول طعامهم وشرائه من مطعم القطار في الصباح أو المغرب مع بقاء احدهم في الغرفة لاخذ الحيطة. في غرف العربات وممراتها عوائل واطفال ووجوه حسناوات جميلات باسمة مشرقة وخدود وردية والعيون من كل الألوان تضفي الجمال والبهجة والسرور تنسي الناظر همه، وترى المسافرين يقضون وقتهم بلعب الورق أو الدومينو والقراءة أو الاكل والشراب سوية، كريمو النفس سفرتهم مفتوحة، يصعد من يصعد، وينزل من ينزل منهم ويصعد اخرون في المحطات التي يتوقف فيها في الليل والنهار.

لغة التخاطب باللغة الانكليزية صعبة مع المسافرين، وفي المطعم سادت لغة التخاطب بالاشارات، ذات مساء طلب الطالب السوداني بيضا مسلوقا الأنه يستحرم اكل اللحم، فلم يفهمه الطباخ بماذا يريد هذا الطالب، فتناول بيده بيضة واشعل عود ثقاب تحتها، ضحك الجميع وساعدناه في الترجمة، نار؛ كلمة تركية انكليزية، واعدَّ له الطباخ ما يريد وعلى مدار الثلاثة أيام يأكل البيض حتى امست الغرفة تعط برائحتها حين اجتيازها.

وسام يتحرك في فترة الغداء بين عربتهم وعربة المطعم واستهوى واستطعم ما يعد ويقدم من المأكولات في المطعم مثل اكل الرز الاحمر وما يشبه البرغل، يعود لعربته مع بعضهم أو على انفراد يحتسي الشاي من مشرف العربة الملاصق (لكبينتهم) وعند نافذته، يدخن سجارته في نهاية ممر العربة، وما بعد تناول الطعام يرابط عند النافذة يراقب المروج والعشب والغابات والقرى وتكدس الحصاد وحتى المساء ولساعة متأخرة وهم على

هـذه الحالـة لثلاثـة أيـام بلياليهـا وصـلوا طاشـقند مدينـة الخبـز والشمس.

4

عنـد وصـول القطـار المحطـة الرئيسـية فـي مدينـة طاشـقند وتوقفه في رصيفه المحدد ظل وسام للحظات واقفا مرتكناً عند باب العربة يتطلع إلى المستقبلين والمنتظرين لضيوفهم حسب ارقام عربات القطار، مر بعض من الوقت وعلامات الاضطراب واضحة على وجهه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار كالغريب يتفحص الوجوه وخصوصا وجوه النسوة، وهو ينزل من درجات العربة اراد ان ينزلق لولا تشبثه بالمقابض على جنبي الباب.

وبدأ يسائل نفسه عدة أسئلة ويخاطبها وتكاد تكون دمدمته واضحة:

- الم تحضر خاطفة قلبه لاستقبالهم كما وعدته بانها سوف تكون في استقبالهم في محطة القطار!.
- لماذا لم تأت للاستقبال؟.
- أتاخرت!.
- أجرى لها شيء ما؟.
- اتكون قد ارتكنت في زاوية ما تراقب ردة فعله!.
- هل هي كانت خدعة، أم مجاملة عابرة، أم هو مكرٌ؟.

واجابت عيونه وقلبه وعقله بالتناوب كشهود:

- لكن لغة العيون قد أكدت شيئاً اخر.
- بل هي قد وعدتك باصرار بانها ستكون من المستقبلين.

- لقد رأى قلبك وعقلك بلحظات قربك منها.

- بحركة جسدها، بنظراتها، بلمعان عينيها الحالمتين، باضطراب شفتيها المملؤتين، بحركة جسدها وبنضح رائحته الانثوية الطيبة.

وكرر الاسئلة مع نفسه مرة أخرى:

- هل تأخرت؟.

- أممكن ان تكون قد انشغلت في موسكو وبقيت هناك!.

- تمرضت؟.

- اجرى لها طارئ ما!.

وجاء جواب العقل وتفكيره ليطمِئنه ويهدئ من روعه:

- ولو لم تكن صادقة لم تعدك بذلك.

- ولم تكن مجبرة على الاشارة لذلك.

- وعلى كل حال وكما يقال فالغائب حجته معاه.

وقلبك ماذا يقول:

- احببتها، اتحبها...؟!.

تجمع الشباب الاربعة وحقائبهم ومعهم مسؤول العربة سوية، وفي الأثناء تقدمت فتاة متوسطة العمر وبيدها ورقة مكتوب بها اسمائهم إلى جانبهم وبعد ان تحدثت مع مسؤول العربة وتعرفت عليهم بالاسماء حييتهم لوصولهم إلى طاشقند واوضحت بانها قد قدمت لاستقبالهم، كانت تبدو فتاة متوسطة الطول متلحفة بمعطفها وحطة الرأس ينسدل شعرها الاسود مغطيا نصف جبينها، كحلتها ككحلة بنات الريف، رحبت بهم وبقدومهم إلى طاشقند وبابتسامتها لمعت بعضا من اسنانها الذهبية، تيقن وسام

بان موعودته لم تأتي بعد مقدم هذه الفتاة، تيبس وانكمش وكأن الحديث الذي يجري لا يعنيه ما حلاوة الحديث بغياب موعودة القلب، ما طعم ذلك، إذ لم تفِ بوعدها باستقبالهم لكي يراها وهو الذي وقف متسمرا عند نافذته في القطار لثلاث ليالي مؤملاً نفسه باللقاء.

كيف له الان اذن وهو لا يستطيع ان يسأل هذه الفتاة عنها وباي لغة يتحدث معها؟، ومن هي خاطفة قلبه وعقله، ويسائل نفسه:

- ما اسمها، ماهي اوصافها، أو من الممكن لا تعرفها، اليس هذا احراجا له ولها، أو أنها لا تريد ان تبوح بشيئ يولد لها الحرج فيما بعد، اليست هذه من اللياقة الادبية وانت الريفي ايها المخطوف، فكر بالموضوع مليا وقرر الصمت وعدم اثارة السؤال.

- ولتنتظر ما تخبيه الأيام ولاسيما انك قد قطعتَ كل هذه المسافات وخاطرت بنفسك وتركت الأهل والاحباب والاصدقاء والرفاق بعيدا عن الوطن وعن مفارز الامن أو الاعتقال، ومن اجل اكمال الدراسة، للدراسة ولا تضيع العمر كما اضعته مع جنان.

ومن رصيف القطار قادتهم الفتاة مع امتعتهم إلى مخرج المحطة حيث استقلوا باصا متوسط الحجم (زيل) مثل (دك النجف) ومقدمته تشبه ناقلة الجنود في زمن الحرب العالمية الثانية وسائقه بطاقيته (دوبي) وزيه الشعبي الاوزبكي. رغم اشعة الشمس وقت الضحى بنهاية شهر أيلول لكن الهواء فيه

لسعة برد وخصوصا عند غروب الشمس. اوصلوهم إلى مبنى مكون من اربعة طوابق على يمين الباب قطعة زجاجية باللون الاسود مكتوب فيها على ما يبدو اسم الكلية (فيما بعد عرفوا بكتابة القطعة مكتوبة باللغة الاوزبكية واللغة الروسية) وهي الكلية التحضيرية؛ لدراسة اللغة الروسية واعداد الطلبة للقبول في الكليات والجامعات حسب الاختصاصات، والبناية تطل واجهتها الكبيرة على شارع عريض يحمل اسم (بوغدان خملنيتسكي) احد القادة العسكرين الاوكرانيين ومن الخلف تطل على حديقة تمتد إلى نهر (الانخور)، والبناية على شكل حرف (يو) الانكليزية، وهي مصممة لمقاومة الهزات الارضية، في الطابق الأرضي ادارة الكلية وعمادتها وغرف المدرسين وقاعة المحاضرات والاجتماعات العامة ومختبرات الكيمياء والفيزياء واللغة الروسية وغرفة للطبيب وفي الطابق الثاني غرف المحاضرات والدروس لمجاميع الطلبة وقاعة الاستماع والتسجيلات لدروس اللغة الروسية وفي الطابق الثالث والرابع غرف الطلبة ومعيشتهم، القبو مخصص للمطعم وقاعات للرياضة، ومن وراء المبنى وجود ساحة داخلية كبيرة لكرة الطائرة والسلة وموقف الباصات.

اجريت للمجاميع الجديدة فحوص طبية أوليه من خلال الطبيبة الشركسية الجميلة المقيمة في الكلية بعدها تناولوا وجبة الغداء جميعا مع مجاميع أخرى من الطلبة ومجموعة من المدرسات والمدرسين في المطعم في القبو الذي هو في الطابق التحتاني، الاكلات روسية واوزبكية والاسعار رمزية، واستلموا

مخصصات المعيشة بحدود تسعين روبلا، وتم توزيعهم على المجاميع الدراسية وتعريفهم باساتذتهم من مدرسي ومدرسات الرياضيات والكيمياء والفيزياء واستاذة اللغة الروسية المسؤولة عنهم، اثناء التعارف انفردت به مدرسة الرياضيات وسألته للتأكيد عن بلده، بزهو اجابها شعرا للميعة عباس عمارة؛

بلادي ويملؤني الزهو اني لها انتمي وبها اتباهى
لان العراقة معنى العراق ويعني التبغدد عزا وجاها

لقد لمحها وادرك بانها لم تفهم ماذا قصده وما معنى كلماته.

فكررت سؤالها عليه:

- ايران.

اجابها:

- أنا من بابل من العراق من بغداد.

اجابته:

- اه فهمت بغداد، بغداد سبكوينا سبكوينا سبكوينا.

هنالك اغنية في فلم كوميديا سوفيتي (علاء الدين ومصباحه السحري)... سبكوينا معناها بغداد هادئة هادئة.

اجابها:

- ليس هذا يا استاذتي، العراق ارض ما بين النهرين دجلة والفرات، العراق مهد الحضارات المتعاقبة على مدى التأريخ؛ الحضارة السومرية والاكدية والبابلية والاشورية والكلدانية.

توقف باسترساله في التوضيح واحس بانها قد فهمت من أي بلد، وهو الشيئ الذي تريد تأكيده، وهو المطلوب اثباته.

لقد تم توزيعهم على غرف سكناهم ومعيشتهم حيث ان السكن مختلط طلاب وطالبات ومن مختلف البلدان، وبما ان الخريف في منتصفه وحلول فصل الشتاء البارد حيث درجات الحرارة المتدنية السالبة، فلابد من تجهيز الطلبة القادمين بالملابس الشتوية حيث اخذوهم في اليوم التالي للمخازن المخصصة للطلبة الاجانب (لكل حسب رغبته وحاجته)، حقا أنها الاشتراكية لك ما ترغب وتحتاج.

كان جدول الدراسة لمجموعة وسام مكثف ومركز حيث تأخرهم عن بداية الفصل الدراسي مقارنة مع مجاميع موفودي الدول الأخرى والذين بدأوا يتداولون اللغة، ومن كافة القارات من اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، من فيتنام ولاوس إلى بلغاريا واليونان ومن اليمن المغرب العربي ومن امريكا اللاتينية إلى جنوب افريقيا. وكان من المفروض ان يبدأ الفصل الدراسي في بداية الشهر التاسع أيلول/ سبتمبر، الامر الذي تطلب من مجموعة وسام الدراسة المستمرة، المحاضرات والدروس صباحا والاستماع في غرفة التسجيل بعد الغداء والمساء عمل الواجبات اليومية. ان الحرص الشديد والرعاية من قبل العمادة والمدرسين وتواجدهم حتى المساء مع الطالبات والطلاب والاهتمام بهم وعدم وجود فراغ على طول أيام الاسبوع ماعدا يوم الاحد واقامة الحفلات الترفيهية والخطابية والفنية كل ذلك حد من الشعور بالغربة أو الملل، ويصبح الهاجس الاوحد لدى الطالب نحو الدراسة وتعلم اللغة الروسية بالسرعة الممكنة لكى يتحضروا ويستعدوا لدخول الكليات باختصاصاتهم.

اضافة إلى ما يقدمه الكادر التدريسي من المدرسين والمدرسات من مساعدات للطلبة الاجانب، يساعدون الطلبة في تنمية المواهب والهوايات والامكانيات للطلبة حيث يشجعونهم في المشاركة باقامة المعارض والحفلات الفنية بالمناسبات المختلفة حيث يسعى الاساتذة بدعم هذه النشاطات لدى الطلبة، فبهذا لا مكان للشعور اوالاحساس بالضيجة أو بالغربة والملل، حيث كانت لوسام امكانيات فنية ابداعية من التصوير والخط وبدايات كتابة الشعر وحتى الغناء ومفاهيم عامة وقراءات بسيطة في السياسة والاقتصاد والاداب من فترة دراسته الجامعية ونشاطه الحزبي بعد ادائه الخدمة العسكرية، وتربيته الدينية وتنشئته الريفية وخلقه وطيبته وكلامه الودي الصادق وتواضعه وهمته وشهامته ومساعدته، الامر الذي جعل له نوافذ جذب مفتوحة للحديث والاختلاط ويجعله وجها محبوبا للاخرين.

الامر الذي انفردت به مدرسة الرياضيات زويا بانها تكن له بعض المحبة والود (اسميه ما شئت) حيث وصلت العلاقة إلى ان يجلسا سوية أو مع باقي المدرسات على طاولة الطعام عند فترة الغداء وبالرغم من المامه البسيط جدا باللغة الروسية الا انهم يخوضون النقاش ويتبادلون اطراف الحديث المتشعب عن الوطن والتأريخ والفن بمزيج من الكلمات؛ انكليزية وروسية واوزبكية وعربية.

زويا اوزبكية القومية سوفيتية بجينات عربية من مدينة سمرقند، وهي سكرقند، قند قند، نعم أنها تشبه قنده (كانها حبة مقسومة منها)، اتكون اختها الصغرى، أم ابنتها الكبرى، وحقاُ ان

الله يخلق من الشبه اربعين ومن الارجح سبعة، هي قندة ياربي؛ بخصرها بانوثتها بشعرها، بعينيها الجميلتين، بحركاتها، بغنجها، وفي الحصة عندما تقف عند السبورة لتشرح درس الرياضيات وعند تناولها للاعداد مثنى وثلاث ورباع والنطق بنهاياتها وخصوصا نهاية كلمة "العدد" باللغة الروسية "تسفرا" يهتز ويموج نهداها تناغماً مع حركة جسدها الجميل وانوثتها تثير وسام وهو الجالس في المقعد الامامي كالناظور، فتتقاطع هندسته التحليلية بهندستها المجسمة وتتلاقى نظراتهما فتختلط الارقام والاعداد فتغمض العيون للحظات وتنجيه رباطته الريفيه، ويفهم بعضهما البعض، وتعلو الابتسامة ثغرها الجميل.

ويحس بان ارضية الصف تهتز من تحتها عند نطقها الكلمات وحركتها وكتابتها الارقام، ويقول بنفسه:

- يا حبذا لو تسمحي لي ان اقوم بمساعدتك يا عزيزتي بمسح السبورة كما كنا اطفالا في المدرسة نقوم بمساعدة معلمنا.

ويهيم مع قصائد للنواب:

يغنيده أمس
ياحلوة الحلوات صار العمر طوفة طين
وغفينه ولكينه الدرب والسماك وقمرالدين
نتختل وره النسوان والشياب
واندك المحلة الحلوة باب إباب
يا أول جرس أرعن نتل فرحة وكاحتنه
كبرنة أسنين

يا أول جرس انتلني... انتلني.

في احدى الحفلات الفنية اعطته زويا قصيدة شعر مغناة اجبر نفسه بحفظ القصيدة في نفس الليلة وفي اليوم الثاني القاها في الحفل الفني على المسرح في قاعة الكلية نالت استحسان الحاضرين وبالاخص منهم المدرسات وباجمل اداء كانه العندليب الاسمر عبد الحليم حافظ أو باجمل القاء كانه الشاعر نزار قباني حينما تجرأ واشار بيده إلى استاذة الرياضيات زويا بانها هي الفتاة التي سلبت عقله وكسرت قلبه وفجأة ضج الحفل بالضحك وبالتصفيق طلبوا منه اعادة الالقاء وكلماتها تقول؛

اخ من هذه الفتاة
سلبت عقلي
وكسرت قلبي
واخذت مستقري
انا احببتها
سوية معها الحب
كالهلال حاجبها
على الخد شامة
والحب في العيون
اخ من هذه الفتاة
انا اضعتها
سوية معها الحب
على الخد شامة
والحب في العيون

كان وسام يساعد مدرسة الرياضيات زويا في اعداد النشرة الجدارية واخراجها من الكتابة والخط والتخطيط يجلس وسام باخراج هذه النشرة كانت الجلسات تطول حتى المساء، ومناسبة أخرى للقاء، حيث عند الغداء يجتمعون عند طاولة واحدة، يتجاذبون اطراف الحديث، ضحكتها الحلوة الجميلة بسمتها الرقيقة طيبتها، يحدثها عن الوطن والاهل والنظام، تنجذب لحديثه تتفاعل بردود فعل مرسومة على تعابير وجهها، حيث تتضامن بود معه، تضع يدها على يديه، يقبل يداها. يناشدها بعيونه ويقول بنفسه:

- اني أحببت فتاة منكم، نعم في خدها شامة، سلبت عقلي وكسرت قلبي ووعدتني بالاستقبال ولم تأتي.

- احلفك باسلامك بضحكتك الجميلة اتعرفينها من تكون.

يلتقون لقاءات متقطعة وحسب وجودها في الحصة الدراسية أو عندما يحين دورها في الخفارة المسائية في القاعة في الطابق الأرضي.

طبعا وخلال تعارفهما قدمت اسمها لوسام موضحة:

- لقد اختار أبي هذا الاسم تيمُناً باسم البطلة (البارتيزان) النصيرة السوفياتية زويا كوسموديمانسكايا والتي اسماها النازيون الالمان؛ مشعلة الحرائق، شنقوها في ١٩٤١ وهي شابة بعمر ناهز ١٨ عاما.

مرت بعض الاسابيع على تواجدهم في الكلية التحضيرية وقد انتظمت دراستهم وجدولهم وتعرفوا على كل الكادر التدريسي والادارة وغرف الدراسة والمختبر واستقر وضعهم

الدراسي والمعيشي واخذوا يتكلمون ببعض الجمل في اللغة الروسية، واخذ الطلبة يتمشون بعض الوقت بعد انتهاء الحصص يتسوقون ويشترون بعض الحاجيات من المخازن المجاورة بل يذهبون إلى السوق الشعبي الغني بما تشتهي وبما لذ وطاب للانفس من المأكولات الاوزبكية والمخللات والخضرة والفواكة المتنوعة، وكان وسام يخرج منفردا أو مع الاصدقاء للمخزن المجاور في فترة استراحة الظهيرة وبحجة شرب العصير يضمئ نظره على البائعة (آللا) الفتاة الجميلة.

وما ان تراه قادما حتى تسارع وعن عمد مرخية زرار قميصها الأبيض لتظهر بما وهبها الله من تصويره، عن عقيق ومرجان، عن نهدين كانهما الرمان؛ رمانتين فراتيتين كربلائيتين تكادا ان تتصدع قشرتهما من النضوج والامتلاء والرواء بظهور حبيباتها الزمردية المملؤة بعصير الجنة، (آللا) شابة في بداية العشرين طويلة زرقاء العيون، البسمة والضحكة لا تفارقها طالما هي تعمل في المخزن، شفتاها العسل اليمني ورحيق الورد الجوري وشعرها الاشقرالغامق يفك اسره من ربطته، آللا من اب الماني وام اوكرانية، ابوها من الاسرى الالمان أُرسلوا إلى جمهوريات الاتحاد السوفياتي في الجنوب بعد ان شاركوا في بناء المترو، (والله يرحمك ستالين على هذه العملة) وقسم منهم استوطن في طشقند.

خلال هذه الفترة من تواجده في الكلية التحضيرية؛ يقف وسام عند نافذة غرفتهم المطلة على باحة الكلية الخلفية ما بين العصر والمغرب يحتسي الشاي وينفث بسيجارته ويتطلع إلى

البيـوت ذات السـطوح القرميديـة الحمـراء والحمـراء الغامقـة وساحاتها الوسطية المشجرة، تحيطها أشجار وشجيرات مزهرة متنوعة مثل أشجار جينار واشجار الماغنوليا الفائقة الجمال وزهورها البديعة ذات رائحة طيبة قوية ولحاء ساقها يفرز رائحة مستحبة، وقسم من الاشجار بدأت تكشف عن سيقانها البيض واغصانها يوم بعد يوم، ولازالت الأوراق ما بين المتساقط والمنتظر المتعلق ما بين الاخضر والبني والاصفر والوردي والوردي الأبيض والارجواني تتكيف مع الصقيع، وتسمى هذه الظاهرة بألوان الخريف، تذكره هذه الألوان بلون ثوب الحبيب الأول، اللون الوردي وازهار صغيرة بيضاء حينما أول مرة التقاها وبيدها الكتاب ووقعت عيناه بعينيها ودخلت عقله وقلبه، ومن ذلك اليوم وكلما فتح وقرأ كتاب شرد وهام تفكيره بها حتى اكماله المدرسة.

وما ان يحل وقت ما قبل الغروب تبدأ مواقد البيوت تنث عبر مداخنها بدخانها الأبيض يعلو إلى سماء زرقاء صافية مع قرصة البرد تحمله إلى مدينته التي سوف يعود لها الشتاء، يتذكر تدفئتهم (الصوبة) مدفأة علاء الدين النفطية، ولمتهم ولمة العوائل الفقيرة حول مواقدهم "منقلة" الفحم وطيب الشاي والقند والشاي من يد امه أو من يد قندة عندما كان يحل ضيفا هو وجده عندهم في الريف، أو فيما بعد في بيوت الرفاق حينما ينتهوا من الاجتماع ويبقى هو يتعلل مع رفيقه المعلم سكران مرهج في بيته عند محطة القطار.

يستغرق الوقوف عند نافذته طويلا، يراقب الأجواء يتأمل ويتألم ويغوص في التفكير يسائل يتكلم مع نفسه؛ لقد رحل جده ورحلت جدته وماذا حل بوالده، هل جرجروه الامن العامة إلى دوائرهم وهو الذي لا يعرف عن ابنه شيئا بعد انتهاء خدمته العسكرية الالزامية حيث كان يتخفى بين المدن، وربما قد اضطره لتقديم البراءة من ولده، كيف وضع والدته وحالتها الصحية، والدته التي تعبت من الكد والشقاء في مواصلة تربيتهم جميعا، وحال اخواته، هل اتصلوا جماعته بالوالدة لكي يبلغوها بوصول ابنها وسام بسلام، يجب عليه ان يبحث عن طريقة أخرى للاتصال بهم.

أما كان بالامكان ان يبقَ في العراق ان يكون راعيا لمعيشة اهله جميعا وهو الان قد اصبح بمثابة الاب لهم، وان يكون بالقرب منهم وان يبنى له مستقبلا كبقية الناس وكبقية زملائه الخريجين في ايجاد عمل مناسب ولاسيما قد انهى دراسته الجامعية وادى الخدمة العسكرية، حيث الغالبية منهم عُينوا بعد التخرج في مؤسسات الدولة ووزاراتها وبنوا البيوت وتزوجوا وكونوا عائلاتهم واطفالهم ومستقبلهم أي (حشر مع الناس عيد)!، ما هو وضع جنان وما هي اخبارها، حيث أنها الان على وشك التخرج من الكلية، وبعدها التعيين في دوائر الدولة الحكومية وربما خطوبتها وربما الزواج.. لا يعلم، هي امله وحبه الأول وهي بقلبه وروحه، اتعلم هي، ايخطر على بالها، هل تفكر فيه الان مثلما هو يفكر فيها حتى الوقت الحاضر.. (لا خبر لا جفية لا حامض حلو لا شربت).

وما أخبار خالته زهرة أمه الثانية والتي حملته كثيرا على ظهرها وهو طفلا فوق سطح بيتهم العتيق صباحا وقبل الغروب لكي يشاهد سيارة أبيه في الفسحة التي خلف البيوت، كانت أمراة واعية حكيمة مناضلة تحب الخير وتساعد المحتاجين من النساء الفقيرات. هل لازالت رسوم حمامات السلام منقوشة على جدران صحن بيتها العتيق والتي رسموها من أيام المدرسة بفترة انصار السلام في جمهورية ١٤ تموز ١٩٥٨. يحب الاستماع إلى احاديثها المشوقة حول خاله سيد جابر وزيارتها له في السجون وعن رفاقه المناضلين.

لقد قصت له عن المواقف المحرجة التي تعرضت لها انذاك؛ أي ذات يوم وعند تتبع وتفتيش دوريات الشرطة في محطة القطار في قضاء السدة (سدة الهندية) وكيفية تخلصها من الدورية بهدوء والسيطرة على الاعصاب، حيث لمحت قبل توقف القطار تجمعاً للشرطة عند رصيف المحطة وبحدسها تيقنت بوجود مداهمة سوف تحصل فاذا بها وبسرعة البرق تخرج المنشورات وتضعها في (باكيت) علبة الحذاء والبست الخال الحذاء الجديد وتركته ينتقل إلى العربات الأخرى، وبحركة سريعة تداخلت مع النسوة ونزلت من العربة قبل صعود الشرطة وخرجت من المحطة وتوارت عن انظارهم.

ياخذه تفكيره إلى أصدقائه الجنود الذين تركهم في المعسكر؛ ما اخبارهم، كيف الوصول إليهم، من الذي يعلم أين حل بهم الأمر وقد مضى عليهم اكثر من سنة ونصف على فترة اعتقالهم ومنذ ان انهى خدمته العسكرية؟!، خنقته العبرة وخرت دمعات

عينيه ثقيلة ساخنة على خدية، تذوقها بطرف لسانه فوجدها مرة المذاق.. واخذ يردد قصيدة بجيتك للشاعر ناظم السماوي:

بجيتك يا قصيدة ليل
وهنياله البجه بعينه
يعكدة شوف ما تنفل
بجيتك مو بجي البطران
مثل بجي الكصب لو حن على المنجل
بجيتك ياشبج صايود
حلو خيطك يفاله وابد ما تبخل
بجيتك والدهر طشنه
مثل طش الغريب ال ما بعد ينـدل
بجيتك والمن نعاتب
حلاة العتب لو صار العتب مكبل
نعيتك نعي الكولات
ياسركي التفك ياجيلة ما تنـذل

ظل يفكر بما اخبره زميله السوداني في الغرفة:

- لقد افزعتني وافزعت الاخرين في الليل الفائت وقبله اكثر من مرتين خلال هذه الفترة.

واردف:

- لا اعرف مالذي اصابك اهو حلم أو كابوس لا اعرف، وكما يقال عندنا في السودان بانك غير مرتاح في نومك يا زول.

حاول ان يتذكر وسام الكابوس الذي طرق رأسه من جملة الكوابيس الأخرى، وشكر صديقه موضحا له:

- نعم، لا اعرف أهو ذات الكابوس الذي ادمغني أم غيره؛ إذ داهم رجال الامن وحاصروا البيت ولم استطع الافلات منهم الا انني قفزت من فوق ستارة السطح لبيت خالتي الملاصق لبيتنا ومن البيت هربت إلى ماكنة الطحين المجاورة ومنها افلتُّ منهم متوجها إلى الحلة وامسيت اجول متهجولا بين البيوت، فاصبحت الصباح فاذا بجسدي وظهري يؤلماني...

وإذ هو بهذا التفكير فجأة يدخل اصدقاؤه الغرفة، لقد داهمه الوقت وحل الظلام في الباحة وفي الحدائق المجاورة ولم يتبق له من الوقت ولينصرف ويسارع إلى عمل واجباته ودروسه اليومية.

بعد مرور اسبوعين زاره الرفيق (سمير مهدي) من المعهد الزراعي برفقة (عبد المسيح) رفيق من سوريا، ورحب سمير باجمل الترحيب والتهنئة على سلامة الوصول وتمنى حسن الاقامة في طاشقند والتفوق العلمي والعودة للوطن، وهو الشعار المركزي لرابطة الطلبة العراقيين في الاتحاد السوفياتي، وعبر أيضا عن سعادته بالتحاقه لزيادة عدد زملاء الرابطة، وقد استعرض له وضعية الطلبة المتواجدين في الرابطة، وقد تعرف عليهم فيما بعد، حيث اصبح عددهم اربعة طلاب وهم كل من الزملاء ناجي من النجف وعبد الرحيم العيفاري من الطهمازية بابل وهو عنصر خامل لا يحرك ساكنا حيث كان فيما سبق عنصرا نشطا في مدينته أيام المدرسة الاعدادية، ودكتور فؤاد من مدينة السليمانية انهى دراسة الاقتصاد، إنسان هادئ جميل اربعيني له بعض الشيئ من ملامح الممثل الفرنسي آلان ديلون،

وقد شارك فؤاد في الاغاثة لمنكوبي الزلزال المدمر الذي تعرضت له طاشقند في ١٩٦٦ بقوة ٦ درجات بمقياس ريختر، وتثمينا لمشاركته كافأته لجنة الحزب في اوزبكستان بمنحه شقة سكنية، ولم يتذكر وسام يوما بانه قد استضاف الزملاء وبعد اقل من عام غاب ولم يظهر على ساحة طاشقند، سيروان – معهد الطب ومن اقرباء فؤاد، وكذلك كاظم الرماح مناضل قديم من كربلاء في معهد الطب أيضا من جيل اواخر الاربعينيات وهؤلاء الثلاثة من اقدم الطلبة العراقيين في طاشقند، وابو بكر عبد الله – معهد الهندسة، ليست له ميول حزبية بل ميولا تجارية (شاطرمتمرس بالتجارة بهدوء) تارة يدعي انه من الحزب الديمقراطي الكردستاني وتارة أخرى من الاتحاد الوطني الكردستاني (وين ما ملتي غرفتي) والده من كبار التجار (القنطرجية) في السليمانية، وفاضل شريف قلي الطيب الهادئ من محلة الفضل في بغداد وهو من القدامى الذين يعملون في مجال الترجمة في اوزبكستان انتقل إلى خاركوف ومن ثم إلى موسكو وحل محله بعد عام المترجم محمد قاسم وللصدفة في نفس الشقة، وعراقي أخر اسمه حسين من بغداد خريج مدرسة صناعية يعمل في احد المصانع في طاشقند ويدرس الميكانيك في المعهد مساءا لم تكن ميوله معروفة ومتزوج من ارمنية تعمل في الاذاعة (راديو) باللغة العربية، انحاز فيما بعد إلى جهة الطلاب البعثيين.

فرح وسام لهذا اللقاء بالاخ سمير واعتبره اهتماماً من قبل الحزب لاعضائه، وشكرهم على الزيارة هذه والتشرف بمعرفتهم،

وابلغه سمير أيضا وعلى انفراد سوف تكون لنا جلسة تعارف في نهاية الاسبوع وسوف نوزع المهام التي يستوجب منا ان ننهض بها في هذه الجمهورية. منذ الوهلة الأولى دخل سمير قلبه وذلك لاحساسه بان سمير شاب طيب مؤدب متواضع بسيط حريص، وبهذا ازداد وسام فخرا بان للحزب هكذا من الابناء بهم (رفعة الرأس)، تركز العمل والنشاط الحزبي فيما بعد عليهما تارة عليه وتارة على سمير.

استمر وسام بمواضبته لتعلم اللغة، يحضر الدرس ويستمع إلى درس التسجيلات الصوتية ويحل الواجب اليومي، يقضي بعض الوقت مساءا في القاعة يشاهد التلفاز بمتعة وفي المكتبة يقلب الكتب والمجلات، ويساعد المدرسة روزا في بعض التخطيطات على الكارتون وكتابة الاعلانات باللغة العربية والروسية واصبح خطاطا جيدا يستعمل خبرته في الرسم الهندسي الذي كان بارعا فيه منذ دراسته وعمله في المكتب الهندسي في بغداد ولا يتردد حينما تلتجئ اليه المدرسات في الكلية عند الطلب اوحاجتهم لبعض التخطيطات. بهذا النشاط ساعده الابتعاد بعض الشيئ عن الشعور بالغربة أو الكآبة والملل، ازدادت معرفته بالطلبة العرب في الكلية التحضيرية جراء المناقشات واللقاءات معهم وخمن ميولهم الفكرية وتوجهاتهم وانتماءاتهم الحزبية من مبعوثي الدولة أو المنظمات المختلفة وكون علاقات ودية معهم.

وكان ينتظر بلهفة لدقة الجرس لفترة الظهر ليهرع (على حس الطبل خفن يا رجلي) وبحجة عصير(اللآ) يكحل عينيه بزرقة

عيونها وحمرة شفتيها ومفاتن ما تظهره شيطنة فتحة قميصها ومنحنيات جسمها ذي الطيات الممتلئة وليحدثها بكلمات يتمنطق فيها قد حفظها توا من الدرس وهي تتامل فيه بضحكتها الجميلة تهز برأسها دلالة على فهمها كلماته، وماهي الا دقائق معدودات تتبخر بسرعة، يودعها بامل لقاء بعد سويعات، ليحضر درس الاستماع للغة لفترة العصر، وهكذا كل يوم يتكرر اللقاء ظهرا واجمله عند الغروب، والاجمل منه مفردات وكلمات لفظ شفتيها يمرق ويدغدغ سمعه كنغمة عذبة ناعمة تروي حر مهجته والروح.

بعد زيارة الاخ سمير للكلية التحضيرية بادر وسام بزيارته إلى معهد الزراعة بعد ان جمع وحفظ خزيناً من الكلمات خلال هذه الفترة من دراسته تؤهله إلى ان يتفاهم ويفهمه الاخرون بعض الشيئ وتشجع بالخروج إلى مركز المدينة واستعماله وسائط النقل المختلفة ومن هناك إلى المعهد الزراعي خارج المدينة، وتكرر ذلك لعدة مرات وحصلت جلسة التعارف على الطلبة العراقيين، ومن ثم القادمين من الجدد بعد استقبالهم في نفس محطة القطار، المكان الذي لا يعرف سر دقات قلبه تتسارع عند الاقتراب من المحطة وسر ارتياحه لها، اهو حبه للقطار الذي كان يسافر فيه مع جده لبغداد وفيه ذكريات عزيزة عليه أيام طفولته وصباه، أم هو المكان الذي كان من المؤمل ان يكون فيه موعد والامل بلقاء منتظر، بان تستقبلهم حبيبة القلب وسارقة العقل، كما بثقة وعدت وباصرار تعهدت باللقاء منذ ان ودعتهم في موسكو، وما زال مهموماً ينتظرها.

بعد فترة من الزيارات المتعاقبة في أخر الاسبوع تمت الاجتماعات ووزعوا المهام الحزبية بينهم ورسموا النشاط اللاحق بين المنظمات الطلابية والحزبية الرسمية وغيرها من البلدان العربية والاجنبية والسوفياتية وذلك من خلال اللقاءات والزيارات والاجتماعات وشرح سياسة الحزب واقامة شتى العلاقات الرفاقية وتعزيزها سواء ذلك من خلال نشاط رابطة الطلبة العراقيين أو من خلال منظمة الحزب ويتبادلون الادوار، من اللقاءات مع الاصدقاء والمعارف من الطلبة العرب بزيارتهم في مكان سكنهم أو للاجتماع مع الزملاء والرفاق.

في بعض الأحيان كانوا يرتادون مع المقربين إلى مطعم القبب الزرقاء في مركز المدينة حيث تقدم فية اشهر الاكلات الاوزبكية الشعبية ومنها (البلوف الاوزبكي، الشاشليك)، مكان جميل بوسط الحديقة الثرية بالاشجار من الياس والزهور ونافورات الماء المكسية بقطع السيراميك الأزرق والسمائي المزجج تحيط بالمكان تكسبه أجواء طيبة لطيفة جميلة، وبجلوسه مع المقربين من الاصدقاء كان يحس بالهدوء وتحسن المزاج حيث الماء والخضراء والوجه الحسن، وان هذه اللقاءات تخفف عنه بعضا من الضيق وتشاغله عن التفكير بالاهل، بأمه، باخوته باصدقائه والبعد عن مدينته ورفاقه والوطن وما يجري فيه على الصعيد السياسي.

استمر بنشاطه بين صفوف طلبة البلدان العربية والاجنبية وعلاقاته المتميزة ساعدته في ذلك لغته الجيدة واسلوبه؛ هو من جانب الجامعة وسمير من جانب المعهد الزراعي، وفي جانب

بناء العلاقات مع المنظمات العربية قد واجه بعض الصعوبات، إذ يعتمد على وعي وثقافة الطالب واهتماماته، فمنهم القليل من يمتلك الخبرة بالعمل السياسي والتنظيمي ومنهم من يتمركز اهتمامه بالرياضة وكرة القدم ولا يهمه إذ الدنيا شرقت أم غربت أو إذا كانت دعوة على جلسة في مطعم وشراب فينسى الدنيا كلها. وكذلك الحال عند الطلبة الاجانب ما عدا المنتمين حزبيا أو في كليات الاختصاص حيث بنى علاقات طيبة مع طلبة الجامعة وخصوصا مع صديقه كوركيس وهو من الشيوعيين اليونانيين حيث كان يدرس الفلسفة، العمل كان مع اكثرية الطلبة اليمنيين وخصوصا من الجنوب اليمني كانوا اكثر تفهما وعلاقات متينة وكذلك مع بعض المنظمات الفلسطينية من كل الفصائل لمنظمة التحرير وخصوصا من المخيمات في لبنان وسوريا ومن الاردن، حيث ارسلت اعداد كبيرة من الفلسطينيين للدراسة، فكانت تقام الاجتماعات والحوارات والامسيات في المناسبات الوطنية ويوم الأرض.

كان بعض الطلبة الفلسطينيين قد جلبوا قصائد مسجلة على اشرطة (الكاسيتات) للشاعر العراقي الكبير مظفر النواب؛ قصيدة البراءة والقدس عروس عروبتكم والتي كانت شائعة الانتشار بين صفوف الطلبة لانها كانت من الممنوعات فقد حفظها ويلقيها بشكل جميل بتحسسه لألم النواب:

القدس.. عروس عروبتكم
فلماذا ادخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها
ووقفتم تستمعون وراء الباب لصرخات بكارتها

وسحبتم كل خناجركم وتنافختم شرفا
وصرختم فيها ان تسكت صونا للعرض
فما اشرفكم.

الصعوبة التي يواجهها وسام كانت مع بعض طلبة المغرب العربي والجزائر فاهتمامهم في كرة القدم يعلو على كل الاهتمامات السياسية وهنالك ضعف بلغتهم العربية، وللبعض الأخر من الطلبة العرب له اهتماماته؛ من يعمل بالتجارة والتصريف في السوق السوداء. ورغم هذه الحواجز يشعر بالارتياح والانشراح للقيام بهذا النشاط واكتساب الخبرة بالعمل وسط هذه المنظمات الطلابية.

يؤكد وسام وحسب تصوره بانه لم ولن يستطيع ان يكون تاجرا أو صاحب دكان في يوم من الأيام ويسائل نفسه:

- كيف إذا جائني اطفال فقراء أو امرأة فقيرة يطلبون شيئاً معيناً؛ كيف لي ان اجيبهم، وكيف لي ان لا اساعدهم.

ويستأنف:

- من الممكن خلال اسبوع اوزع المعروض في الدكان على المحتاجين واقفل الدكان، لذا لم ولن امارس مهنة التجارة بتاتا. فكيف لهؤلاء الطلبة يتاجرون ويبيعون ويتعاملون في شراء وبيع العملة في السوق السوداء وهي ممنوعة من قبل السلطات من العمل والتداول بها.

يقضي طيلة الوقت في اعداد دروسه وعلى احسن وجه طيلة الاسبوع في الكلية التحضيرية ويتخلل ذلك الاستراحة بعض الشيئ وتفحص الجريدة والمجلات، وقت الظهر يشرب

العصيرعند (آلا) ويتسوق من المخزن المجاور، او الاستماع للاخبار ومشاهدة التلفاز او مساعدة الحارس البواب ذي الاسنان الذهبية والجلوس في مكانه لبعض الوقت عند تناوله طعامه أو لقضاء حاجته.

ذات مرة وبعد تناولهم الغداء في مطعمهم في القبو، رجته مدرسة الرياضيات (زويا) لمساعدتها في اعداد بعض التخطيطات بمناسبة ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والتي تصادف ٧ نوفمبر حيث تكون عطلة رسمية يحتفل بها الاتحاد السوفياتي، تركته في غرفة العمادة لجلب الأقلام والاوراق وهو للمرة الثانية يدخل فيها فوجد امامه لوحة اعلانات وصورعن الكلية التحضيرية عند مكتب سكرتيرة العميد الكلية، وإذ بنظره يقع على صورة المدرسات تتوسطهم حبيبة القلب هي بذاتها ذات القوام فيهتز ويرتجف كل بدنه وينتصب للوراء فاتحاً بوسع حدقات عينيه ويمركز نظره في الصورة كانه المجوهراتي يتفحص ويدقق جوهرته، أنها هي بثغرها بطولها بشعرها بملبسها هي.. هي نفسها... لقيتها ولست القاها.

هرع إلى غرفة (زويا) كالمجنون قد جن جنونه، وكالطير الملدوغ يرفرف بجناحيه من شدة الالم يناديها للمجيئ للمكتب، وهي فزعة مرتبكة تتساءل:

- مالذي جرى لوسام مالذي حدث له، هل طلبوها بالهاتف، هل انكسر شيء ما في غرفة العمادة لا تعلم!.

دخلت المكتب مذعورة وقد اقلقها ارتباكه وهياجه وثورته.. وهو ينظر للصورة محدقا ينظر الى (زويا) وعيونه وقفت في الحق

لا يعرف ما يقول وماذا يسئل.. اتصدقه إذا اسرها.. ايفتضح سره وسرها.. توهجت حرارة جبهته ووجه كانهما التنور.. اقتربوا من لوحة الاعلان سألها مشيراً للصورة باصبعه:

- من تكون هذه الفتاة هي بعينها من تكون... أين هي الان؟.

خمنت زويا وحزرت بل تيقنت بان القصة مصدر صدق وهذه اللحظات هي الصدفة الحقيقية... لا تريد ان تزيده عذابا.. وضعت يدها على يديه بحرارة ارادت ان يطمئن لها بعض الشيئ، توقفت للحظات قائلة:

- اعرف كل شيء وعلمت قبل يومين ولم أفلح بكيفية مفاتحتك بالموضوع.

ثم اوضحت له:

- لا تحزن، مهلا مهلا، فعلي الان ان اخبرك بالامانة التي اوصلوها لي، وكان علي ان اخبرك بها يوم الاحد الماضي ولكن لم اجدك في الكلية واجلتها إلى يوم خفارتي لازف الخبر إليك... اخبرتني صديقتنا الأخرى سونيا مدرسة اللغة يوم السبت وكانت حينذاك في زيارة لموسكو سوية مع سفيتلانا في فندق الكومسمول لاستقبال الطلبة الجدد بتكليف من وزارة التعليم؛ حيث بعد توديعكم في محطة القطار في موسكو انزلقت سفيتلانا ووقعت على الأرض وتورم ساقها ونقلوها إلى المستشفى ومكثت مدة لابأس بها وبعد خروجها من المستشفى التحقت مباشرة بعملها الجديد في احدى الدول الافريقية بعقد مدته سنتين، وقتها لم تستطع السفر الى طشقند وحالت ظروف طارئة لم تتمكن من الافصاح عنها، بل اوصت في حينها صديقتنا

سونيا ان تنقل لي توصيتها؛ متأسفة جدا حيث لم يحالفها الحظ في السفر في اليوم التالي إلى طشقند لكي تكون في الاستقبال كما تعهدت لكم وكما تمنت لتكن مفاجاة لك.

وكما أكدت سونيا تقول:

- الشيئ الاهم اوصت بالاهتمام بوسام وما يحتاجه من مساعدة، حيث وعدت وفي حالة الخروج من المستشفى سوف تسافر إلى طشقند.

ظل وسام طيلة الوقت يستمع لحديث زويا بانتباه، فاه فمه بين خجل وحرج وشوق الاستماع، يحلل يتحسس كل كلمة من كلماتها ويميل برأسه بايقاع مع حركات رأسها وعيونه تفترس عيونها.

استعرضت زويا الأمانة والوصية واضافت تقول:

- ان سونيا هي الأخرى حينها كانت في اجازة مرضية طارئة ولم تستطع توصيل ما طلبته منها سفيتلانا بعد وصولكم إلى طشقند، تبا لها.

وختمت الأمانة قائلة:

- وسوف اوافيك بما امتلكه من اخبارها حين المراسلة اوالاتصال فنحن قريبات في صداقتنا واسرارنا سوية. تنهد وسام بعمق وارتسمت بشاشة على وجهه وتوهج بريق عينيه وتبسمت زويا في الوقت ذاته واحست بانها قد ادخلت على قلبه الفرحة والسرور كمثل حصول الطالب على نتيجة الامتحان ونيله شهادة النجاح بتفوق بعد تحسب وقلق وانتظار طويل أو كطير يرفرف بجناحيه فرحا للتو يستعرض مقدرته على الطيران.

كم كان واثقا، لقد صدقت لغة العيون، بل وازداد ثقة بنفسه وباللقاء القريب.

اوضحت زويا لوسام فيما بعد:

- بان هذا هو مكتب سفيتلانا وكانت أيضا تناط بها بعض الحصص لتدريس اللغة للطلبة عندما يكون هنالك زخم على الكلية عند قدوم اعداد من الطلبة الاجانب المتأخرين بداية الفصل الدراسي لامور تتعلق بالحصول على التأشيرة من بلدانهم أو من بلد أخر اضافة إلى تأخير التسفيرات، وهي تتكلم باكثر من لغة وتتقن اللغة الانكليزية بطلاقة ولكونها خريجة كلية الاداب، محبوبة في الكلية وتربطها بعلاقات طيبة ودية مع الكادر التدريسي في الكلية وانسانة رائعة طيبة، وهي صديقتي القريبة والمحبوبة وصديقة سونيا.

كلام زويا بهذه الاضافات زاده سرورا ونشوة، كمعلومة وتزكية اضافية لقناعته بهذه الإنسانة والتي من اللحظة الأولى دخلت قلبه، أم هو الحب من أول نظرة!.

انهى بعض التخطيطات واجل القسم الأخر لليوم التالي حيث هنالك الوقت الكافي لحلول الذكرى يستطيع ان ينهي هذا العمل. إذ اعدت العمادة برنامجا مكرسا لهذه المناسبة المهمة، انهى جميع ما كلفته زويا به وكانوا على استعداد تام لهذه المناسبة.

في صباح يوم ٧ نوفمبر تشرين الثاني خرج الطلبة صباحا إلى مركزالمدينة للمشاركة في الاحتفال الكبير في ساحة لينين وجرى فيها استعراض عسكري وشعبي مهيب واستعرضت المؤسسات

والمعامل لاهم منجزاتها وبالاخص محصول القطن بشكل مبهج جميل شارك فيه ابطال الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية ومنهم كبار السن الذين كُرموا بالاوسمة والانواط التي زينت صدورهم، الرايات الحمر ترفرف وفيها شعار اتحاد العمال والفلاحين (المطرقة والمنجل) واعداد غفيرة رجالا ونساءا ومن جميع القوميات ومن الشباب والشابات والاطفال يحملون الازهار والورود.

ان ذكرى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والاتحاد السوفياتي عزيزة على قلب وسام ورفاقه في الحزب، حيث ان الثورة في ٢٥ من اكتوبر/ تشرين أول (التقويم القديم) و٧ نوفمبر/ تشرين ثاني حسب (التقويم الجديد) من عام ١٩١٧ قام بها البلاشفة بقيادة فلاديمير لينين وقائد الجيش الأحمر تروتسكي وجماهير الشغيلة والفلاحين بناءا على افكار الماركسية – اللينينية واقامة الدولة الاشتراكية التي اطاحت بالحكومة المؤقتة.

والثورة البلشفية هي تعبيرا عن عمق الازمات السياسية - الاقتصادية والاجتماعية التي عصف بروسيا القيصرية من جراء الاضطهاد السياسي والتسلط والقمع ورفض الاصلاح وانتشار الفساد في مفاصل الدولة والتي لم تستطع مواكبة التحولات التقنية التي شهدتها اوربا وامست بلدا فلاحيا تقليديا متخلفا خضع إلى هيمنة الاستثمار الاجنبي في ظل التناقضات الاجتماعية السائدة في الريف عموما ما بين الكولاك من النبلاء ورجالات الدين الذين يحتكرون ملكية الأرض وما بين عموم الفلاحين وصغارهم الذين يعانون البؤس والفقر والاستغلال

وثقل الضرائب، وفي المدن حيث كان العمال الكادحين يشكون من ضعف الاجور وطول ساعات العمل وغياب الضمانات الاجتماعية مما دفعهم في الانخراط في النضال السياسي وتنامي المعارضة والدعوة لقيام الثورة الاشتراكية بدأً بالاضرابات في المصانع والمعامل في بطرسبورغ ولاحقا في كافة مدن روسيا القيصرية إلى المظاهرات باتحاد من العمال والجنود تحت شعارات (كل السلطة للسوفيات).

في ٢٥ اكتوبر تمكن البلاشفة من الاستيلاء على المرافق الحكومية ومحطات السكك الحديدية ومكاتب البريد والتلغراف والكهرباء والمطابع والبنوك وتم الهجوم على القصر الشتوي للقيصر والاستيلاء عليه والقبض على وزراء الحكومة المؤقتة، واعلنت الحكومة الجديدة التي شكلها البلاشفة خروج روسيا من الحرب العالمية وتحقيق السلام، واصدار مراسيم بمصادرة اراضي كبار الاقطاعيين واعادتها للفلاحين ومصادرة معامل الرأسماليين وتحكم العمال في الانتاج واعلان حق الشعوب الامبراطورية الروسية بالانفصال، وتوجت ثورة اكتوبر بتأسيس الاتحاد السوفياتي والذي ناصر وساند الحركات الوطنية في العالم ومنها حركات التحرر الوطني العربية.

كان يوما رائعا جميلا، شاركت فيه جموع غفيرة من البشر من كل القوميات من العوائل والاطفال بأبهى حلة ورونق. وفي المساء وفي قاعة الكلية اقيم حفل مكرس لذكرى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى القيت كلمات العمادة بهذه المناسبة وبعدها عرض فلم مصور عن الاحداث التي جرت عشية الثورة في

بطرسبورغ. هنا تكمن ارادة الشعوب في الثورة والتغيير والاصلاح والقضاء على القمع والاضطهاد والاستعباد والفساد والظلم والجور والتخلف والجهل والاستغلال، بارادة العمال والفلاحين وتضحياتهم وحزب البلاشفة حققوا النصر وحققوا الرفاهية للشعب على الاصعدة كافة.

وكم اعطت هذه المناسبة حافزا نحو الاطلاع والقراءة الجيدة لتجربة اكتوبر في بناء الاقتصاد الاشتراكي والتخطيط والتصنيع والاصلاح الزراعي ومجانية التعليم والمساواة وغيرها من النجاحات والمنجزات واصبح الاتحاد السوفياتي قوة عالمية عظمى، ازداد فخرا وتمسكا بالحزب وبرفاقه وسياسته داخل الوطن وخارجه وبوجود هكذا أبناء للحزب.

احمر علمنه
احمر علمنه
به منجل وجاكوج
احمر علمنه
يخسأ اللي يضدنه
يخسأ اللي يضدنه
والحزب حي ما مات
يخسأ اللي يضدنه
سالم حزبنه
سالم حزبنه
ما همته الصدمات
سالم حزبنه

تساقطت اوراق الخريف وملأت الشوارع لكثرة الاشجار بشتى الألوان الاصفر والبني والبرتقالي، وبدأت البرودة تقص الظهور عند المساء وفي الصباح تلبس الاغصان حلة عرس بيضاء وعندما ينثر الثلج حبيباته تتزين بقلائد الكرستال والبلور تعكس الوان القزح وتزين للناظر بهجة للنفس، وتنذر بقرع أجراس الكنائس في التلفاز وبشائر بحلول عيد رأس السنة وسوف تُسطر السلطة السوفياتية على ما اتت به من نجاحات ومنجزات تقدم وازدهار تحققت لعموم الشعب السوفياتي بجمهورياته الاشتراكية السوفيتية.

في هذه الليلة تلتم العوائل ويتجمع الأقرباء والاصدقاء عند الموائد بالافراح تودع عامها القديم بما فيه وبالامال والتمنيات تستقبل عامها الجديد. عند التقائه بـ(آللا) دعته إلى استقبال ليلة رأس السنة مع عائلتها في بيتهم بالقرب من معهد الزراعه، اسرته تلك الدعوة مع هذه الانثى الهائجة واسرها بان يذهبوا سوية مع صديقه السوري الذي يتقن اللغة بشكلها الجيد وهو اقدم منه في المدينة، واليوم يومك ايها الريفي الصائم لوقت طويل، وهو بهذا اتخذ حذرا وحيطة ولا سيما ان بيتهم خارج المدينة.

بعد العصر التقى الجميع وبامتعتهم وبما قسم الله لهم بشرائها لهذه المناسبة، واستقلوا الباص إلى وجهتهم خارج المدينة وهي منطقة ريفية جميلة، البيوت فيها ما بين الروسية والاوزبكية وبوسع المكان، استقبلوهم بحسن الكرم والاستقبال، حيث اعدت الموائد الكبيرة بالمأكولات والمشروبات بانواعها الروسية والاوزبكية بحضور الاهل جميعا من الابناء والبنات

والاقرباء والاصدقاء وكانت آلا هي (المعزب) والمستضيفة للحفل.

جلس وسام بشواربه الستالينية متوسطا ما بينها وبين أبيها وصديقه السوري عبد المسيح وصديقته، وبدأ أبوها يقص عليه اياماً من الحرب ووسام يجامله ببعض الكلمات التي حفظها وان تعسر عليه فهم الكلمات يساعده عبد المسيح في ترجمتها، وبعد ان افرغ أبوها بعضا من الكؤوس في جوفه بعجل من قوارير مركزة من صنعه تسمى بـ(السمكون) كماكنة اصاب صماماتها التلف، واخذ يدب تأثيرها في عيون وسام، كان عليه ان يستمع لحديث أبيها وان يقاوم هذا السم الاسطوري الذي يجعل شاربه لا يقوى حتى على الجلوس طبيعيا، الا من اوتي شاربه بقوة جسمانية وعضلية سليمة، ولم ينقذ وسام وصديقه الا اقتراح (آلا) بالخروج من الطاولة إلى الفضاء للشارع لشم الهواء وغسيل الوجه والتمشى.

ليل القرية جميل رغم برودته، تعالت اصوات موسيقى واغاني روسية، وتراءت له من الجهة الأخرى للشارع البيوت الخشبية المتقاربة بانوارها النافذة من شبابيكها ومداخنها تنث بدخانها المتعالي كأنها عربات قطار يدوي ويدور من حولهم، وبدأ الثلج ينكث قطراته وذراته، القرية وسقوفها القرمدية والاشجار قد لبست اللون الأبيض والقمر ساطعا يعكس ضوءه في السواقي التي بدأت هي الأخرى تتجمد.

عاد إلى الطاولة بعد ان خرج إلى الشارع للتمشي ولكن الطاولة الان قد خلت من وجود الاب الذي قد عبَأَ رأس وسام

بحديث عن الحرب والاسر في هذه الليلة ولصعوبة فهم لغته ولهجته وسماعها من جراء اصوات الموسيقى الصاخبة وضوضاء الشباب الجالسين، من الظاهر انه اخذ استحقاقه بهذه الليلة مما رزق من الطعام و(السمكون) ما يكفيه لينام نومة اهل الكهف.

عاد وسام وصديقه وكانهم استعادوا واسترجعوا قوتهم وانتصبوا كانهم روادا جلساء اقوياء، جامل عبد المسيح اخوة واخوات (آلا) بحديث متفرق، وبادلوه الحديث عن طبيعة وظروف عملهم، يستمع لهم وكأنه يعد تقريرا عن العمل والعمال ليرسله إلى جريدتهم، دقوا الكؤوس مرات ومرات حتى الساعة ١٢ منتصف الليل بتوقيت طاشقند وتعالت الاصوات في التلفاز باستقبال العام الجديد، وفي الأثناء صدحت اغنية روسية راقصة غطت على حديثهم وسمعهم وقام بعضهم بدعوة الشابات للرقص وتناول الشباب ما اعد لهم من طعام وشراب، استمرت الحفلة إلى استقبال العام الجديد حسب فرق التوقيت ما بين موسكو وطشقند، وفي التلفاز حيث تدق اجراس الكرملين باستقبال العام الجديد والاستماع إلى كلمة الرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف باطيب التمنيات للشعب السوفياتي عموما بالمناسبة.

انتهت ليلة استقبال رأس السنة على خير والكل ذهب في نوم عميق، ونهض وسام من منامه في الصباح كالديك، لكنه لا يعرف وهو بليل البرد كيف احتضن الصدر الناهد الكاعب وكيف التفت الساق بالساق منادياً صديقه السوري بالنهوض وبفك الارتباط والالتصاق، اطعموهم الفطور بما لذ وطاب من

تحضيرات المساء من الاكلات الروسية والاوزبكية، يقول لصاحبه السوري؛ هذا ليس بفطور بل كصبحية العروس والعريس عندنا في ديارنا في العراق حيث يقدم لهم في الصباح صينية الفطور بعد دخلتهم.

ودعهم من في البيت الاب والام والاخوة مكررين دعوتهم للزيارة في أي وقت يحلو إليهم وودعتهم (آللا) متأبطة وساما إلى موقف الباص قبل الظهر متجهين إلى وليمة أخرى اعدها مسبقا الصديق كاظم الرماحي بيده ونفسه الطيبة الكربلائية، وبهذه الليلة وما قبلها وما وراءها قضى وسام احلى واجمل ليلة بحياته ذاق فيه طعم الدفء الانساني بدون ميعاد ومواعيد وبعد سنين من الصيام.

كانت هذه الفترة فترة نشاطات ولقاءات مع الطلبة العراقيين المتواجدين في المدينة حيث توسعت الرابطة وتوسع نشاطها والتي هي فرع من الرابطة في عموم جمهوريات الاتحاد السوفياتي مركزها موسكو، وتوسعت علاقات الرابطة ومنظمة الحزب في المدينة مع مختلف المنظمات الطلابية والحزبية العربية والاجنبية ومع مجلس سوفيت المدينة وعمادات المعاهد والكومسمول وكان لوسام والزميل سمير جهودهم الاستثنائية وعلاقاتهم المميزة رغم الصعوبات والاحراجات التي يواجهونها في اجتماعاتهم ولقاءاتهم عند استعراض الوضع السياسي في العراق وبدايات تدهوره، وهذه المنظمات تصغي وتستمع لكل الطروحات بدبلوماسية ولكن تبقى العلاقات الدبلوماسية بين الدول لها الاولوية.

ارتبط وسام بعلاقة رفاقية طيبة مع جميع الرفاق من القدامى ومن الجدد الذين التحقوا فيما بعد وخصوصا مع الصديق سمير فهوالرفيق الطيب الحريص الامين البسيط المحبوب الهادئ المتأنق، وكذلك علاقته مع العراقيين الاخرين طيبة جدا، حيث كانت الزيارات بينهم متبادلة وعلاقات جيدة. في هذا الجانب اكتسب وسام خبرة لا بأس بها في العمل بين اوساط الطلبة من أيام الجامعة في بغداد، وتخلل هذه النشاطات بعض المواقف المحرجة والمواقف المضحكة، على سبيل المثال ذات يوم دعى الطلبة العراقيين إلى مؤتمر الرابطة حضره بعضهم من المستقلين والمناصرين وكان احدهم الزميل كاظم الرماحي لكونه كربلائيا بارعاً في السوق وماهرا في التحضير والاعداد لموائد الافراح والفواتح في محلة و(تكيات) العباسية الشرقية ولبقاً في اللقاءات الاجتماعية ويقال باللهجة العامية (مزحج) وهو من جيل منتصف الاربعينيات. بعد تهيئة واعداد وتحضير الطبخ دخل قاعة المجتمعين واراد ان يسلم على الاخرين ويغادر المكان فبادره وسام بسؤاله:

- إلى أين أنت ذاهب والاجتماع لم ينته بعد!.

واجاب كاظم بملء صوته:

- لقد اعددت الوليمة لكم وأنا معكم ضد الاستعمار والامبريالية والرجعية والسلام عليكم فماذا تريدون مني ان اعمل اكثر من هذا.

اجابوه الاصدقاء:

- عاشت اياديكم، ولكننا نريد ان تحضر إلى أخر الاجتماع.

ومن طرائفه الكثيرة يقول كاظم؛ ذات يوم دعاني نائب العميد في معهد الطب وبنفس الوقت استاذي وقال لي (كادم) باللهجة الاوزبكية:

- البارحة توفت والدتي وسوف يقام المأتم في بيوتنا واريد منك ان تحضر وتقرأ لنا الفاتحة على روحها بحيث تمكنها من دخول الجنة.

فيقول كاظم:

- حاضر استاذي سوف اقوم باللازم واجمع واقرأ كل الايات والادعية من الزيارات لأجل الوالدة.

لبيتُ دعوته وحضرت المأتم.. البسوني معطفهم الاوزبكي الجديد وأصبحت كانني قارئ منبر من اسيا الوسطى ووضعوا امامي الصحون من البلوف الاوزبكي اللذيذ (المتلل) بالرز والجزر واللحم والثوم واضافات أخرى. وقلت لهم:

- افعلوا مثلما افعل، وادور مثلما ادور واتجه.

فقرأت لهم ما حفظته من الآيات والزيارات لاضرحة الأئمة في كربلاء أيام زمان؛ سورة الفاتحة والكوثر وآية الكرسي واخيرا قصيدة من شعر محمد الجواهري، وفي كل مرة اضع راحة اليد على وجهي وامسحه ويفعلون ما افعل، استدار شمالا وشرقا وجنوبا وغربا وهم كذلك يستدارون وفق استدارتي واختتمت الزيارة وأنا انشد عليهم؛ الحنانة والمنانة، ودرب الجسر منانه،.. مناك لهنانه، وانود برأسي وينودون وانحني بظهري وينحنون بكل الاتجاهات حتى هلكتهم من التعب. فشكروني على هذه الزيارة التي ولاول مرة يشاهدونها في حياتهم، وقالوا:

- ان هذه الزيارة بالتأكيد سوف تشفع لوالدتنا وتدخلها الجنة.

وفي الختام اعدوا قدرا كبيرا أخر من اللحم والبلوف والبطيخ والفودكا، أي طبخ يكفي لفصيل كامل، حمله في سيارتهم إلى القسم الداخلي ووزعه على الاصدقاء من الطلبة ودعى الاخرين المقربين لهذه الوليمة.

ولهُ مواقف تدمع لها العيون من الضحك، ذات يوم وصلت للمخازن أنْعُل الاسفنج صناعة فيتنام، وقد قام كاظم بشراء كمية منها لغرض الاستفادة من بيعها على معارفه بسعر مضاعف مدعيا بانه قد جلبها من المغرب، وكان من بينهم الميكانيكي البغدادي حسين حيث رغب بشرائه بهذا السعر، وبالصدفة عثر حسين نفس البضاعة موجودة في المخزن الكبير لمنطقتهم، فاشترى نعلين اخرين ورجع مسرعا لكاظم يخبره بانه قد اشتراها من مصدر صناعتها وليس من المغرب، توقع كاظم ما وراء رجوع صديقه، فلبد في غرفته ولم يفتح له الباب.

ساد الهدوء في العلاقات طيلة الفترة... وكان د. فاضل شريف قلي يتردد على وسام في الكلية لمساعدتهم باللغة ولقضاء الوقت في أيام الاحد ويجلسون مع بعض العراقيين يقضون وقتا جميلا في (الجاي خانة) في المناطق الشعبية القديمة اوعند مقهى القبب الزرقاء في مركز المدينة التي تضفي اجواءا من البهجة والراحة والهدوء وفي كل الفصول صيفا وشتاءا واجملها في الربيع والخريف. د. فاضل شريف قلي كان يعمل مترجما في دار للنشر والترجمة ويسكن في شقة تابعة لدار النشر وقريبة من الكلية التحضيرية، وكان كريما طيبا استضاف الكثير من

العراقيين في المناسبات، كانت الأجواء والعلاقات السائدة بين الطلبة طيبة وبدون مشاكل وذلك لقلة عددهم.

بعد رأس السنة الميلادية، اشترت الكلية التحضيرية باصا كبيرا هنغاري الصنع ازرق اللون، دشنَته بسفرة إلى مدينتى سمرقند وبخارى خلال العطلة الشتوية في نهاية كانون الثاني ١٩٧٦ وزيارات الاماكن التراثية السياحية فيها، والاجمل ما فيها هي من اعداد وتنظيم المدرسة (زويا) للسفرة، المسؤولة عنها وبمرافقتها لان سمرقند هي مدينتها الأولى. وافق وسام بدون مقدمات؛ واليوم يومك يا بطل، كيف هو لسعيد الحظ؛ اهي من صدفة ان تجتمع الأسماء كلها في هذا الركن من العالم؛ طشقند، سمرقند، بخارى، وزويا التي تشبه قندة بالكثير، بالحنية واللطف واللباقة، وهي من مواليد سمرقند، والمدينتين خضعت للفتوحات الإسلامية العربية.

من خلال اطلاعه وقراءته للمجلات والكتب في مكتبة الكلية التحضيرية تبين بان العرب هم من اطلقوا على هذه البلاد والاقاليم اسم (بلاد ما وراء النهرين) عند فتوحاتهم في القرن الهجري الأول اشارة إلى النهرين العظيمين نهر جيحون ونهر سيحون، حيث تقع اوزبكستان بينهما وتعتبر من كبرى دول وسط اسيا وتضم اشهر مدنها؛ طشقند العاصمة مكان الدراسة الحالية، سمرقند، بخارى، خوارزم وترمذ، واسماء الاعلام من العلماء هم من عاش وسكن وابدع في هذه المدن.

تحرك الباص صباحا من الكلية التحضيرية متوجها إلى الجنوب الغربي في طريقهم إلى سمرقند وبخارى، جلس وسام

في المقاعد الامامية مع المدرسة (زويا) فائقة الفتنة والجمال بعيونها السود العميقة وشعرها الأسود الطويل كأنها في دخلة العرس وبثوب حرير يليق بها ملصق بمنحنيات جسمها ويجسم كل مفاتنها، لم يستطع وسام كظم ذلك بل سارع لسانه لاعلان اعجابه بها وقال بهدوء وخشية ولم يعرف من أين امتلك هذه الجرأة وما هي ردود الفعل وسألَ:

- من أي قمر هبط هذا الجمال!.

اجابته بدون تردد، بارتجاج النهدين فاغرة العينين:

- من سمرقند ومن اصول عراقية،... أتعلم أم لا تعلم!.

واجابها:

- والنعم والله.

ضحكا سوية وجلست بجنبه وعطرها يتسلل إلى رئتيه وخلاياه، وتناولوا اطراف الحديث وما الذي يجري في وطنه، وعن عائلته والاقرب من كل هذا والاشوق على قلبه حديثها عن سفيتلانا وبعض التفاصيل والمباح لها وهو بيت القصيد.

مضى الوقت بسرعة، ووصلوا إلى سمرقند ما بين العصر والمغرب حيث قطعت المسافة ٣٠٠ كم ما بين طشقند وسمرقند وحسب توضيح السائق بحدود ٦ ساعات مع بعض التوقفات في الطريق والقرى التي يمرون بها للاستراحة والتسوق البسيط، وامسوا ليلتهم في فندق محجوز مسبقا.

في الصباح تجولوا في المدينة واسواقها ومعالمها التاريخية، ومن اهمها ساحة ريجستان وتعني (الرمل) وما يحيط بها من المعالم التأريخية من العصور القديمة ومنها ثلاث مدارس

اسلامية، اقواس ومآذن عالية وقباب زرق فيروزية تولد احساس رهبة وهيبة لامجاد خلت، مقبرة أمير تيمور، مسجد بيبي خانم، قبر الصحابي قثم بن العباس، وغيرها من المعالم التراثية.

سمرقند مدينة القباب الزرق باللون الأزرق الفيروزي، اللون الذي انطبع في ذاكرة وسام منذ زياراته لمراقد الأئمة في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء في طفولته وصباه وفتوته. سمرقند تعني قلعة الأرض وقد وصفها بن بطوطة بانها من اكبر المدن واحسنها واتمها جمالا، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين وكانت تضم قصورا عظيمة وعمارة تنبئ عن همم اهلها. وتعتبر ثاني مدن اوزبكستان من حيث السكان.

تم الفتح الاسلامي لمدينة سمرقند على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي ٧٠٥م واعاد فتحها وقام بتحويل المعابد إلى مساجد لتأدية الصلاة، وازدهرت سمرقند ازدهارا كبيرا في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله وجعل منها عاصمة لبلاد ما وراء النهر. استولى عليها الاسكندر، وبدخول جنكيزخان امست المدينة خرابا مهجورا، وبعد اعتناق المغول الاسلام اتجهوا إلى تشيد العديد من العمران واعلنها تيمورلنك مؤسس الامبراطورية عاصمة لدولته، وأصبحت مركزا علميا مهما وبعهد ابنه اولوغ بيك في تلك المرحلة التاريخية ولازالت تحتفظ برونقها للوقت الحاضر.

بعد ان تعبوا من التجوال بمعالم المدينة واسواقها وخاناتها، امسوا الليلة الثانية في نفس الفندق وبليلتهم السمرقندية هذه قد تقاربت وتلاصقت القلوب واغْمضَّتْ العيون حالمة بعد ان لاح

الصباح وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح، وعند الصباح تجمع الطلبة استعدادا في طريقهم إلى بخارى.

كان الوصول إلى بخارى ما بعد الظهر، وبالتوقف للاستراحة في بلدتين احداهما بلدة نوفائي، استغرق الوقت بحدود ٤ ساعات لقطع مسافة ٢٧٠ كلم، تخلل هذه السفرة وصلات من الاغنيات العربية والفلكلورية كانت لحنجرة وسام جولة فيها كانه العندليب الاسمر عبد الحليم حافظ، يتذكر أيام السفرات الجامعية إلى مناطق كردستان. وبعد ان اخذوا قسطا من الراحة تجولوا عصرا لبعض الاماكن القريبة من مبيتهم.

في الصباح التالي خرجوا للمدينة لاستكمال تجوالهم وزيارتهم لمعالم المدينة الاثرية التي تشابه معالم مدينة سمرقند، ومنها ضريح اسماعيل سمنيد والذي تم بنائه في عام ٩٤٣م وتحتوي جدرانه على الزخارف الإسلامية والفارسية، مسجد نمازكاه والذي شيد في القرن السادس الهجري، مسجد تشور مينوراو مسجد المآذن الاربعة وهو من اهم الصروح الدينية الفارسية، امر ببنائه الحاكم نياز كول عام ١٨٠٧ وتحمل الطابع الاسلامي العثماني، منارة كاليان التي تقع بالقرب من مسجد كاليان، وتم بنائها في عام ١١٢٧م بامر السلطان القراخاني سليم خان حاكم البلاد وتعتبر معلما اسلاميا مميزا، مسجد بلند وضريح الامام البخاري وهو من علماء الحديث المسلمين وكتابه صحيح البخاري وغيرها من المعالم الاثرية.

اسم بخارى المحلي ويهارا أي الدير أو الصومعة، وقد فتحها أيضا قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٠ هجرية في عهد الحجاج بن

يوسف الثقفي وامر اهلها بان يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا معهم ويطلعوا على احوالهم واعتبرها افضل طريقة لنشر الاسلام بين سكان بخارى، ونهبت المدينة واحرقت في عهد جنكيزخان، وتقع في وسط واحة على نهر زرافشان، ومن ذلك الوقت اتسمت بانها مركز تجاري ومركز للدراسات الثقافية وعلوم الدين، والقسم القديم من المدينة يحتوي على المساجد والمدارس القديمة، وتاريخها الغني بالاحداث يبدأ بعد الفتح الاسلامي.

وفي بدايات العهد السوفياتي كانت تسمى جمهورية بخارى الشعبية السوفيتية ما بين ١٩٢٠ – ١٩٢٤ وبعدها ضمن جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفياتية وتعد الان خامس مدن اوزبكستان من حيث عدد السكان.

انهوا زيارتهم لبخارى وعادوا للمبيت في سمرقند وانها الليلة الاخيرة لطواف شهريار وشهرزاد لبلاد ما بين النهرين وسرورهما متوجهين الصباح بلهفة إلى طشقند الجميلة ولكليتهم التحضيرية ليعاودوا دراستهم، وبلهفة لتفحص ما قد تُرك لهم البريد مفاجأة عساها رسالة من الاحباب في الاركان أو من الاوطان.

وصلوا عصرا حيث استمتع الاخرون من الطلبة لهذه السفرة الطيبة الممتعة والتي طبيعتها واجواؤها قريبة إلى بلدانهم حيث كررت على مسامعهم وانظارهم ما حملته ذاكرتهم من الأسماء، شاكرين استاذتهم ومعهدهم والقائمين على تنظيم هذه السفرة وبالاخص المدرسة زويا وشكرهم لسائقهم بقلنسوته الاوزبكية الذي اوصلهم بسلام.

عاود زياراته للاخ سمير في المعهد الزارعي خارج المدينة، حيث انتظمت الاجتماعات بتداول الأخبار السياسية في الوطن واخبار أخرى والتنسيق في عملهم ونشاطهم وكذلك زياراتهم وعلاقتهم بالطلبة والمتواجدين الاخرين وكذلك بمجلس المدينة مع الطلبة الاجانب. وعاودوا الدراسة الربيعية من جديد حيث اتضح بان سفرتهم نضمت ضمن العطلة الشتوية، وعادت الواجبات الدراسية كالمعتاد حسب برنامجهم الدراسي، حضور الصف والقراءة والاستماع للتسجيل مع الواجبات اليومية من الكتابة والقراءة مع دروس المواد الاساسية الأخرى من الرياضيات، الكيمياء، الفيزياء والتأريخ. وخلال هذه الفترة لم يستلم وسام أي رسالة أو أخبار عن الأهل، ويمتص ضيجته هذه باللقاء مع بعض الاصدقاء من العراقيين في مقهى القبب الزرق أو في مركز المدينة عند مسرح نوفائي.

وما هي الا فترة ثلاثة اسابيع انقضت حتى اعلن عن بدء اعمال المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي الذي انعقد في ٢٥ شباط إلى ٥ اذار سنة ١٩٧٦ في موسكو، وحالما ينهي وسام دروسه الصباحية تراه ملتصقا بالتلفاز في القاعة الكبيرة يشاهد ويتابع اعمال المؤتمر واخباره من هنا وهناك حسب ما يصل إلى سمعه وفهمه اللغة تراه مبتهجا يستمع إلى خطاب ليونيد بريجينيف الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي، ويراقب الحضور من الوفود في المنصة، فقد عرف الكثير من الامناء والامناء العاميين للاحزاب الشيوعية والاشتراكية وممثلي حركات التحرر من البلدان العربية

والاوربية وامريكا اللاتينية، ازداد فخرا وبهجة حينما عرف وشاهد سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد وهوعلى المنصة ضمن هذه الوفود، وازداد حبا للحزب وفخرا لمكانة الحزب وحضوره.

شرح واوضح للحاضرين من الاصدقاء في القاعة، اخبر (زويا) بذلك عند دخولها القاعة وشاركتهم الاستماع للتعرف أيضا على الوفود الحاضرة للمؤتمر والذي سمي بمؤتمر الفاعلية والجودة الأمر الذي تطلب منهم دراسة نتائجه وقراراته والاطلاع عليها بعد ان تطبع وتترجم للغة العربية والحصول عليها من خلال التنظيم الحزبي ولتصبح مادة في اجتماعهم اللاحق. زاده سرورا وابتهاجا وهو يشاهد لاول مرة مؤتمرا للحزب وحضور المؤتمرين بهذه الاعداد الكبيرة، وهو الان في بلاد السوفيات بلد الاشتراكية، فخصص من وقته للقراءة والمطالعة الخارجية.

التقاه سمير وهو الأخر مبتهجا فرحا فخورا وكانه من المدعويين لحضور المؤتمر، جاء بربطة حمراء وبدلة جميلة مستعدا لحضور حفلة عرس عند انتهاء الحصص الدراسية داعيا اياه مع بعض الحضور من الاصدقاء إلى مقهى (القبب الزرقاء) وسط المدينة بجلسة للتداول وللاحتفال بانعقاد المؤتمر ورؤية حضور عزيز محمد في منصة المؤتمر، هذا اضافة إلى ما شاهدوه من عرض لبعض اللقاءات الصحفية والاستضافات الجانبية على هامش المؤتمر مع قادة وامناء الأحزاب الشيوعية العالمية ومنها في البلدان العربية ولقاءاتهم مع طلبتهم وجالياتهم وكان من بين هذه اللقاءات مع الامين العام للحزب الشيوعي التشيلي لويس

كورفالان وجورج حاوي امين الحزب الشيوعي اللبناني وياسرعرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، حيث ان الكثير من صور القادة والامناء للاحزاب الشيوعية قد مرت على وسام من خلال جريدة طريق الشعب والمجلات العربية التي كانت تصل إلى العراق ومنها مجلة الهدف التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت تباع في المكتبات العراقية. وبهذا عكس سمير رأي منظمة الحزب في موسكو بان وجود (ابو سعود) عزيز محمد في المنصة له دلالات سياسية ولمكانة الحزب والتضامن الاممي معه.

هذوله احنه

سرجنه الدم على اصهيل الشكر يا سعود
خلينه زهر النجوم من جدح الحوافر سود
تتجادح عيون الخيل وعيون الزلم بارود
وياخذنه الرسن للشمس من زود الفرح ونزود
يسعود احنه عيب نهاب يابيرغ الشرجيه
هذي يشاميغ الثوار تبرج نار حربيه...

5

بعد اسبوع وعند فترة الغداء في مطعم الكلية في القبو قابلته الاستاذة (زويا) واخبرته:

- بان هنالك أخبار جيدة سوف اخبرك بها بعد الانتهاء من الغداء عند قاعة المكتبة.

على عجل تناول صحنه وصعد إلى المكتبة في انتظار ما تحمله استاذته من أخبار ودقات قلبه تتصاعد، وصلت والبسمة العريضة تملأ ثغرها الجميل تطمأنه بانها ستسره باخبار مفرحة، رصدها لحظة دخولها وتلاقت العيون، جلست وبادرته بانها قد استلمت رسالة من سفيتلانا تشرح فيها التحاقها بعملها الجديد والاهم من ذلك سؤالها عنه بالتفصيل وتبعث بسلامها واشتياقها وللجميع وتؤكد أنها في العام القادم سوف تنهي عقدها وتعود لكونها سوف تتحول هي وامها إلى شقة جديدة، فكونوا بانتظارها، راقبت زويا بتمعن ردود فعل وسام لاستلامه هذا الخبر وبتنهده وحيرة عينيه، وبذكائها الشرقي تيقنت بفرحته وتيقنت من حقيقة أشتياقه وحبه لسفيتلانا وكما تلمست من ثنايا حديثه في تلك الليلة السمرقندية، ووعدته بكتابة الرد إليها اليوم اليوم وليس غدا. ظل طيلة ليلته يتذكر اول لقاء بسفيتلانا شخصيتها عيونها الجميلة خدودها طيبتها قوامها جمالها شعرها

الطويل لطفها عطرها حديثها، ظرفه مستقبله اهله وحزبه وبقي على هذه الحالة حتى انبلج الصباح.

فصل الربيع جميل في طاشقند، بدأت الاغصان والبراعم تتفتق اوراقها زاهية الخضرة بسرعة مع انبعاث اشعة الشمس الربيعية مما ينعكس ايجابيا ذلك على المزاج العام، استمرفي دراسته وتحضير دروسه وواجباته خلال الاسبوع وبنهايته ينزل إلى المدينة للتجوال أو الذهاب إلى سمير حيث يحبذ السهر والمبيت هناك ويتابع الاخبار عموما ويلتقي بباقي الزملاء حسب تواجدهم، تطورت علاقته بسمير كرفيق وكاخ قريب لنفسه، لطيبته وبساطته واحاديثه الجميلة والمضحكة.

سمير هو الابن الوحيد لعائلته مع اخواته، عائلته فقيرة حيث تعمل امه خبازة وفي طفولته كان يساعدها في بيع الخبز باطباق في سوق محلتهم في مدينة الثورة، جميل يقص من الطرائف، يقول؛ ذات يوم قدم الينا من الريف شخص من الأقرباء لزيارتنا، ولم نجد لدينا أي شيء نقدمه احتفاءا بزيارته لنا سوى دجاجة، فيقول فتوسلنا بجيراننا الشيخ لكي يذبحها على الطريقة السليمة، وبعد ان كبدنا مرارة بطلباته غير المتناهية، من تحضير السكين إلى الماء والصابون، وحين دخول الشيخ اجابته امه:

- "داخلين بصايتك هيه شنهي قابل أنت جاي تذبح ثور لو هيه فرخة دجاجة"، "والرجل جاي ضيف عندنا مات من الجوع".

بعدها سأل الشيخ:

- أين اتجاه القبلة.

يقول سمير طفح كيل والدتي وهبت على الشيخ قائلة:

- "موصية عليك العباس أبو فاضل اذبحها وخلصنا هاي امامك البانزين خانة وهاي المرحاض، فاختر وبعد يمك!، شكيت قلبي".

وصلت قهقهاتهم إلى مسامع الضيف، ودارت بوجها إلى سمير وسألته:

- "يمه سمير أنت مالقيت غير هذا أبو النفس الدنية هسه يلفطها لفط".

ويقول سمير:

- بعد انتهاء الشيخ من ذبح الدجاجة، اغتسل بكل الماء المتوفر ولم يتبق منه الا قليلا، وبعدها ظل جالسا مرابطا مربوطا بدون حراك حتى انتهاء الطبخ والخبز فاخذ حصته بلا عزيمة.

وكان سمير يروي هذه الطرائف والقصص بشكل لطيف.

انهى سمير دراسته الثانوية والتحق بمعهد الزراعة وكان حينها يتفاخر بحضوره بعضا من محاضرات الدكتور كاظم حبيب في الجامعة المستنصرية حول المسألة الزراعية في العراق، وفخورا به من خلال مناقشته للسيد النائب صدام حسين حول قضايا تخص المجلس الزراعي الاعلى. كان وسام يستمتع بالزيارة والمبيت عند سمير في القسم الداخلي للمعهد الزراعي خصوصا عندما يعقدون اجتماعاتهم الدورية في نهاية الاسبوع يتناولون فيها مناقشة الوضع السياسي في داخل الوطن وبعد الانتهاء من الاجتماع يأخذون قسطا من الراحة لنهاية الاسبوع يحضرون بعض الاكلات العراقية وتكون لمة طيبة لجميع الرفاق.

ويعرج وسام خلال زيارته هنا وهناك على زملائه من امريكا اللاتينية وخصوصا على الزميلات (الحبيّبات) من كوستاريكا، فنزويلا، بوليفيا، كولومبيا، تشيلي وكوبا حيث ربطته بهم علاقات وثيقة طيبة، وحينما يدعوه لضيافتهم في سكنهم يتوقف عند صور تشي جيفارا الجميلة الكبيرة معلقة في المدخل، يقف امامها وينظر اليها بتمعن وبحب واحترام يكلمها ويضع كفه يتلمس ويتحسس خده لضربة استاذه له عند كتابته الانشاء في درس اللغة العربية حول جيفارا الثائر، وذات يوم سألوه، وسألته الكوستاريكية (ماري بيل) الناشطة الطلابية:

- لماذا عند دخولك الغرفة تقف أمام صورة جيفار تنظر إليها وتتلمس خدك.

قص لهم ذلك الحادث:

- من اجل جيفارا تحملت صفعة (راشدي بالعراقي) وعقوبة فصلي من المدرسة لمدة اسبوع، ورسوبي عمدا في امتحان مادة اللغة العربية، ومن ذلك اليوم "انصبغت وشيعتي"، وان لحب جيفارا وافكاره دفع الثمن.

- عندما رددت لصفعة الاستاذ البعثي بدفعه بعنف إلى السبورة، شعرت بقوتي ازاء هذا الهمجي المتعجرف المغرور ومن المغرر بهم بشعارات الوحدة والقومية والبعث، وخرجت من الصف خوفا من تطور الامور التي كادت ان تكون قرارا ظالما بفصلي من المدرسة لولا تدخل بعض من الاساتذة ذوي الميول اليسارية.

تعجبوا لموقف وسام الجريء واستهجنوا موقف استاذه، ومنذ ذلك اليوم حين يصادفوا وساما أو عند اللقاء به يقبلوه ويأخذونه بالاحضان ويدعوه لموائدهم، احبوه للطف حديثه وطيبة اخلاقه ووسامته ولمعلوماته عن ثورة كوبا وحبه لجيفارا وكاستروا، وعن انقلاب ١٩٧٣ العسكري الدموي في تشيلي الذي قام به الدكتاتور بينوشيه واطاح بحكومة تحالف الوحدة الشعبية لحكومة سلفادور أليندي وأنشأ مجلسا عسكريا لقمع الحركات اليسارية والاحزاب الشيوعية والاشتراكية والثورية راح ضحيته اعتقال الآلاف من المعارضين السياسيين وقتل ثلاثة آلاف منهم. وبهذا يقارن وسام بان مأساة شعبه وتضحيات الحزب الشيوعي العراقي الجسام ليس لها بمثيل في العالم.

كانت ماري بيل طالبة جريئة في الحديث والمزاح هادئة طيبة متفتحة ملمة بالسياسة، كسرت حاجز الخجل الريفي العراقي عند وسام، تشارك رابطة الطلبة العراقيين مناسباتهم الوطنية وباقي المنظمات الطلابية العربية والاجنبية الأخرى بحضورها حاملة قيثارتها وصورة صغيرة لجيفارا ملصقة عند اوتارها، مرتدية الزي الشعبي لامريكا اللاتينية دائما، وعند مشاركة وسام لهذه المناسبات تجلس ملتصقة مشدودة به لمشاهدة الفعاليات الخطابية والفنية كصديقين حميمين.

هذا بالاضافة إلى علاقاته الطيبة بالطلبة اليمنيين والسوريين والفلسطينيين وغيرهم من الطلبة العرب، حيث وفي اكثر الاحيان وفي مناسباتهم الحزبية والوطنية المتنوعة يسهر باعداد وصياغة كلمة خطابية بعد ان يطالع ويقرأ ويجمع اولويات هذه المناسبات

ويلقيها تارة باسم رابطة الطلبة العراقيين وتارة باسم المنظمة الحزبية كل حسب الظروف المحيطة وطبيعة واهمية المناسبة والحذر وتجنب التطرق إلى مواضيع تثير حفيظة الاخرين والحرص على العلاقات بين الأحزاب والمنظمات أو بين الفصائل ومراعاة الوضع السياسي العام ومراعاة الجهة المضيفة، وهكذا رويدا رويدا عمق علاقاته بمختلف المنظمات الطلابية والحزبية وبهذا استفاد خبرة جيدة بالعمل معها.

تشيلي تمر بالليل نجمة بسمانا

بويه انكض اللي كان يحسب كضانه

استطاعت المجموعة التي يدرس فيها وسام ان تلحق بتنفيذ البرنامج الدراسي من خلال الدروس الاضافية والجهود المبذولة من عمادة المعهد والمدرسين في الكلية التحضيرية واللحاق بالمجاميع الأخرى التي وصلت في الوقت المناسب لبدء الفصل الدراسي في بداية شهر سبتمبر، واستمرت المجاميع بالدراسة حتى نهاية الفصل الدراسي الصيفي واعلان نتائج الامتحانات في الكلية التحضيرية واقامة حفلة التخرج حيث حصل وسام على نتيجة جيدة في الامتحانات ومن ثم التوزيع على الكليات والمعاهد والجامعات كل حسب اختصاصه وعلى مستوى الجمهوريات للاتحاد السوفياتي وتترك للطالب الرغبة واختيار مكان الدراسة، فكان الاغلب يختار من المدن موسكو، لينينغراد، كييف، خاركوف، مينسك، دانيتسك، باكو، اوديسا، اريفان، جورجيا وغيرها من مدن الاتحاد السوفياتي، فلا فرق بينها.

فاختار وسام البقاء في طشقند ولا سيما هنالك معهد البوليتكنيك وفيه كلية الهندسة المدنية، ولعدم استطاعته بالحصول على شهادة تخرجه من جامعة بغداد وتصديقها وارسالها في الوقت المناسب إلى وزارة التعليم العالي في الاتحاد السوفياتي لغرض معادلتها، واختار طشقند لطبيعة اجوائها وظروفها المناخية المقاربة لظروف العراق، ولكرم شعبها ولمعرفته بالمدينة وناسها الطيبين، مدينة (الشمس والخبز والحب) والتي خففت عنه بعض الشيئ وجنبته من الاصابة بمرض الحنين والذي يصاب به المرء من جراء شعوره واحساسه بالوحدة أو الغربة أو فقدان الصلة بالاهل أو العوز المالي والمعيشي، والاهم فهي من الأسماء المحببة التي ادخرتها ذاكرته طيلة السنين والاهم أيضا هو انتظاره في هذه المدينة لحبيب موعود قادم.

حلت العطلة الصيفية وسافرت بعض المجاميع من الطلبة الذين انهوا دراستهم في الكلية التحضيرية والمتمكنين ماديا ويستطيعون السفر الى بلدانهم واهلهم بدون عوائق أو ممنوعات، والبعض الاخر التحق بالجامعات وفق اختصاصاتهم في مدن الاتحاد السوفياتي ومنهم من اختار الدراسة والبقاء في جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفياتية، وضع وسام بعض حاجياته في مخزن الكلية مؤقتا لحين عودته من موسكو والالتحاق بدراسته الجديدة في معهد الهندسة المدنية، حيث قرر استغلال العطلة والسفر الى موسكو بعد ان ابلغ المدرسة (زويا) بسفره هذا ولمدة

قصيرة يقضيها هناك وبعدها يعود إلى طشقند، وهي تعلم مسبقا باختياره لدراسته وبقائه في المدينة.

أول مرة يسافر بالطائرة بشكل طبيعي كمسافر هادئ حقا وليس كما الهارب؛ قلق مضطرب مهموم ضائع، حيث استمتع بسفرته، مكانه بالقرب من النافذة، يربط نفسه بحزام الامان، يفتح الطاولة التي امامه لكي يتناول وجبة الطعام، يدور في ممر الطائرة، كانه طيار وملاح متمرس، لا وجود للشوارب الكثيفة ولا وجود لعناصر الامن ولا احد ينزله من الطائرة، انه يطير في السماء الزرقاء إلى موسكو ويسبح في الغيوم البيضاء، لم تظهر أم العيون السوداء في هذه الطائرة ولكن قد حلت محلها حواء حسناء شقراء، يكلم نفسه:

- لك الرحمة والغفران والجنان يا عباس بن فرناس.

أية سعادة هذه التي تغمره واي حلم هذا الذي يراه وهو بكل سرور يتوجه إلى موسكو (الحب والحلم) عاصمة الاتحاد السوفياتي بلد الاشتراكية الأول، بلد لينين العظيم، بلد اتحاد العمال والفلاحين. سَفرهُ لموسكو؛ سوف يزور ضريح لينين العظيم في الساحة الحمراء عند جدار الكرملين وليكمل التعرف جيدا على المعالم المعمارية التأريخية التي شاهدها في مجلات المركز الثقافي السوفياتي في بغداد والتي ابهجته للوهلة الأولى حين وصوله من العراق قبل عام ولم يتسن له رؤية الكثير من المعالم التراثية الجميلة وذلك لضيق الوقت حيث كانت مدة مكوثهم في فندق الطلبة قصيرة جدا ينتظرون توزيعهم إلى مدن الاتحاد السوفياتي لدخول الكلية التحضيرية لدراسة اللغة

الروسية، والان يريد ان يستمتع بعض الوقت وليرتاح من الكوابيس والتعب والارهاق والمخاطر التي رافقته منذ ان عرف طريق الحزب وهو لاول مرة يكون بعيدا عن اهله والوطن، ويود اللقاء والتعرف على رفاقه العراقيين ومعارفه الذين استقبلوه أول مرة في المطار والاخرين الذين تعرّفَ عليهم في القسم الداخلي وها هو الان قد انهى الكلية التحضيرية واتقن اللغة ويستطيع التحدث مباشرة بدون الحاجة إلى ترجمتهم والتنقل خوفا من الضياع، كذلك سوف يزور دور النشر ومنها دار التقدم والتي يعمل فيها خيرة الكتاب والروائيين والصحفيين والفنانين ومن المقيمين العراقيين ليشتري بعض الاصدارات والكتب باللغة العربية، والاهم فهو متلهف لتتبع اخبار الاهل والوطن والحزب والرفاق في مدينته واخبار جنان، واخبار من هنا وهناك.

حال وصوله إلى موسكو قادته قدماه من حيث لا يعلم إلى منطقة (السوكل) حيث عند سماعه اسم المنطقة حاول النزول بسرعة من الباص في الموقف المخصص، لقد حفظ معالم واسم المنطقة والمتنزه وحفظ اسماء الرفاق من العراقيين في القسم الداخلي ومن المستقبلين له ايضا، منطقة السوكل والاقسام الداخلية جميلة مغطاة بالاشجار والمتنزهات، حال خروجه من الباص متوجها صوب ذلك القسم الداخلي واذا به يصادف امامه دكتور لطيف منصور ذلك الرفيق الإنسان الطيب المتواضع الذي يفوح طيبة بصراوية، احَبَه منذ أول لقاء لجمال احاديثه بتلك اللهجة البصراوية الجميلة، كان يدرس الماجستير في الطب النفساني، تعانقا وتوجها صوب قسم الاكاديمية الطبية، سهرا

الليل وتداولا أخبار الوضع السياسي في العراق واخبار الحزب وحضور سكرتير اللجنة المركزية إلى المؤتمر ٢٥ للحزب الشيوعي السوفياتي، وعرض عليه البقاء والمعيشة في سكن الاكاديمية لامتلاكه اكثر من غرفة تابعة لاصدقائه من الطلبة العرب والذين يستطيعون السفر لبلدانهم أو بلدان أخرى لقضاء فترة العطلة الصيفية. امضى وقتا جميلا مع دكتور لطيف أو منفردا بالتجوال في المدينة وزيارة بعض المعالم التاريخية؛ الساحة الحمراء، الكرملين، الجندي المجهول، ضريح لينين، تلال لينين، جامعة موسكو، المتاحف، المسرح الكبير، الكنائس والاديرة على نهر موسكو ومحطة القطارات المتوجهة إلى اواسط اسيا.

كان وسام في بعض الصباحات يرافق دكتور لطيف إلى المستشفى الذي يعمل فيه عند منتزه (بارك كلتوري)، وينتظره لحين انتهاء الدوام يخرجون بعدها للتجول في المدينة ولزيارة الجمع الطيب من الرفاق العراقيين القدامى. حقيبة الدكتور الدبلوماسية (دكان متجول) حاوية لكل شيء من ردائه الطبي (صدارته) والسماعة وجهاز قياس الضغط والحرارة واسياخ التكة والكماشة (البلايس)، اما الصدرية والاجهزة الطبية معروفة، اما الاشياء الأخرى فبعد يومين من المراقبة اتضح سرها، فاسياخ التكة تخرج حين يكتمل اصطياد الحمام في متنزه السوكل بعد ان يرمي لها طُعم الخبز، ويتم شوائها لاحقا، مع العلم والحق يقال بان الدكتور طباخ ماهر بالاكلات العراقية والبصرية وخصوصا لمرقة السمك البصراوية اللذيذة مع الرز، حيث ان بائعات

السمك في مخزن المنطقة يحجزن السمك الطازج للدكتور حتى انتهاء دوامه، اما الكماشة (البلايس) فلم تخطر على البال فاتضح بانه يستخدمها بفتح محور القفل للباب الخلفي للمختبر اختصارا للمسافة حيث يدخل المستشفى من الخلف من ناحية حديقة البارك كلتوري.

في احد الصباحات قدمت امراة روسية تنتظر دكتور لطيف وهي زوجة احد المرضى الذي مكث وقتا تحت المراقبة والعلاج وبشفائه جاءت الزوجة لترد له الجميل، فدعته إلى قريتهم خارج مدينة موسكو ليرتاح بعض الأيام هناك ومع من يريد دعوته من الاصدقاء في بيتهم الصيفي، فقررا ان يشدا الرحال بعد التسوق بما لذ وطاب فاستقلوا القطار الى الجنوب مقابل المحطة التي سافر بها أول مرة إلى طاشقند وودعتهم (الحنينة) فيها، فما ان وصلوا محطة القرية كانت المرأة في انتظارهم بعربة يجرها الحصان كأنها من أيام روسيا القيصرية، وصلوا بيتهم الذي ينفرد عن مجموعة البيوت الخشبية المتباعدة وكنيسة تعلو الرابية ومن تحتها يجري نهر واسع محاط بالزرع والخضرة، وعند العصر اجتمعت الشقراوات، خضراء وزرقاء العيون (ألتمن الحلوات من كل بيت حلوة ألتمن) وقضوا ليلتهم حتى مطلع الفجر، انه اجمل منظر واجمل الناس واجمل ريف رأه في حياته حيث الماء والخضراء والوجه الحسن أنها الجنة وفيها الحور العين.

يكلمه وسام ويقول له هكذا هو عمل الخير يا دكتور:

- فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرى.

لم يكترث الدكتور بما قاله وسام، بل أستعجله:

- لقد عملنا ما استطعنا والان داونا بالتي كانت هي الداء.

لقد مكثوا في القرية ثلاث ليالي، وبعد رجوعهم من سفرتهم هذه واثناء تجوالهم في الساحة الحمراء وبالقرب من مدخل فندق موسكو فاذا بشخص بهيئته وقوامه يشبه معلمه ناصر معلم التربية الوطنية يقف بالباب، توقف وسام بعض اللحظات يراقبه ليتأكد منه، اهو معلمه أو شبيها له، وما الذي جاء به إلى موسكو بعد هذه السنين، تقدم نحوه بلهفة، تعارفا بعضهم البعض وتعانقا عناق الاب لولده والاخ الأكبر لاخيه، عناق رفاقي، وبعد الترحيب ببعضهم البعض والاستفسار عن صحته، طلب وسام منه ان يرتكنا ويحدثه عن أخباره وفراقهما وفترة انقطاع صلاتهم وتواصلهم بعد التحاق وسام للخدمة العسكرية وعن اخبار الاهل والوطن والحزب، انزوى الاثنان جانبا على مقاعد متقاربة واخذ المعلم ناصر يسترسل في حديثه ووسام يستمع باصغاء ودهشة وافتخار، ويقول له:

- تعلم أو لا تعلم انه وفي عشية توقيع الجبهة كدت اتعرض إلى عملية اغتيال من قبل رجال الامن، الا اني استطعت الافلات منهم، وبعد تجميد عمل المنظمات الطلابية والشبابية وانقطاع الصلات مع الملتحقين بالخدمة العسكرية وانت منهم يا وسام، وخوفا وحرصا على ابنائنا جمدنا العمل والعلاقات بل انقطعت اكثر الصلات وحدث خلل كبير في عمل المنظمات الحزبية ونشاطها، وتعرضتُ لمضايقات اجبرتني على تجميد العمل الحزبي والانتقال بعيدا إلى الناصرية والعمل هناك بشكل سري في منظمة الحزب، حيث حصلت بعض الاعتقالات والاغتيالات

لرفاق نشطين في منطقة الفرات الأوسط عموما وفي مناطقنا وفي مدينة البصرة، وحدثت حادثة اعتداء اضطررت بعدها للاختفاء فترة في مدينة النجف ومقابرها وتارة في الاهوار عند بعض الأقرباء وتركت زوجتي واطفالي مع الاخوات، ومنها تم تسهيل امر هروبي إلى ايران ومنها إلى افغانستان وها أنا الان ولاول مرة ازور الاتحاد السوفياتي، حديث طويل يا وسام:

- حيث انني لا اعرف الوجهة الحقيقية بالضبط لحد الان، نحن الان ندرس في المدرسة الحزبية مؤقتاً، سوف نلتقي عندما يكون هنالك استقرار نسبي بعض الشيئ ونتواصل.

وفي ختام حديثهم التحق الدكتور لطيف بهم والاخرين، وضح وسام لمعلمه ناصر:

- بانني في العام الفائت حينما وصلت إلى موسكو ومباشرة طلبت من الاصدقاء ان اذهب إلى الساحة الحمراء فتذكرتك يا استاذي!، (اجيت والله جابك).

وعاود وسام سؤاله مبتسما لمعلمه كرشقة بندقية:

- وهل انتم زرتم الساحة الحمراء، وهل وقفتم أمام تلك البناية السكنية التي نزلت من طوابقها المرأة العجوز التي اعطتكم حينها درسا في النظافة لن ينسى وهل وجدتموها، أحية ترزق!، وهل سامحتكم على فعلتكم تلك في رمي السيجارة؟!.

بعد برهة فهم المعلم ناصر سؤال وسام، انبهر وتعجب وضحك ضحكته المميزة وضحك الجميع من الاعماق ومن كان بمعية المعلم ناصر حيث اجاب موضحا:

- اخ منك يا وسام، والله قد وجدتها، شباب هذا الزمن عنيدون (ما ينكدر عليهم).

وملتفتا إلى الدكتور يغمزه مازحا لكي يؤيده بكلامه:

- نخليها للشباب!، تمام دكتور لطيف نحن قد كبرنا.

واجابه دكتور لطيف:

- هؤلاء شباب الجبهة الوطنية، منهم عنيدين ومنهم اذكياء اشداء.

وواصل المعلم ناصر حديثه باسلوبه الجميل:

- الجميع يعلم، بان الاتحاد السوفياتي قد قدم التضحيات الجسام ومنذ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧ حيث تكالبت جميع قوى الشر عليه وحشدت اقوى الامكانيات من الاعداء والجيوش من الداخل والخارج، من الجيش الأبيض والجيش الأسود وحيكت شتى المؤامرات للنيل من الثورة الفتية واسقاط النظام الاشتراكي دولة العمال والفلاحين والحرب الوطنية واخرها اندلاع الحرب العالمية الثانية وخرج منها منتصرا بسحق الفاشية الهتلرية ورفع العلم الأحمر فوق الرايخستاغ الالماني في ١٩٤٥ وتحرير بلدان اوروبا والنجاح في اقامة النظام الاشتراكي وتوطيد اركانه ومن ثم اقامة المعسكر الاشتراكي، وهل تغطى الشمس بغربال يا وسام.

- لقد احببنا بلاد السوفيات لمواقفهم الواضحة والصريحة في مساعدة الشعوب المضطهدة في نيل استقلالها من الاستعمار والاستغلال ونصرتها ومساعداتها الاممية في بناء اوطانها وتطلعاتها إلى الازدهار والتقدم واقامة انظمة العدل الاجتماعي

ومنهـا شـعوبنا وحركـات التحـرر العربيـة ومـؤازرة القضـية الفلسطينية.

واردف يقول:

- كان أبي يقف أمام البدر ليقول قولته المشهورة وبأشارته:

- شـوفوا صـورة يوسـف سـتالين (ابو يعقـوب) بالقمر بالزي العسكري.

واستمر بالتوضيح هكذا كان هو الواقع يا وسام:

- فكنا نشعر بالبهجة والغبطة فيما يحققه الاتحاد السوفياتي من نجاحات على جميع الاصعدة، فهو انتصار للفكر والمبادئ السامية في العدل الاجتماعي والتي تربينا عليها جميعا، وما انعقاد المؤتمر ٢٥ للحزب الشيوعي السوفياتي قبل اشهر قليلة الا فخر لنا جميعا.

- وابيحك سرا باننا لم ولن نخرج وقتها خارج حدود بغداد، وكانت امنية حينها ان ازور موسكو والاتحاد السوفياتي، الا انك تعرف الظروف الصعبة والمرارات التي مررنا بها كحزب منذ ١٩٦٣ ولحد الان.

- فلا وجود لبناية سكنية ولا امرأة عجوز نزلت، كل ما في الأمـر فـي ذلـك الوقـت يتطلـب بعـض التحليـة والاضـافات (البهارات) لتضفي نكهة لما تبغيه فيما تروي ورسم صورة جميلة للنظام الاشتراكي الذي احببناه وهي اكثر من ذلك جمالية واكثر انسانية، يدركها القاصي والداني، والمبتغى كي تبسط الأمر للناس والطلبة بحقيقة الامر.

وسوف تلاحظ بان الناس السوفيات تحب وتحرص على النظافة بشكل عام، نظافة معيشتهم وملبسهم واناقتهم... ونظافة بناياتهم وشوارعهم وحدائقهم وساحات لعب اطفالهم...هنالك عرف عندهم منذ أيام لينين ما يسمى بيوم (السبوتنك) يخرج فيه الجيران والعاملون والموظفون طوعيا لنظافة المحلة والمنطقة والمعمل والمصنع والمستشفى والجامعة... الخ، وترى الناس رجالا ونساءا من مختلف الاعمار يشتركون في هذا اليوم والشيئ يذكر تراهم عندما يذهبون إلى اعمالهم وهم في وسائل النقل العامة في الباص أو في المترو تحت الأرض يقرأون مختلف الكتب مستثمرين الوقت ذهابا وايابا إلى بيوتهم محافظين مهتمين بنظافتها، كما سوف تعيشها وتلقاها كم هي جميلة.

ادار المعلم ناصر بوجهه صوب دكتور لطيف:

- نحن كبرنا فبكم آمال الحزب وامانة الشهداء، انتم الشباب وخيرة الابناء، هذا هو عنواني مؤقتا وسوف ابلغك من خلال الرفاق في المنظمة الحزبية أو عن طريق الدكتور.

اختتم كلامه لوسام وامام الاصدقاء الحاضرين مبتهجا:

- فرحتُ وأسعدتُ وفخرتُ بك وسررتُ بلقياك ايها الفراتي الطيب الاصيل العنيد الباقي على العهد، ولم يخب ظني فيك أبداً.

قضى وسام اجمل الاوقات والاستمتاع بمصاحبة دكتور لطيف في جولاته في موسكو وخارجها وزياراته لبعض المعالم التأريخية ولقاءاته بالرفاق ومعلمه ناصر وتقصي بعض الاخبار

عـن الأهـل ورفاقـه واخبـار عـن خطوبـة جنـان التـي حـزت قلبـه وثلمت أمله.

لقد دنى شـهر سبتمبر ودنى خريف موسـكو وها هي اوراق الاشـجار البنيـة والصـفراء بـدأت تتسـاقط فـي جـزرات شـارع (لينينسكي براسبيكت) الطويل ومع نث ذرات مطر خفيفة وقت الغـروب جلـس عنـد المقاعـد الخشـبية المبللـة المقابلـة لمقهـى هافـانا ينتظـر لقـاء احـد الأقربـاء، وبملبسـه الصـيفي هـذا لـم يعـد يحميـه مـن قرصـة بـرد الليـل وبعتمـة واحسـاسه بوحـدة تقفـص النفس بعض الشيئ، كل هذا عجل من اتخاذ قـرار رجوعـه إلى مدينـة الشـمس والخبـز والتي لا يريـد سـواها، مدينـة طشـقند بلـد المحبوب المنتظر، وقد لفّهُ الشوق إلى تلك الجلسات في القبـب الـزرق وسـط المدينـة واللقـاء بالاصـدقاء وتنـاول (البلـوف) الاوزبيكـي اللذيـذ، وحـان وقـت اللحـاق أيضـا بدراسـته وكليتـه الجديدة.

عنـد وصـوله مطـار طاشـقند ذهـب مباشـرة إلـى الكليـة التحضيرية، عسى وان يلتقي بالمُدرسة (زويا) التي تسكن قريبا مـن البنايـة ويتقصـى مـا فـي جعبتهـا مـن أخبـار حـول (سـفيتلانا) واللقـاء الـذي ينتظـره بشـوق، وياخـذ ملابسـه الشـتوية وحاجاتـه وحقيبته الحمراء المرافقة له اينما حل وذهب وكتيباته التي جمعها مضـيفا لهـا بعضـا ممـا اشـتراه مـن كتـب مـن دار التقـدم بموسـكو والانتقـال إلـى القسـم الـداخلي الجديـد لكلـية الهندسـة ليرتـب غرفته، وليذهب للقاء الرفيق سمير والاخرين في المعهد الزراعي وتسجيل الحضور.

انغمر بدراسته ونشاطه واقامة علاقات أخرى مع الطلبة العرب والاجانب وذلك لقرب القسم الداخلي الجديد لمعهده من الاقسام الداخلية لجامعة طشقند، دراسته الان اختلفت عما كانت في الكلية التحضيرية، حيث الدراسة تكون خارج الاقسام الداخلية في مباني متفرقة لكلية الهندسة المدنية ومختبراتها والمحاضرات العامة والمحاضرات حسب المجاميع والاختصاصات، حيث يتطلب منه النهوض مبكرا والتنقل باستخدام وسائل نقل مختلفة من القسم الداخلي إلى مباني الكلية وبالعكس عند انتهاء الدراسة والعودة إلى القسم الداخلي، ويضاف إليها التسوق والتبضع وتحضير واعداد الطعام في القسم الداخلي ليس كما كان جاهزا في مطعم الكلية التحضيرية، الامر الذي يتطلب وقتا لذلك وخصوصا أيام البرد ونزول الثلج في فصل الشتاء.

خلال هذه الفترة التحق بالدراسة في طشقند عدد من الزملاء والرفاق الجدد؛ زميلان هادئان من كردستان، احدهم فتحي والاخر كروان، وعماد منجي طلبة ماجستير زراعة وبعد انتهاء السنة التحضيرية التحقوا فيما بعد بمختلف المعاهد والجامعات في المدن السوفياتية، نوري المرادي من مدينة العمارة الثوري بالثرثرة، اختصاص زراعة، قادم من اليمن الديمقراطي مع ألته العود، باللقاءات صَدعَ الرؤوس بضرورة الكفاح المسلح وعندما حانت الساعة لانتهاج اسلوب الكفاح بالاضافة إلى الأساليب الأخرى عند انفراط عقد الجبهة الوطنية، ادار بظهره للحزب وامسى كالزئبق لا تستطيع الامساك به وفيما بعد التخرج اتخذ

المنابر البوقية طارحا نفسه ثوري الشغيلة، ويحيى كريدي عندما سُئل من أية مدينة من العراق في أول لقاء للتعارف اجاب؛ طبعا من مدينة فهد، انهى التحضيري وانتقل إلى موسكو، وفي السنة الثانية حل محله جاسم الحافظ من مدينة الثورة وبعد عام التحق به، رأسه الاشعث (كفشته) يشبه رأس كارل ماركس، غاضباً لا يعجبه العجب ولم يهدأ له بال الا بالتحاق نجوى قلبه وحبه وبعد انهاء دراسته سكن مدينة الضباب لندن، ولكل منهم اصبح له فيما بعد موقف من الحزب (سبحان مُغيرُ الحال والاحوال غير حالنا من حال إلى احسن حال).

ومع التحاق مجموعة صغيرة من الطلبة الحكوميين البعثيين بدأت بعض التحركات المعادية والمضايقات الاستفزازية من قبلهم، مثل تمزيق النشرات الحائطية البسيطة لرابطة الطلبة العراقيين في القسم الداخلي لمعهد الزراعة وفي المعاهد الأخرى.

كان وسام مسرورا منهمكا بدراسته وخصوصا في بعض الدروس التطبيقية في تحضير الواجبات الهندسية متذكرا أيام دراسته الجامعية في العراق والسهر حتى الصباح في نسخ الخرائط الهندسية حيث كان مع زملائه في القسم الداخلي يضع المصباح الكهربائي عند نافذة غرفتهم الكبيرة المكونة من أطارين، أو في قاعة خرائط المسح الجوي في القسم المدني حيث يعطف عليهم الحارس كوركيس باعطائهم المفتاح ليلا وارجاعه في الصباح. أو مادة الرسم الهندسي وتدريس استاذهم جميل الخلق وحسن الاخلاق مفيد حسو اخوان وحسين الرحال

في مواد البناء وغيرهم من الاساتذة المتنورين المخلصين ودروس المساحة العملية وغيرها من المواد المحببة اليه وعمله ليلا في شركة المقاولات في بغداد.

اضف إلى ذلك علاقاته الجيدة بالطلبة السوفيات ومن جميع القوميات والاجناس وبالاخص الطلبة الروس والاوزبيك والطلبة العرب والاجانب، وزملائه بنفس الاختصاص في القسم الداخلي وفي حل الواجبات والدروس والتحضير الى الامتحانات الفصلية، اضافة إلى مشاركته في النشاطات والفعاليات الأخرى المتنوعة من خلال عمله في اتحاد طلبة البلدان العربية مع الاتحادات الطلابية الحكومية والمنظمات الحزبية والكومسمول ومجلس المدينة في مناسباتهم الوطنية والاممية واعيادهم وفعالياتهم، وكذلك المشاركة في يوم العمل (السبوتنك) او العمل التطوعي في المزارع التعاونية الفلاحية الجماعية (الكلخوزات) و(السوفخوزات) التي تُسير من طرف الدولة، مثل جني محصول القطن في جمهورية اوزبكستان والتي تعتبر من كبار الدول المنتجة والمصدرة للقطن في العالم بفضل سياسة الحزب الشيوعي السوفياتي في مجال الانتاج الزراعي، حيث تشارك طلبة المدارس والجامعات وهيئات الكومسمول السوفياتي اثناء العطلة الدراسية في العمل وبشكل طوعي تنظم فيه الفعاليات الترفيهية اثناء تواجدهم ومعيشتهم.

شاءت الصدفة ان يحضر وسام مهرجان طشقند السينمائي لدول اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ١٩٧٦ وذلك بدعوة من المخرج السينمائي العراقي عزيز حداد لحضور عروض بعض

الافلام السينمائية من مختلف البلدان المشاركة في المهرجان، كان عزيز حداد ذلك الإنسان المثقف اللولب في هذا المهرجان بكامرته المعلقة على صدره وتغطيته الصحفية ولقاءاته الواسعة مع المخرجين والممثلين المميزين من هذه البلدان، وهي فرصة لا تعوض للحضور ولمشاهدة الافلام المرشحة لهذا المهرجان.

ومتابعته لهذا المهرجان وما تسنى له من مشاهدة بعض الافلام خطر بباله وذاكرته برنامج السينما والناس الرائع التي كانت تعده وتقدمه المبدعة الاعلامية والفنانة التشكيلية اعتقال الطائي جميلة الحسن والاخلاق والانسانة المثقفة الطيبة، والتي تختار الافلام لتعرضها بطريقة تجذب وتشد المشاهد لبرنامجها عندما تشرح جوهر ومغزى الفلم بابطاله واخراجه وانتاجه بوقفة انتقادية، وتذكر، كيف كانت حريصة لدعوة الطلبة لحضور بعض الاعمال المسرحية والمعارض الفنية عندما كانت طالبة في اكاديمية الفنون الجميلة. وكذلك كتابات المهندس والكاتب والانسان المثقف قاسم عجام في جانب الادب والفن والنقد الأدبي والفني، والمساهمات الجادة في جريدة طريق الشعب وصفحتها الثقافية وملحقها الثقافي... كلها اسهمت برفد الوعي الثقافي والفني ومصطلحاته وصقله لدى جيل هذه المرحلة.

عند دخوله السينما (البنوراما) والتي هي بجوار كليته في شارع نوفائي وبمحض الصدفة ان يكون مقعده بجانب الممثل المصري نور الشريف والممثلة ليلى طاهر، بادلهم التحايا والترحاب بما امتلك من لطف ومودة عراقية؛ تعارفوا على بعضهم البعض، يا لها من صدفة جميلة بهذا اللقاء مع هؤلاء

الفنانين العرب الرائعين. وفي المساء تسنى له ومع بعض الاصدقاء دخول فندق اوزبكستان لحضور الحفل المسائي المقام لهذه المناسبة واللقاءات للوفود الفنية والسينمائية المشاركة من مختلف البلدان ورؤية كبار الكتاب والفنانين والممثلين والمخرجين السينمائيين العمالقة من العرب والسوفيات والاجانب من مختلف الدول.

في نهاية كل اسبوع وبعد انتهاء الدروس يسعى إلى الذهاب إلى المعهد الزراعي للقاء الزملاء والاصدقاء من الطلبة العرب والعراقيين ولقضاء بعضا من الوقت ويسهر معهم ويتبادلوا الأخبار وليبرمج الوقت للنشاط اللاحق وخصوصا مع الصديق سمير، وكان يتردد على الكلية التحضيرية يساعد الطلبة العرب القادمين الجدد في اللغة الروسية وبعض الدروس ويتعرف عليهم وفي نفس الوقت يلتقي مع المدرسة (زويا) عندما تكون خفارتها الاسبوعية الدورية ويتجاذبا اطراف الحديث والاهم يتقصى أخبار الحبيبة ومن دُنوّ عودتها. وفي أخر لقاء لهما طمأنته عن حبيبة قلبه بانها سوف تعود قريبا بعد انتهاء مهمتها وعملها أو قبل هذا الموعد في شهر سبتمبر كما في رسالتها الاخيرة وما عليه الا الصبر والصبر الجميل.

اعدت الكلية التحضيرية قبل يوم حفلة لاستقبال العيد دعته الاستاذة (زويا) ولكونه يعمل في اتحاد الطلبة العرب كان عليه القاء كلمة بالمناسبة مع التمنيات برأس السنة الميلادية الجديدة ١٩٧٦، وعند الانتهاء من القاء كلمته سبقته وهَنأته بالعيد:

- كل عام وانت والاهل وسفيتا بالصحة والنجاح، واتمنى لكم اللقاء القريب ليجمعكم سوية، وبالعام القادم نحتفل به سوية.

شكرها على كلماتها التي تريح الصدر وتزيح عنه الهم، واجابها بكل ود ومحبة وبلهجة طيبة:

- كل عام ومحبوبتنا (زويا) بالخير والصحة والنشاط الدائم وتحقيق الاماني لكم وللاهل.

كان هذا لاول مرة يلقي بها خطابا مرتجلا بهذه المناسبة ينتقي فيه اجمل العبارات والكلمات من اللغة العربية إلى الروسية كخطاب الجورجي أو الارمني الجميل في المناسبات والافراح.

وبعد انتهاء الحفل هذا ذهب إلى معهد الزراعة واقاموا حفلا متواضعا جمع الاصدقاء من الطلبة العراقيين والزملاء الجدد عند الصديق سمير وفي الصباح حاول الرجوع إلى قسمه الداخلي بعد ان كسا الثلج الطريق المؤدية اليه.

عندما تقترب اعياد الميلاد ورأس السنه الجديدة وتكون على الابواب ترى الناس يعدون العدة لذلك ويشترون ويهيئون شجرة الميلاد اصطناعية كانت أو طبيعية ويزينوها بالاضواء والالوان ويضعون الهدايا عند قاعدة الشجرة، ويعتبر رأس السنة الميلادية هو عيد عائلي تجتمع فيه العوائل والاقرباء عند الموائد المعدة مسبقا يودعون العام الفائت بما فيه من نجاحات واخفاقات وينتظرون استقبال العام الجديد مع التمنيات وتحقيق الامنيات وتتم فيه توزيع الهدايا على افراد العائلة وخصوصا على الأطفال، يُذكرهُ كل هذا بالاعياد في بلاده وخاصة لدى العوائل المسيحية،

وبلمة الأهل والعائلة حينما يجتمعون حول (مدفأة علاء الدين النفطية)، تتصاعد وتتمازج رائحة البرتقال والفاكهة مع رائحة الشاي المطعم بالهال مع تحضير(الكليجة بالتمر أو السمسم مع جوز الهند) مسبقا من يد امه وخالته واخواته، ويجتمع الكبار والصغار والاقرباء من الابناء والبنات ويكون لجنان موقع الصدارة والاهتمام منبهرا يراقب وسامة وجهها الصبوح وثغرها الجميل، أو عند مرافقة جده في زيارته لريف النيل وجلوسه وتركنه مع قندة واحاديثها ونكاتها الجريئة الجميلة حول المنقلة والشاي والقند لساعة متأخرة من الليل او عند اقربائه في ريف السادة والعتايج، او في المجلس الريفي الكبير(الديوان) عند شيوخ الحمزة أبو حزامين (ع)، لازال طعم هذه الجلسات الحلوة في اللسان ومع اناسها البسطاء وطيبتهم والايام في ذاكرته ولسانه وداخل قلبه.

يقضي طيلة أيام الاسبوع في الدوام وحضور المحاضرات والقيام بالواجبات الدراسية أو الامتحانات الفصلية في القسم الداخلي مع مجموعته، حيث يعيش وسام في غرفته المرتبة مع زميل مجموعته السوفياتي من اصل تركي يعيش في ريف طاشقند ويأتي مرة بالاسبوع، وكل مرة يأخذ حقيبة وسام الحمراء يملؤها بالخضرة والطماطم الطازجة والخبز التركي والجبن الأبيض، أو يستعملونها عندما يضعون فيها ملابس الرياضة، وذات مرة نسوها في الساحة المجاورة لسكنهم حتى الصباح.

وكذلك لحضور السمينارات المتنوعة مع صديقه اليوناني كوركيس في جامعة طاشقند قسم الفلسفة وذلك لقرب الجامعة

من الاقسام الداخلية، وبعلاقته هذه استفاد منه وسام بالشيئ الكثير؛ كاللغة والفلسفة والنقاش والرأي في المواقف والنشاطات والخبرة السياسية وطيبة الاخلاق والتواضع، ومن خلال كوركيس تعرف على الاستاذ العراقي صالح بخشي استاذ اللغة العربية في جامعة طاشقند والقادم من كردستان في فترة لجوء ملا مصطفى البرزاني ومقاتليه إلى جمهوريات اسيا الوسطى في الاتحاد السوفياتي، استوطن وتزوج واستقر في طاشقند بعد رجوع ملا مصطفى للعراق، وروى الاستاذ البخشي بان استاذا اديبا اسمه حسن النقاش من كربلاء رحل من العراق في فترة ١٩٦٣ وعاش في طاجيكستان والتحق بالاكاديمية هناك وكان من ضمنهم أيضا الشاعر عبد الوهاب البياتي.

آه.. كم للعراق الكثير من الابناء المنسيين في الشتات والغربة.

اللقاءات بين وسام وصديقه اليوناني تتكرر كل اسبوع لان القسم الداخلي الذي يعيش فيه على الطريق وقريبا من القسم الداخلي لمعهد الهندسة، يتناقشون الأوضاع السياسية العامة، واهم المستجدات والوضع السياسي في العراق، وكيفية الاستعداد على اقامة حفل بمناسبة ذكرى تأسيس الحزب الشيوعي العراقي في ٣١ اذار، ودعوة المنظمات الطلابية والحزبية والحضور وتأمين القاعة، كل ذلك يجري بالتنسيق فيما بينهما اضافة إلى جهود سمير وباقي الرفاق والزملاء في احياء هذا الحفل المكرس لذكرى التأسيس.

في بداية العطلة الصيفية ابلغه صديقه اليوناني كوركيس بان هنالك دعوة للمشاركة في مهرجان الشبيبة الشيوعية اليونانية، وان أخاه الأكبر من ضمن المشرفين على هذه الفعالية في اثينا وهومن كوادر الحزب الشيوعي اليوناني في اثينا وعضو في البرلمان، ولا تحتاج إلى امكانيات مادية، حيث المهرجان يقوم بذلك وبعد الانتهاء من المهرجان يمكن قضاء مدة أخرى في زيارة اليونان ويستطيع المكوث مع أبيه في بيتهم في ميناء بيريه.

اعتذر وسام لصديقه كوركيس وذلك لعدم توفر الامكانية المادية لديه وهو لا يستطيع السفر فارغ اليدين، ورجع وسام متألما حزينا خائبا مكسور الخاطر لغرفته لهذه الحالة، فاذا بالحقيبة الحمراء تقع امامه وقد أُفرغتْ مما حوتْ من الخضراوات والبصل من كرم صديقه التركي تلمان في الغرفة وتركها في الممر ورجع إلى قريته.. فقرر وسام ان ياخذ ملابسه إلى المكوى فلم يجد كيسا يضع فيه الملابس الا حقيبته الحمراء الملازمة له منذ أيام خدمته العسكرية في معسكر الرشيد وسفره إلى الاتحاد السوفياتي، فوجد في داخلها بعض الاتربة الممتزجة مع بقايا الخضراوات، اراد ان ينظفها بطرقها عدة مرات بالحائط وبقوة، فطارت منها اوراق نقدية خضراء اللون ملصقة ببعضها البعض إلى داخل الغرفة، لقد لمحها، تسمر بمكانه يراقب من ورائه ومن جنبه يسائل نفسه عدة أسئلة:

- ايجوز كوركيس قد رمى هذه النقود.
- أيجوز صديقه تلمان جاء بها.
- اهو كمين قد نصب له.

خرج إلى الممر الرئيسي يتفحصه، خرج للمطبخ، فتش الدرج والحمام والمرافق ودق حجرة الجيران ولم يجد احدا، دخل الغرفة تفحص النقود فوجدها ثلاثمائة دولار، من الذي اتى بها، تفحصها مرات ومرات، اعاد عدها، عصر ذاكرته، منذ مغادرته بغداد ونزوله في فندق الكومسمول في موسكو، محطة القطار، سفرهم إلى طاشقند بالقطار، في داخل الكبينه، قف... قف... قف.

تذكر... تذكر...، يوضح لنفسه يذكرها:

- اتذكر يا وسام عندما نام الاصدقاء السودانييون في الكبينة، اخرجت من جيب القميص المزرور نقودا ووضعتها في الحقيبة الحمراء بين البطانه الداخلية وغلافها الخارجي تحسبا من السرقة أو الضياع خلال الطريق وانها لا تجلب النظر، وجدتها وجدتها وجدتها، حقاً أنها (فلوس الحلال) كما قال جدي.

ترك الملابس وهرع مسرعا كالبرق لصديقه كوركيس يناديه من شباك غرفته في الطابق الأول، فدعاه كوركيس ان يصعد للغرفة ليتناول العشاء معهم.

سأله كوركيس:

- ها مالذي حل بك يا وسام؟.

اجابه وسام:

- لقد غيرت رأيي، الان استطيع السفر لحضور مهرجان الشبيبة.

سأله كوركيس:

- وكيف لك ذلك؟.

اجابه وسام:

- رزق من الله، رزقكم في السماء وما توعـدون!.

كرر صديقه السؤال:

- وكيف ذلك؟.

اجابه وسام:

- لا تفكر لها مدبر!.

برطم كوركيس لنفاذ صبره ولعدم فهمه بما يتفوه به وسام وسأل بجد:

- كيف لك ذلك؟.

اردف وسام سائلا صاحبه:

- يا اخي فلسفها بعض الشيئ، وانت الفيلسوف الاغريقي!.

- أي لا تيأس ولا تحزن ان الله ارحم الراحمين. فكيف بقـول شاعرنا بدر شاكر السياب؛ أي حزن هذا الذي يبعث المطر!.

فقـص وسـام لصـديقه كيـف دحـس هـذه النقـود فـي حقيبتـه الحمـراء، بـين البطانـة الداخليـة والغـلاف الخـارجي احتياطـا مـن فقـدان نقـوده فهـذه هي كالاحتيـاط، وهـو فـي القطار بطريقه إلى طاشـقند، وتركـت لأجل مسـمى ونسى ذلك. وطيلة هـذه السنين والحقيبـة هـذه رافقتـه وتجولـت معـه بـين المـدن وتـداورت بـين الايادي الأخرى. وقد اعطاها لصـديقه التركى تيلمان ليجلب بها الخضـراوات مـن قـريتهم ويتركوهـا مرميـة فـي الممر لفترة طويلة ولحين الحاجة إليها لـم يمسـها احد، وبعض الأحيان نضـع فيها الملابس والاحذية الرياضية عند لعب كرة القدم، واحد المرات نسيناها في الساحة الرياضية خلف القسم الداخلي.

اجابه كوركيس متعجبا:

- أنها حقيبة وسام الدين السحرية اذن وليست مصباح علاء الدين السحري، أنها اسطورية، أنها تحفة. أنها المنقذ في الوقت المناسب.

فاتفقا على ان يرسل كوركيس برقية لاخيه في اثينا ولابيه في ميناء بيريه يخبرهم بقدوم رفيق من العراق للمشاركة في مهرجان الشبيبة.

قبل يوم من موعد السفر إلى موسكو، اشترى للدكتور لطيف وحسبما اوصاه في السفرة السابقة بان يجلب من طاشقند بعض الخضراوات من الكرفس والريحان والفلفل الحار والطماطم الحمراء. وعند وصوله إلى موسكو امسى وبات ليلته عند دكتور لطيف في الاكاديمية الطبية في منطقة السوكل، وفي الصباح الثاني اقلعت طائرته إلى اليونان وكان اخو كوركيس الأكبر في استقباله في مطار اثينا، اخذه للبيت في منطقة ميناء بيريه لكي يستريح ومن الصباح يكون قد اعد له برنامجا لزيارته وبدايته اللقاء في مقراللجنة المركزية للحزب الشيوعي اليوناني، وقد اتضح بان والده أيضا يتقن اللغة الروسية أيضا وذلك منذ أيام الحرب الاهلية اليونانية عند انتقالهم مع مجاميع المقاتلين من الجيش الديموقراطي إلى طاشقند في الاتحاد السوفياتي بمعسكرات لثلاث سنوات، ونقل كبار السن والاطفال والمصابين ليوزعوا على بلدان المعسكر الاشتراكي لقربها.

امتدت الحرب الاهلية في اليونان ما بين ١٩٤٦ – ١٩٤٩ بين جيش الحكومة اليونانية المدعومة من قبل بريطانيا والولايات

المتحدة الامريكية والتي كانت نواته من القوات اليونانية العائدة من المنفى مع البريطانيين والتي تعاونت مع الاحتلال النازي، وبين الجيش الديموقراطي اليوناني وهو الجناح العسكري للحزب الشيوعي اليوناني بدعم من يوغوسلافيا والبانيا وبلغاريا وقوامه الاساسي للثوار اليونانيين الذين قاتلوا ضد القوات الالمانية والايطالية خلال الحرب العالمية الثانية.

ذهبوا منذ الصباح إلى وسط العاصمة اثينا ومن ساحة الجندي المجهول ومن خلال السوق القديم صعودا إلى أكروبوليس المعبد اليوناني القديم ويعني المدينة العالية، والذي يجسد الحضارات والاساطير والاديان، واتخذه اليونانييون كقاعدة حصينة لمقاومة القوات الغازية، يرتفع عن سطح البحر ١٥٠ مترا وعلى مساحة ٣٠ الف متر مربع تم بناؤه بعد الانتصار على الفرس في منتصف القرن الخامس ق.م.

وبعد ان أتمّوا رحلتهم المبهرة هذه نزولا إلى وسط المدينة ومن ثم إلى مقر اللجنة المركزية، حيث استقبل وسام اجمل استقبال رفاقي، وللوهلة الأولى احس بنفسه كانه يتعامل مع رفاقه العراقيين واحس كانه في مقر من مقرات الحزب في العراق، حضر اللقاء مجموعة من رفاق الحزب كبار في السن ومجموعة من الشابات والشباب، عقد اللقاء بعد ان رحب به اجمل الترحيب، بدأ الشكر لهم لاتاحتة هذه الفرصة لحضور المهرجان متمنيا تحقيق النجاحات ولما تصبو له الشبيبة اليونانية ويصبو له حزبكم العظيم. بدأ بمقدمة عن الحزب وما تعرض له من اضطهاد واعتقال وسجون واعدامات منذ تأسيسه ١٩٣٤ ومرورا

باعدام قيادة الحزب في ١٩٤٩ واحداث ١٩٦٣ الدموية والتي قدم الحزب الاف الشهداء من بنات وابناء الشعب العراقي ومن كافة القوميات والاقليات وصولا إلى اعلان الجبهة الوطنية والتي منذ بداياتها انتهجت السلطة الحاكمة سياسة الترغيب والترهيب (الحلوى بيد والسوط بيد) بعد ان جملت صورتها في بعض بلدان المعسكر الاشتراكي، والان بدأت بالتضييق على منظمات الشبيبة والطلبة والمرأة بل بالاعتقالات الأمر الذي دعى الحزب لتجميد عمل هذه المنظمات الديموقراطية وخصوصا ممن التحق بالخدمة العسكرية. حيث طالت الاعتقالات البعض منهم ورميهم بالسجون. الأمر الذي يتطلب تضامنا اميا من الجميع.

شكروه على هذا التقديم طبعا باللغة الروسية وبدا احد المتحدثين عن نضالات الحزب من فترات تأسيسه عام ١٩١٨ مستلهما كمونة باريس والجهود الثورية الشيوعية في الولايات الامريكية والمانيا وروسيا ونضال الحزب في الاضرابات والتظاهرات المناوئة للحرب وفي تأسيس النقابات العمالية والذي قوبل هذا النضال والنشاط بمعارضة الحكومة له والاقدام على طرد جميع اعضاء الحزب من الخدمة العامة ونفيهم وبقيام النظام الدكتاتوري في ١٩٣٦ حُظر الحزب وبدأت الملاحقات والمعتقلات، ونضاله في فترات الحرب الاهلية ١٩٤٦ – ١٩٤٩ وما واجهه الحزب من تأثيرات سلبية على عموم العمل الانصاري، ومنها جراء اختلاف المواقف بين ستالين وجوزيف تيتو في يوغسلافيا، ومرورا بالنظم الدكتاتورية التي تضاهي في قمعها الداخلي فاشية موسوليني، حيث كان الانتماء للحزب يُعد

(جريمة) يمكن ان تؤدي إلى الاعدام حتى عام ١٩٥٥، والى اخر النظم العسكرية التي سادت عام ١٩٦٧ – ١٩٧٤. واختتم وسام حديثه بانه الان يشعر كما انه في وسط رفاقه العراقيين حيث هنالك اوجه تشابه كبيرة بين حزبينا، وذلك لان تضحياتنا الجسام ومعاناتنا مشتركة متشابهة. خرج وسام من هذا اللقاء مفتخرا بتقديمه لكل ما دار من حديث واستفسار، ولكنه لا يعرف من أين له هذا؛ مصدر الالهام والشجاعة وجميل الكلام!.

انتهى هذا اليوم وغدا يبدأ مهرجان الشبيبة الشيوعية، التمسه الصديق فاسيلي عذرا بالسماح له لانجاز بعض المهام في توزيع الجريدة وبعدها اللقاء عصرا والذهاب إلى ميناء بيريه وسوف يكون الوالد في انتظارهم، حيث اعد لهم طاولة في احد المقاهي اليونانية المشجرة الممتدة على طول الساحل، واغلب الناس في هذه المنطقة هم من الأنصار والمقاتلين الذين عاشوا في طشقند بعد انتهاء الحرب الاهلية حيث اكثرهم يتكلم اللغة الروسية ويحضرون الاكلات والمشروبات الروسية، اكملوا سهرتهم في هذا الميناء حيث لازال رذاذ الموج يلاطم زجاج تلك المقهى الذي انطلق منها زوربا اليوناني إلى جزيرة كريت.

حضر المهرجان مبكرا، كثيرة هي الوفود من الشبيبة الشيوعية اليونانية والاجنبية من دول المعسكر الاشتراكي، شبيبة بمختلف الاعمار والاشكال والمهن من كل مدن اليونان بالملابس الحلوة الجميلة وبالزي اليوناني، اعداد منظم من قبل المشاركين وبحضور الحزبين والانصار القدامى من رجال ونساء، وكان حفلا سياسيا وفنيا على اجمل تقديم واستعراض، وبعد الانتهاء

من المهرجان تجول في المدينة لبعض الوقت وانتظارا لعودة فاسيلي من عمله لكي يرجعوا مساءا إلى ميناء بيريه للمبيت في بيتهم.

وفي اليوم قبل الأخير وقبل الظهر اجتمع قسم من الشبيبة في المنطقة ونظموا حفلا جميلا بمناسبة انتهاء مهرجان الشبيبة عند الكورنيش المطل على الميناء ونزل قسم منهم للسباحة وبكل الألوان والاشكال، وانجرف وسام معهم بالعمق غير مبالٍ لموج البحر، وفي هذه الأثناء ابتلع قطعة من الخش فاختنق وغص بها وغاص وغرق في العمق، ولم يفطن على نفسه الا وهو ممددا على رمل الساحل، والشبيبة مجتمعة مضطربة حائرة تحيط به.

وبعد ان استيقظ من غيبوبته واسترجع وعيه يقول:

- حقا دخلت لحظات الموت، واستشهدت بالشهادة ولم اخف منه!.

ويتابع:

- وأنا وسط هذه الحالة تساءلت أين مني هذه الشبيبة والشابات الجميلات بمايوهات السباحة.

واستوضح وسام كل تلك اللحظات مرة أخرى بينه وبين نفسه؛ نعم لقد غرق حقا وابتلع جزءا صغيرا من قطعة الخش المنقعة بالديزل والتي دخلت جوفه، ولم يستطع اخراجها من فمه فاختنق وارتبك بين السباحة نحو الضفاف وبين اخراجها بيده، فما هي الا لحظات حتى غطس وغرق، لم يكن احدا بالقرب منه، ولم يشاهده الا رجل السباحة الخفر في الكورنيش وهو رافعا

يـده، انقـذه وسـحبه والقـاه علـى السـاحل واجـرى لـه التـنفس الاصطناعي وغسل المعدة.

بعد ان استرجع قواه، نهض واغتسل وكان شيئا لـم يكـن، عـاد إلى البيت ضاحكا يناقش نفسه:

- أأقطع كل تلك المسافات شمالا وشرقا وغربا واسافر كي أموت في بلد أخر ووسط هذا الجمال الاغريقي وفي ميناء بيريه!.

ولكن:

- أنها اجمل ميتةً بين اذرع الحبايب (الحبيبات) وعلى البلاج، حيث ترى الجنة والحور العين مقدما قبل دخولها بسلام آمنين.

ويردد قائلا:

- كل نفس ذائقة الموت، ولا تعلم باي ارض تموت!.

منذ الصباح نهضوا سوية، واخذه فاسيلي إلى مركز المدينة ليتجول بعض الوقت ولحين انتهاء عمله في البرلمان في نفس الموعد عصرا وبعدها ياخذه لبعض المخازن التي يعرفها للتبضع، اشترى حينها بعض الحاجيات لاصدقائه في موسكو وطاشقند وللحبيبة فستان وللمدرسة زويا هدية متواضعة وبعض الهدايا المتواضعة إلى كوركيس وكل شيء اشتراه بفضل ما ادخرت له حقيبته الحمراء.

قضى اجمل الاوقات في مقر اللجنة المركزية للحزب والشبيبة، وكم هو فخور بتعارفه مع هؤلاء الرفاق لاوجه التشابه بينهم وبين رفاقه في الاخلاق والتواضع والثقافة، تذكر وسام رفاقه المعلم عبد الله وناصر والرفيق الخال والكبير بالعمر الرفيق

أبو حاتم الذي كان الوجه الأول في محلية الحزب في الحلة والمنسق في الجبهة الوطنية مع البعث، الذي كان منذ الصباح يذرع شوارع الحلة حينما يعبر الجسر الجديد، يتفقد الناس والسوق ويزور المرضى من الرفاق في المستشفى ويساعد المحتاجين ويجمع التبرعات ويعقد الاجتماعات وفي الليل يرجع إلى قريته، وها هو فاسيلي يعمل في البرلمان والنقابات ويتابع عمله الحزبي في المقر ويقوم بتوزيع الجريدة والمنشورات مساءا، رجال ثوريون حزبيون مثقفون بمعنى الكلمة، وما كوركيس الا امتدادا منهم بالاخلاق الجميلة والالتزام.

لقد تركوا لديه اجمل الانطباع.

في اليوم الاخير عملوا له جلسة توديعية وحملوه تحاياهم الرفاقية وتضامنهم الاممي مع الحزب. وفي الصباح اقلع راجعا إلى موسكو بلد الثلج والحب والحلم ومن هناك إلى بلد الخبز والشمس، بلد المحبوب.

رجع منتشيا فخورا بهذه المشاركة التي استثمرها باستعراض للوضع السياسي في العراق وبدايات التدهور في وضع الجبهة الوطنية ولما يتعرض له الحزب من انتهاكات ومضايقات واضطهاد، فخور أيضا بشرف اللقاء مع الرفاق اليونانيين بمختلف الاعمار، ازداد جرأة وثقة بالنفس من التحدث والحديث المباشر في اللقاءات. وبلهفة يسابقها امل اللقاء بالاصدقاء وبعودة الحبيب.

التقى بالرفاق والاصدقاء ومعارفه في موسكو وقدم تقريره وانطباعاته حول ما شاهده في مهرجان الشبيبة ولقاءاته التي

نظمها فاسيلي الاخ الكبير لكوركيس والتي تناولت الوضع السياسي في العراق. مكث يومين في موسكو بنفس المكان في منطقة السوكل عند دكتور لطيف منصور وترك عنده بعض الهدايا لاصدقائه وبما بسطت يداه وحقيبته كل البسط.

تحسر على عدم اللقاء بمعلمه ناصر وذلك بسبب مغادرته لموسكو وتركه المدرسة الحزبية بمهمة حزبية ولوجهة سرية.

كانه الطير المهاجر يسابق الريح عاد لمكانه ليتفقد عشه الذي بناه.

أي شوق هذا الذي يدفعه للعودة إلى مدينته!.

وصل طاشقند وفي اليوم الثاني التقى كوركيس وشكره على هذه الدعوة لحضور المهرجان واللقاء مع الرفاق في اثينا والزيارة الترفيهية وهذا الاعداد الجيد وما قدمه والده واخوه فاسيلي من حسن الضيافة والاهتمام وقد تركت الزيارة حقا عنده اجمل انطباع. سلمه بعض الهدايا التي جلبها من والده واخيه.

لم يتبق الا أيام قليلة على بداية الفصل الدراسي الجديد فقرر ان يزور سمير والاصدقاء والزملاء في المعاهد الأخرى وما الجديد من الأخبار وماهية العمل اللاحق، وهو بطريقه عرج على الكلية التحضيرية ليلتقي بزويا شهرزاد سمرقند وعندها الخبر اليقين، فوجدها كعادتها تعد النشريات والاستعداد لاستقبال الطلبة الجدد، فوقعت عينها بعينه وتعانقا برهة وقالت له:

- الله ربي قد بعثك في اللحظة المناسبة كي تساعدني وهذه الأقلام والاوراق.

اجابها:- لك كل ذلك.

اخرج من جيبه عقدا فضيا مرصعاً بالحجر الشذري:

- هذه هدية من زوربا اليوناني.

وفيما تفتح الهدية فغرت عينيها، شكرته وقبلته:

- لك مني اجمل هدية بعد اسبوع تكون امامك.

اهتزت كل أركان جسده وقال لها:

- أنت الهدية... والهدية في قلبي.

هزت برأسها ضاحكة وعيناها تتفحصه واوضحت:

- الهدية الأخرى!.

بالطبع قد تيقن من مقصدها وفهمها (على الطاير) وعلامات الفرح واضحة ولم تلمه الأرض من فرحته، قال لها:

- سوف اخط لك كل المناسبات وما تطلبيه ايتها البنت التي سلبت عقلي، الشامة في خدها والحب في عينيها.

اجابته:

- الهدية الأخرى... لها اجمل العيون والحب.

شكرها وسام لكل مواقفها وعلاقتها الطيبة معه ومساندتها له في أيام دراسته في الكلية التحضيرية ووقوفها إلى جنبه ومساعدته، والاهم خبر عودة هدية العمر. استرخص منها لزيارة رفاقه ووعدها بالغد صباحا سوف يكون في الكلية التحضيرية لانجاز وسائل الايضاح وبعض التخطيطات التي تريدها. ودعها قاصدا موقف الباص يتغنى ويردد مقطعاً من اغنية أبو بكر سالم:

امتى أنا اشوفك يا كامل وصوفك

متى متى قول لي بتسمح ظروفك

انسى اسى الدنيا من ساعة ما اشوفك

متى متى قول لي يا سيد المضانين

امسى ليلته عند زميله سمير في المعهد الزراعي ووافاه باخبار زيارته الناجحة إلى اليونان لحضور المهرجان وكان في استقباله في المطار شقيق كوركيس وتنظيمه اللقاء بالرفاق اليونانيين، ومن جانبه استطاع ان يعكس لهم الوضع السياسي في العراق وسياسة البعث والتفرد في السلطة، وشكره سمير على الهدية من اثينا، واخبره ببعض الأخبار وابلغه باحتمال قدوم طلبة جدد، واجابه وسام:

- إذا كان سفرهم عن طريق القطار فانا أول من يذهب لاستقبالهم في المحطة.

رده سمير:

- نذهب سوية لاستقبالهم عندما يحين سفرهم، وموعدنا غدا عصرا عند مركز الاتصالات في مركز المدينة كي نتصل بموسكو حول الموضوع.

وافقه وسام على ذلك، المهم ان يذهب لمحطة القطار، سوية او على انفراد. منذ صباه ارتبطت محطة القطار محببة بذاكرته، وخلال دراسته استقبل الكثير وبوسع قلبه الذي هو كوسع المحطات.

منذ الصباح توجه إلى الكلية التحضيرية وفي القاعة الكبيرة وجد المدرسة زويا تنتظره على الموعد، فباشر بالتخطيط على الورق الكارتون وبعض الكتابات حول بداية العام الدراسي الجديد واخرى متفرقة، وجلسا الاثنان يتبادلان اطراف الحديث وعن زيارته إلى اليونان وحديث عن حبيبة الروح وقرب الامل،

تناولا الغداء في مطعم الكلية في القبو وبنفس مكانهم أول مرة، انهى التخطيطات وما طلبت منه ان يساعدها، ودعها متوجها إلى مركز المدينة لموعده مع سمير عند مركز الاتصالات.

وعلى موعده مع سمير تم الاتصال بالرفاق في موسكو، واتضحت أخبار وصول الرفاق الجدد. وتم لاحقا استقبال زميلين من اليمن الجنوبي، وزميل من فرنسا وزميلة قادمة من بلغاريا مثلها مثل الهاربين من بطش النظام وأصبحت فيما بعد زوجة سمير حيث تعّرفَ عليها في فترة سفره إلى هناك.

كم كان الربيع جميلا في طاشقند بخضرته والزهر والشجر، الربيع يطلق الحرية لحسن الوجه والقِوام ليضيف للجمال المحيط جمالا، خفة ونشاطا، لان كل شيء يتبرعم وتتمتع الابصار والنظر بما خلق الله من جمال، وللخريف جماله الاخر، حيث تزهو الاشجار باوراقها بكل الألوان وعند تساقط أول نثاث لحبات المطر تبلل الشوارع تذكره بزخات المطر الخفيفة العابرة في الريف تتعالى عندها رائحة التراب المبلل ممتزجة برائحة العاقول وتشده اكثر لريفه الفراتي الجميل ولاهله ووطنه ونقاش رفاقه، وحينما يشتد البرد تتزين الاشجار بحلة نثار الثلج البيضاء ويتصاعد دخان المدافئ للعلالي.

عند سكنه في الكلية التحضيرية كان يذرع شارع بكدان خميلنتسكي تحت رذاذ المطر لعله يغتسل رأسه وعيونه ويبلل جسده، وحين ينقطع المطر يعود للقسم الداخلي. كما كان بفتوته يهوى المشي عند نزول أول ذرات المطر بشارعه الطويل في

مدينته، ظنا منه بان ماء المطر يطهر القلب والروح من السوء... مطر مطر مطر. ويتكلم مع نفسه يردد ويقول:

- احب المطر، احب السياب والنواب، احب البصرة، احب كردستان.

- احب العراق واحب الحزب واحب الناس البسطاء.

بعد وصول اعداد كبيرة من الطلبة الحزبيين البعثيين الحكوميين إلى طاشقند، سادت علاقات واجواء مشحونة يشوبها الحذر وعدم الاطمئنان لهم مع الشك بان هيئة بعض منهم توحي كانهم رجال امن واستخبارات وليسوا بطلبة وذلك لتقدم اعمارهم، وحسب تصرفاتهم وتجمعاتهم ومواعيدهم المشبوهة في المطاعم والفنادق الفخمة والبارات والنوادي الليلية، واخذوا يتحركون على بعض الطلبة مستغلين وضعهم المادي والدراسي المتردئ لاستمالتهم لجانبهم في جمع الاخبار عن رابطة الطلبة والمقيمين العراقيين. كانت السفارة العراقية تخصص لهم اموالا طائلة تصرف ببذخ لاغراء البعض من الطلبة العراقيين والعرب والاجانب متذبذبي المواقف متدنيي الوعي السياسي في هذه اللقاءات. وكان اكثر الطلبة في رابطة الطلبة العراقيين وبعض المقيمين مبعدين عن السفارة حيث لا تجدد لهم جوازات سفرهم.

ولكن بالرغم من كل هذه الأساليب والتضيق استطاع وسام مع الزميل سمير ان يبذلا ما في وسعهما من اقامة علاقات واسعة بين صفوف الطلبة العرب والاجانب وحظيا بالاحترام واستطاعا في عكس سياسة الحزب وما يتعرض له رفاقه واصدقائه من

مضايقات واعتقالات في داخل الوطن خصوصا بعد تجميد منظمات الشبيبة والطلبة والمرأة وبدايات انهيار الجبهة الوطنية.

التحق محمد قاسم بدار الترجمة في طاشقند كمترجم قادما من موسكو وسكن نفس الشقة التابعة للدار والتي كان يسكن فيها سابقا المترجم فاضل شريف قلي الذي انتقل أيضا إلى موسكو حيث استوعبت الاصدقاء المقربين واقيم فيها عرس سمير على زوجته القادمة من بلغاريا بحفل متواضع اعده محمد قاسم ضم الزملاء العراقيين.

كان محمد قاسم يحب تأليف وصنع النكتة، حيث قبل جلوس الضيوف عند طاولة الحفل واثناء دخول سمير الحمام وتعريه للاستعداد للجلوس مع الضيوف لاحظ محمد قاسم بان جسم سمير (مشعرا) مغطى بالشعر بظهره وكتفيه ويديه.

اطلق ضحكاته المستمرة ليثير انتباه الاصدقاء وناداهم جميعا متسائلا:

- احلفكم بالله اهل هذا الزميل بشر أم صخل؟.

تجمع قسم منهم عند باب الحمام ليشاهدوا الأمر، وردا لسؤاله اجابوه:

- انه فحل... فحل.

ضحك الجميع وواصلوا حفلة العرس هذه.

(زفيناه واخلصنا منه).

6

يخرج وسام عادةً يوم السبت بعد الانتهاء من دراسته، ويُعتبر يوم السبت والاحد في الاتحاد السوفياتي نهاية الاسبوع والاستراحة، ملتقى الاحباب والزيارات واستراحة العوائل والعاملين في مؤسسات الدولة. وقلبه يزداد خفقانا راوده احساس وشعور بان لقاءا ما سيكون، وعند مروره بالكلية التحضيرية ووجد زويا خفيرة منذ الصباح، نادته وابلغته بان الهدية قد وصلت البارحة عصرا فلندعها ترتاح ونذهب غدا إلى شقة أمها الجديدة. لقد شهق ولا تلمه اليوم الأرض.

منذ الصباح تأنق وذهب للكلية التحضيرية والتصق بمدخلها وبابها الخشبي الكبير على موعد بقدوم زويا شهرزاد.

قبل الظهر اقبلت شهرزاد سمرقند متأنقة باجمل الملابس تبرز مفاتن جسمها، أستشارها في شراء بعض الحاجيات، ومسئلة الشراء هذه تسيطر عليه وتعكس اصالته وكرمه وكل عاداته الريفية، حيث لا يستطيع ان يزور احدا ويداه فارغتين من الهدية، قررا ان يستقلا التأكسي إلى العنوان الجديد للشقة وبطريقهم يتوقفوا عند البازار لشراء فاكهة وباقة من الورد كعرف متداول عند دخول البيت أول مرة والاهم لاول مرة. اشترى باقة ورد كبيرة من الورد الجوري المرتوي كتلك التي تعد في مناسبات الاعراس متأنقا ببدلة جميلة، اشار لهم سائق التأكسي بوصولهم

العنوان الجديد والمجاور للعنوان القديم، دخلت زويا الشقة وهو من ورائها، والدة سفيتلانا كانت باستقبالهم، دخلوا غرفة الاستقبال، سلم على العمة أم سفيتلانا وقبل يدها مهنئاً على استلام الشقة الجديدة وعلى سلامة وصول سفيتلانا، جلسا معا تبادلا اطراف الحديث وحول دراسته ومعيشته الطلابية، وبعد مضي قليل من الوقت استرخصت منه ودخلت المطبخ لاعداد شيء ما، وتوارت زويا هي الأخرى عن الأنظار لكي يحلو لهما اللقاء، واصبح وحيدا في الغرفة ودقات قلبه تتصاعد قلقاً ومتلهفاً يترقب ظهور الحبيبة.

وما هي الا لحظات واشرقت الحبيبة حسنة القوام بشعرها الغجري المتدلي على الارداف، بفستانها الأبيض اللائق، نهض وسام وانتصب وارجع رأسه للخلف متعجبا يتفحص ينظر لهذا الجمال مقدما لها الورد ويسائل نفسه:

- اهي حقا تلك التي التقيتها قبل سنتين في فندق الكومسمول في موسكو وخفق قلبي لجمالها من أول نظرة.

- اهو الحب الموعود!.

دنت سفيتلانا نحوه بلهفة وشوق وهدوء كأنها بدخلة يوم العرس، تشابكت الاذرع وانطبقت الاعناق والرقاب وتلاصقت الاجسام والتحمت حباً وعشقاً وشوقاً كانهما جسم واحد، تعانقا وضمها إلى صدره واطبقت رئاتهما على بعضهما البعض احس بدفء صدرها الطيب، هي الظَمأَى وهو الظمآن منذ ان تلاقت عيناهما أول مرة... لفه عطرها الانوثي وتسلل إلى اعماق روحه،

وبرحيقها انطبقت الشفاه وتلاصقت وطالت القبل، وبعد صمت طويل نطقت:

- كم احبك.

وبتنهد شفتيها مردفة:

- وأنا احبك

هيأت زويا وصديقتها الصحون والكؤوس، ووضع الورود في مزهرية جميلة، والكل ينتظر اللحظة المناسبة لدعوة الحبيبين اللذين طال انتظارهما للجلوس حول المائدة.

طال التصاقهما ولم يفتكا الا بنحنحة زويا شهرزاد عند الباب:

- احم احم ايها الابناء، أين انتما، نحن هنا!.

بالكاد انفكا عن بعضهما البعض كانهما قطعتا مغناطيس، أنها قوة الحب والعشق والانتظار والشوق.

اهداها ما اختاره من اليونان، فرحت بالفستان الجميل، وشكرته على الهدية والتي لها دلالة واضحة في تمعنه واهتمامه. جلسوا جميعا حول الطاولة وتناولوا ما لذ وطاب وحتى ساعة متأخرة من الليل تناولوا اطراف الحديث سوية وعلى انفراد لحديث الروح منذ اللقاء الأول، منذ النظرة الأولى، وانزلاقها في محطة القطار وتعذر السفر إلى طاشقند لاستقبالهم مرورا إلى ظروف عملها الصعب باليمن وخططها المستقبلية.

اصبحا كل يوم يلتقيان في السينما والمسرح والمعارض الفنية والمتاحف ويتمشيان في الحدائق والمتنزهات العامة متأبطين أذرع بعضهم البعض حبيبان فرحان تغمرهما السعادة

يتناقشان في الادب والفن والسياسة وتحت تساقط قطرات المطر والثلج، صارت تحضر معه الندوات والحفلات بالمناسبات الوطنية لاتحادات طلبة البلدان العربية والاستماع اليه عند القاء كلمته الخطابية باللغة الروسية لتصحيح اخطاءه اللغوية، ونقاشها عن الوضع في العراق وعن الأهل هناك، واتضح بانها ملمة بتطور الأوضاع، وتجدر الاشارة إلى ان اهتماماتها الادبية قد اثرت عليه في بعض القراءات في الادب الروسي... استمرت هذه اللقاءات وبعد انتهاء عملها كل يوم أو بين يوم ويوم، وقبل حلول رأس السنة الجديدة اتفقت معه ان يعيشا سوية وينقل حاجياته الضرورية وكتبه ولوازمه إلى شقتهم الجديدة وبموافقة امها. قبل أيام من حلول رأس السنة الجديدة استعدوا للتحضيرات بتزيين شجرة عيد الميلاد، وقام وسام بنفسه باعداد الاطعمة الاوزبكية التي اتقنها بشكل جيد بطريقة الزميل الكربلائي كاظم الرماحي والذي يحسن اختيار (البهارات) العراقية لتضيف نكهة وطعما طيبا، وما لذ وطاب من الاكلات والشراب. تذكرحلول هذه الليلة باهله وامه واخوته واخواته ولمة العائلة والاقرباء وحضور جنان في بيتهم أو في بيت الخال سيد جابر. حلت ليلة رأس السنة واجتمع الاحباب بالحضور البهيج والوجه الحسن، زويا شهرزاد والمدرسة الارمنية سونيا الجريئة ووالدتها الطيبة ووسام (والي الحرم) بينهم.

استمر وسام كعادته بدراسته ونشاطه حيث يقع على عاتقه الكثير من العمل والزيارات واللقاءات والاجتماعات بين المنظمات الطلابية والحزبية في تنسيق النشاطات والفعاليات بين

اغلب المنظمات العربية، والذي زاد من هذه الصعوبات التحاق عدد كبير من الطلبة الحزبيين البعثيين وبروز المضايقات بتصرفاتهم وسلوكهم المشين، فمثلا يقومون بتمزيق النشرات الحائطية التي تعدها رابطة الطلبة العراقيين في المعاهد وخصوصا في معهد الزراعة لكثرة عددهم وتواجدهم فيه، فعند تمزيقهم لهذه النشرات يسهر الزملاء من الرابطة في اعداد نشرة جديدة أخرى ويعلقونها في الليل لكي يشاهدها الطلبة البعثيون في الصباح فيغتاضون غضبا وعدوانية.

ان من عادات بعض القوميات والاقليات في بلدان اسيا الوسطى في الاتحاد السوفياتي والمجاورة مع ايران وافغانستان يحتفلون باعياد نوروز كما يحتفل أبناء شعبنا الكردي في العراق بهذا العيد القومي، ومن ضمن برنامج الرابطة ونشاطاتها ان تقيم حفلا بمناسبة نوروز في ٢١ من اذار حسب الامكانية، اقيم الحفل الكبير في قاعة معهد البوليتكنيك بعد استحصال الموافقات الرسمية، حضرته وفود من قبل الطلبة العرب والاجانب والسوفيات تخلله حفل خطابي من قبل المنظمات المدعوة والمشاركة، واثناء الاعداد للحفل الفني فوجئ الجميع بحضور اعداد غفيرة من الاخوة الاكراد السوفيات القادمين من مختلف الجمهوريات الجنوبية وهم أبناء المقاتلين الاكراد الذين غادروا جمهورية مهاباد ومن مناطق كردستان العراق مع ملا مصطفى البرزاني والتجأوا إلى الاتحاد السوفياتي فترة ستالين وبقوا في جمهوريات اسيا الوسطى في الاتحاد السوفياتي، قدموا للمشاركة في هذا العيد بسياراتهم ومؤنهم الأمر الذي اثار انتباه السلطات

الامنية في طاشقند وانزعاجهم لاغتياظ الطلبة البعثيين من اقامة الحفل الكبير بهذه المناسبة ولاستمرار الدبكات الكردية حتى انبلاج الصباح، فاخذ البعثيون يعدون العدة والخطط لتحجيم هذا النشاط الكبير والمسؤولين عن اعداده لاغتيالهم وللتخلص منهم.

عقد الزملاء اجتماعا ناقشوا فيه الممارسات الاخيرة التي يقوم بها البعثيون ولقاءاتهم المشبوهة مع بعض الطلبة العرب وسلوكهم وتصرفاتهم في تمزيق النشرات الحائطية التي تعدها رابطة الطلبة العراقيين، وكذلك الحفل الأخير بمناسبة عيد نوروز واتخاذ الاحتياطات والتدابير والحذر وان لا يكون الزملاء منفردين بتحركهم من الدراسة أو في طريقهم إلى القسم الداخلي وتجنب الاحتكاك بالطلبة البعثيين.

كان وسام يتحرك بيقضة وحذر منهم، من خبرته بفترة المدرسة مرورا بالجامعة والعسكرية وعمله، حيث عند الانتهاء من القائه كلمته في المناسبات المختلفة للاتحادات الطلابية والحزبية، ويتنقل مع احد الزملاء السوريين خصص كمرافق وحماية له، وفي غرفته وضع عصى غليظة (تُوثية) تحت فراشه للاحتياط، ولا يمكث في القسم الداخلي في تلك الليلة.

اقتربت ذكرى تأسيس الحزب في ٣١ اذار ١٩٣٤ وكان عليهم هو والرفيق سمير اقامة الحفل باي شكل من الأشكال، ومن خلاله فضح سياسة البعث وانهيار الجبهة الوطنية وممارساته القمعية والاعتقالات والاغتيالات، واعداد الكلمة الخطابية لذلك وتعليق الصور وتخطيط المانشيتات وشعارات الحزب ودعوة المنظمات الطلابية والحزبية، وعملية الحصول

على القاعة، وقد تعقدت الأمور بعد حفلة نوروز وتعرقلت حيث ان الحفل لا تدعمه السفارة ولا يريد المسؤولون ان يضحوا بعلاقاتهم الدولية من اجل الحزب الشيوعي العراقي، الأمر الذي دعى إلى البحث عن مكان أخر وهي العقبة الرئيسية. وبمساعدة الصديق كوركيس ومن خلال علاقاته بجامعة طاشقند استحصل الموافقة على اقامة الحفل في قاعة الجامعة الكبيرة.

انكب وسام ساهرا على اعداد ورسم بعض البوسترات وتخطيط بعض الشعارات والمانشيتات باللغتين العربية والروسية، ومن خلال كوركيس قام بدعوة الطلبة في قسم الفلسفة، ومن خلاله أيضا تم تعارفه مع الاستاذ صالح البخشي استاذ اللغة العربية، وهو من كردستان العراق وقد لجأ إلى الاتحاد السوفياتي مع ملا مصطفى البرزاني وسكن طاشقند، وكم كان فرحا لهذا التعارف، ومن خلاله تمت دعوة طلبة القسم العربي في الجامعة واضافة إلى الوفود من المنظمات الطلابية والحزبية العربية والاجنبية غصت القاعة بالحضور، القيت الكلمات وشاركت رابطة طلبة امريكا اللاتينية في الجانب الفني للحفل، بعد الحفل مباشرة افتتحت مسابقة البوستر السياسي باشتراك وسام مع نجاح طاهر احد الزملاء الجدد برسم بوسترات وصور لمؤسس الحزب يوسف سلمان يوسف "فهد"، فاستثمرت هذه الفرصة بحضور الاذاعة (الراديو) القسم العربي لهذا الاحتفال وباعداد لقاءات مع الرفاق بالمناسبة، وتحولت هذه الفعالية إلى وقفة تضامنية مع الحزب وكان لها صدى واسع اهاج واغضب البعثيين واغاضهم وقرروا القيام بعمل ارهابي ضد رابطة الطلبة العراقيين النشطين

منهم، وبعد انتهاء الحفل دعاهم الاستاذ صالح البخشي إلى شقته لجلسة متواضعة لنجاح هذا الحفل بالمناسبة العزيزة على القلوب، ابتهج الاستاذ البخشي وانفتحت قريحته في الحديث وتناول الذكريات الجميلة عن كردستان ولجوئِهم إلى الاتحاد السوفياتي، وكانت الحلوى العراقية حاضرة والشاي العراقي (المهيل) بصحون واقداح منقوشة عليها صور الزعيم عبد الكريم قاسم. شكره الزملاء الحاضرون على حسن الضيافة الجميلة المتواضعة بهذه المناسبة العزيزة على القلوب.

فرح وسام وبفخر لهذه الجهود التي اثمرت باقامة حفل كبير في الجامعة بمناسبة عزيزة لتأسيس الحزب وبهذا العدد القليل من الزملاء والرفاق الذين لا يتجاوزون اصابع اليد، وفرح أيضا لهذا اللقاء بالاستاذ صالح البخشي (المثل الكردي الشعبي؛ جبل مع جبل لا يلتقيان ولكن الناس تلتقي ببعضها البعض)، واخذ وسام يقول بألم:

- اه.. كم للعراق من الابناء المنسيين والمناضلين المجهولين!.

كان وسام يجد في سفيتلانا الإنسانة الرائعة الطيبة الحنينة المحترمة المثقفة الذكية الواعية، كان يكن لها كل الحب والاحترام وكل يوم يزاداد حبه واحترامه لها، كانت تلفه بحديث الروح الهادئ الطيب بضحكة وعاطفة واحترام، كانت تتفق وارائه ومبادئه واهتماماته وتشاركه فعالياته ونشاطاته، تهتم بلبسه وطعامه وقراءاته ومطالعاته، روتهُ الحب والحنان وخففت عنه عذابات الغربة والحنين للوطن وعالجت آلامه والانين واقتسمت معه

احزانه وفرحه وفرحت لنجاحاته وساندته في اخفاقاته وابتهجت لابتساماته، مع نفسه يقول وسام:

- علمتني الحب والطيبة.

– علمتني معنى الحياة.

وهي تقول:

- وجدت نافذة للسعادة فيك.

عند تدهور الوضع السياسي في العراق نتيجة ممارسات النظام القمعية واشتداد الهجمة الدموية ضد الحزب واصدقائه، من تحقيقات ومطاردات واعتقالات واغتيالات من قبل الاجهزة الامنية في داخل الوطن وجد انعكاساته في الخارج عبر ازلامه المنتشرين في جميع البلدان وعبر السفارات، فقد حصلت اعتداءات سافرة من قبل الطلبة البعثيين وضباط الامن في السفارات على الطلبة العراقيين غير البعثيين، ومنها في بلغاريا ومدينة صوجي على البحر الاسود في الاتحاد السوفياتي واخرها في طاشقند، حيث هنالك شكوك بوجود رجال امن بهيئة طلاب دراسة، ابتدأوها بافعالٍ عدوانية؛ كتمزيق النشرات الجدارية لرابطة الطلبة العراقيين عدة مرات وممارساتهم اللامبدئية في شراء الذمم لبعض الطلبة العرب الضعيفي النفوس والدراسة باغوائهم بالنوادي والبارات الليلية.

في احد المناسبات وبعد القاء وسام كلمته الخطابية وتطرقه إلى تدهور الوضع السياسي في العراق تم نقل الكلمة إلى البعثيين، فقرروا رصده وتتبعه والانتقام منه، في ذلك اليوم لم يجدوه في القسم الداخلي وظنا منهم بتواجده مع طلبة الرابطة

والشيوعيين في معهد الزراعة خارج المدينة، فبيتوا نيتهم للغدر به فاعدوا عدتهم من السكاكين والطوابير وتجمعوا في المعهد، وفي ذلك الوقت لم يتواجد الطلبة الشيوعيون في القسم الداخلي، بل ان احدهم كان في الدراسة وقد لفت انتباهه قدوم البعثيين، وفي طريقهم إلى الاقسام الداخلية صادفوا الدكتور السوري وهو من الرفاق الشيوعيين السوريين عند مدخل القسم الداخلي وقد حصل بينهم نقاش انتهى بشجار فاجتمعوا عليه جميعا ضربوه برأسه واردوه مخضبا بدمه ظنا منهم بانه قد فارق الحياة، تركوه بالارض وتواروا عن الانظار، الا انه وبحسن الصدفة كانت سيارة الاسعاف بالقرب من السكن سارعت بنقله إلى المستشفى واجريت له عملية جراحية في كسور بالجمجمة، مكث في المستشفى لوقت طويل.

عند الغروب ذهب وسام للمعهد الزراعي لتقصي وتتبع الأخبار، وعند المساء قرر مع زميله السوري رمزي الرجوع إلى القسم الداخلي لتقديم رسوماته المستحقة، انتظرا طويلا في موقف الباصات ولم يجدا سيارة تكسي يستقلانها للمدينة في هذا الوقت المتأخر، وبهذه الأثناء توقف احد الباصات فصعد وسام سوية مع زميله رمزي ووقفوا ملاصقين الباب، فاذا بالباص ممتلئ بالبعثيين.

اخبر وسام رمزي بوجود البعثيين في الباص:

- الجماعة بالباص.

فهم رمزي الموقف وطلب منه:

- لا تلتفت إليهم ودر بوجهك عنهم ولا ترتبك، أنا اغطيك، وحال توقف الباص في أي موقف تنزل مسرعا، للاختفاء وأنا اتبعك.

توقف الباص بعد موقفين قفز وسام من باب الباص مسرعا وتوارى عن الأنظار خلف الاشجار وتبعه رمزي، وحينما تأكدا بعدم نزول الجماعة خلفهم قال له رمزي:

- لقد نجونا منهم.

اجابه وسام:

- لقد ادرت بوجهي نحو السائق واراقبهم بين اللحظة واللحظة بدون ابراز وجهي، واعتقد بانهم لم يعرفوك ولم يعلموا بوجودنا بالباص بهذا الوقت.

وصل وسام مع رمزي مركز المدينة واستقلا سيارة تاكسي إلى القسم الداخلي والهدوء يسوده، دخل غرفته بعد ان تأكد خلو الممر من الطلبة، فقرر ان يكمل رسوماته، اما رمزي صعد لغرفته لبعض الوقت، وهو منهمك في رسوماته الهندسية تدان إلى سمعه قدوم اكثر من شخص على ارضية الممر الخشبية، احس من حركة الاقدام غير الطبيعية فسحب عصاه واذا بشخصين ماثلين امامه مخمورين، رماه احدهم باثقال الرياضة فوقعت على حوض السمك وفاضت الغرفة بالماء، دخل الغرفة الشخص الأخر فعالجه وسام بضربة قوية رمته على طرف السرير، حاول الخروج مسرعا من الغرفة ليلحق بالشخص الثالث فاعطاه على ظهره فخر ساقطا في الممر، وعاود الثاني واقفا عند الدرج وبيده قنينة ضرب وسام بانفه وغطت الدماء وجهه، في هذه اللحظات فقد وسام

السيطرة على اعصابه فاخذ يسدد له اللكمات تلو اللكمات حتى سقط في الممر هو الاخر، خرج الطلبة من غرفهم مفزوعين وتجمعوا في الممر، وبنزول رمزي من الدرج لاحظ وسام بوجهه مدمى وبوجود شخص رابع تدارك الأمر فرفسه برجله دفرة واحدة اسقطته على الدرجات وولوا هاربين، وسحب وسام إلى الغرفة لتضميد جروحه، حضرت الاسعاف وحضرت عمادة الجامعة والشرطة وبدأت التحقيقات مع الجميع.

اتضح في الصباح بان مجموعة البعثيين التي ضربت الدكتور السوري، وظناً منهم بانه قد فارق الحياة، تجمعوا في القسم الداخلي الأخر للقيام باغتيال ما يصادفوه امامهم من الطلبة المحسوبين على الشيوعيين ولم يلتقوا باحد منهم، وقرروا الذهاب في ذلك الباص متوجهين إلى المطار ليعتصموا به وطلبوا طائرة تقلهم للعراق، اما المجموعة التي قامت بالاعتداء على وسام فكان مرسوما لها بعد الانتهاء من عمليتهم يتوجهون إلى المطار أيضا ليلتحقوا بالمجموعة الأولى، فتداركت قوات الشرطة والامن الأمر واحتجزتهم جميعا، وطُرد من الدراسة من المنظمين والمسببين الرئيسيين في الحادث والاعتداء على الدكتور السوري.

توجه بعد الظهر الى سفيتلانا، ارتعبت عند مشاهدتها وجه وسام المزرق وانفه المتورم، ضمته إلى صدرها وحاولت ضماده بشكل جيد، وضح لها الموقف كله، وسألها عن كيفية معرفة وضع الرفيق السوري وهل هو على قيد الحياة؟، حاولت بطريقتها الخاصة وذلك من خلال عملها في مجلس المدينة، وعلمت بان

الدكتور السوري على قيد الحياة وفي العلاج وفي مستشفى جيدة ولا يسمح الان بمقابلته، بهذا اطمأن بعض الشيئ.

ابلغوا الطلبة الشيوعيين من قبل مجلس المدينة بالتوجه إلى بيوت الراحة بعيدا عن المدينة لحين استتباب الامر، ومكثوا هنالك اسبوعين، وبعدها قررت وزارة التعليم العالي في اوزبكستان عزل الطلبة الشيوعيين عن البعثيين لتفادي الاحتكاك ونقلهم فيما بعد وتوزيعهم على المدن السوفياتية الأخرى حسب اختصاصاتهم.

لم تدم فرحته ومعيشته مع سفيتلانا ازاء هذه الاحداث الهمجية من قبل البعثيين، حيث ان القرار نزل صاعقة على رأسه، وكيف له بترك المدينة وسكنه مع سفيتلانا وقد اتفقا على الزواج بعد استحصال الموافقة من الرابطة أو المنظمة في موسكو بفترة العطلة الرسمية. وهو بهذه الحال لا يعلم باخبار اهله ولا بظروفهم، حيث تواردت الأخبار بان قوات الامن تداهم عوائل الطلبة غير البعثيين، وبما يخصه فقد داهمت الامن اهله بفترات متقطعة للتقصي عن أخباره وعنوانه ويضطرونهم بكتابة رسائل له بخط يدهم يدعونه لزيارتهم والرجوع إلى العراق وان الأمور طبيعية جدا.

وكم كانت وقفة سفيتلانا الجريئة معه سندا في هذا الاجراء القاسي بنقلهم إلى المدن الأخرى حينما قالت له:

- لا تهتم يا حبيبي إلى أين تذهب اذهب معاك، وكلها ارض ومدن الاتحاد السوفياتي فلا تقلق.

وختمت:

- احبك يا وسام.

اردفها بالجواب:

- وكم احبك، ولكنني لا أريد حقا ان اترك هذه المدينة لانني احببتها وانتِ فيها واحببت ناسها وانتِ منها.

بعد فترة وجيزة نقلوا الطلبة الشيوعيين إلى الجمهوريات السوفياتية كلا حسب اختصاصه، وسافر الرفيق سمير مع زوجته الحاملة إلى اليمن الديمقراطية، وبقى الطلبة البعثيون وغيرهم في طاشقند ونقل وسام إلى موسكو رغم انه ابدى امتعاضه وعدم رغبته في النقل، مع العلم ان مسؤولة مجلس المدينة الحزبية بذلت ما في وسعها وناشدت الوزارة بابقاء وسام في طاشقند وتحت مراقبتها بعيدا عن تماسه بالبعثيين، ولم تفلح في ذلك. سافر إلى موسكو والتحق بمعهد موسكو لهندسة البناء، التقى بمجموعة من الطلبة العراقيين هناك، منهم من الاصدقاء والمعارف، يعرفهم من أيام جامعة بغداد ومنهم من خلال العمل الطلابي والحزبي سواء في بغداد أو في مدينته ومحافظته مدينة بابل. اعاد بعض الامتحانات بطلب الاقسام المختصة في الجامعة الجديدة، وقدم مشاريعه بدرجات جيدة والتي لم يستطع تقديمها في طاشقند اثناء الحادث.

تعرف على مدينة موسكو ومعالمها الجميلة وساحتها الحمراء ومبنى الكرملين ومسارحها ومعارضها وحدائقها وشوارعها، ومن خلال زياراته لاصدقائه المقربين، ونشاطه الطلابي والحزبي وفي جمعية المقيمين العراقيين ومشاركته في النشاطات التي تقيمها المنظمة أو الجمعية توسعت دائرة علاقاته

ومعارفه بين وسط العراقيين المقيمين، وكان من بينهم خيرة الادباء والكتاب والمترجمين والصحفيين والفنانين التشكيليين والمخرجين السينمائيين واكتسب منهم الخبرة والتجربة والعلاقات الودية الجميلة.

بين الحين والحين تسافر سفيتلانا إلى موسكو لتلتقي بحبيبها، تارة في شقة صديقتها وتارة يؤجرون غرفة قريبة لسكنه، املا في انتهاء دراسته ودفاعه الأخير ومن ثم محاولتهم الحصول على موافقة لعقد القران والذي يمكنه من الرجوع إلى طاشقند المدينة التي احبها والعيش سوية في بيت واحد. كانت تأتيه محملة بخضراوات اوزبكستان لتضفي على اللقاء أجواء شقتهم في طاشقند، وكانت قوية لا تظهر المها وحزنها له، وكان يشعر بها عندما تتلاقى العيون.

حاول تقديم امتحاناته ومشاريعه والمواد المتبقية واستعد للتحضير للدفاع عن مشروعه بشكل جيد، ويوم دفاعه نال اعجاب الاساتذة المشرفين وتزكيتهم له في بالاستمرار بدراسة الدكتوراة، اعلنت النتائج، فرح لنتيجته وتخرجه وحزن بنفس الوقت لكونه بعيدا عن الأهل ولم يعلموا بتخرجه ليشاركوه الفرحة، اقام له الاصدقاء حفلا للتخرج وكانت سفيتلانا فرحة فخورة بجانبه.

صدق كل شيء من الوثائق وبنية استمراره في الدراسات العليا، الا انه ومع تعقد الوضع السياسي في العراق وانعكاس ذلك على العلاقات الخارجية وتعقد الوضع عموما واضطرار الحزب باللجوء إلى العمل السري بعد الضربات الموجعة التي

تعرض لها من اعتقالات وسجون وتصفيات لاعضائه، فوجئ وسام بقرارات لم تكن في الحسبان فضاعت الاحلام والرغبات وتبخرت الامال كلها، حيث رفضت الرابطة ومنظمة الحزب بمنحه الموافقة بالزواج انطلاقا من شعار الرابطة المركزي؛ التفوق العلمي والعودة للوطن.

فيندب حظه ويقول:

- ولكن أية عودة للوطن هذه، لكي ترجع بارجلك وتزج بنفسك إلى الاعتقال وغياهب السجون وتنهي الحياة في المقابر الجماعية، وتترك حبيبة القلب وحيدة اسيرة العذاب والحيرة التي جلبتها لها، فاي حلم واي ظلم هذا!.

الامر الاخر هو انتهاء تمديد جواز سفره القديم، وقد انتهت فاعليته منذ زيارته إلى اليونان، والسفارة لا تمدد للطلبة لغير مبعوثي النظام، حيث لا يستطيعون دخول السفارة بعد ان تعرض بعض الطلبة المراجعين للسفارة لحالات الاعتداء والاهانة داخلها من قبل رجالات أمنها، ولم تتضح معالم الصورة والوجهة، ولا يعلم إلى أية وجهة يدير وجهه نحوها والجامعة تطالبه بافراغ الغرفة التي كان يسكنها وتسليمها لانتهاء الدراسة والاقامة ولم يستلم المعهد اشعارا من الوزارة الموافقة على استمراريته في الدراسات العليا واستوجبت عليه مغادرة موسكو وتحديد وجهة بلد العودة لعمل تذكرة السفر.

لم يستطع البقاء في القسم الداخلي لولا طيب العلاقة التي جمعته بمسؤولة القسم الداخلي (الكومندانت) والتي اعطته غرفة مؤقتةً ينام فيها ليلته تشبه المخزن تُجمعُ فيها اسرة المنام كأنها

غرفة النظارة في مخفر الشرطة، بعد ان يقضي سهرته مع محمد شمهان اليمني يتبادلون الاحاديث السياسية والاوضاع في اليمن، يحتسون البن اليمني وسجائر (ردفان) من صناديقه المكدسة، وان اكثرية الطلبة العرب الخريجين من دورته غادروا إلى اوطانهم فرحين بتخرجهم معززين مكرمين من دولهم أو من سافر للعمل في دول الخليج بدعوة من معارفهم واقربائهم، مكث بهذه الغرفة بعد تخرجه إلى بداية الربيع.

ويقول مخاطبا نفسه:

- لقد ضاقت بك الدنيا يا وسام.

وليكن ما يكن!.

طبعا هنالك تقارب ذهني وفكري بين الاثنين، فانحدار محمد قبلي ومن المشايخ، وانحدار وسام ريفي من عائلة دينية من الاب والام. والاثنان لا يملكان مصروف الطعام لانقطاع مخصصاتهم وذلك لتخرجهم من الدراسة.

يذكر وسام:

- ذات مرة والجو لازال قارصا، اجبرني محمد بشراء قطعة خبز اسود بسعر (عشرين كبيك) بعد ان اوهمني بانه سوف يعد فطورا يمنيا حال الاتيان بها.

يقول: - ذهبت إلى المخزن بعد ان تجمدت قدماي من البرد بشق الانفس وقفت بالطابور في انتظار دوري، وما تقربت نحو نافذة الشراء تقدمت عجوز نحوي وطلبت مساعدتها ببعض (الكوبيكات) لشراء قطعة من الخبز فهي الأخرى لم تتمكن من ذلك ايضا.

دمدم مع نفسه وقال:

- نحن في الحب سواء ياجدتي.

اعطاها (الكوبيكات) التي لديه، واوقفها في مكانه في الطابور ورجع عبر الغابة بطريقه إلى القسم الداخلي واحس بسعادة تغمره بفعلته اتجاه العجوز.

بعد ان تلقاه محمد شمهان بالسب والشتيمة باللهجة اليمنية لتأخره، دعاه محمد إلى الطاولة المزدحمة بالاوراق والكتب وعلب السجائر وابريق الشاي بيده، وجلب قطعتين من الخبز القديم بعد تسخينها، ووسام ينتظر الفطور اليمني الموعود وتبين؛ بيضة واحدة، تقاسماها مع الشاي اليمني، غاصين بالضحك.

قال وسام:

- خدعت العراقي يا يمني...

ويصحح له شمهان:

- يماني يماني.. مش يمني.. مال عارك يا اخي.

واردف وسام قائلا:

- أيام المزبن كضن تكضن يا أيام اللف.

بعناد يكرر بيت الشعر للامام الشافعي:

- دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

بتعاظم الهجمة الهمجية من قبل السلطة ضد الحزب واعضائه واصدقائه، اضطر الحزب إلى انتهاج سياسة الكفاح المسلح اضافة إلى اساليب النضال الأخرى واضطر اعضاؤه إلى التخفي واللجوء إلى كردستان. وفي خضم هذه الاحداث قرر الحزب

ابلاغه بالتوجه إلى اليمن الجنوبي في الوقت الحاضر، وابلغ حبيبته بذلك.

في اليوم الثاني وصلت سفيتا إلى موسكو، وقضوا ليلتين ملتصقين ببعضهما البعض لم ينفكا، تناقشا حول معيشتهما وحول موضوع سفره، فطلبت منه وباصرار ان تسافر معه وتذهب اينما يذهب وقالت له:

- يجب ان نعيش سوية هنا أو خارج الاتحاد السوفياتي يكفينا العيش منعزلين، كل في مكان.

اجابها:

- حبيبتي الأمر ليس بيدي هذا توجيه من قبل الحزب، يجب ان انفذه وان اسافر في الوقت الحاضر، والى ان تتضح الأمور واعود بشكل رسمي ونهائي ونعيش سوية واعاود دراستي.

طيلة الليلة الاخيرة وهي تحتضنه متمسكة به بقوة تذرف الدموع مدرارا على كتفيه، لم تقتنع بما دار من نقاش وبما طرحه وسام بالالتزام بتنفيذ قرار الحزب حول السفر في الوقت الحاضر (نفذ ثم ناقش). وسألته:

- االستطيع ان اسافر والتحق بك ونعيش سوية هناك؟.

اجابها:

- صدقيني يا حبيبتي لم امتلك أي تصور مسبق حول هذا البلد وماهية الظروف، سوف اوافيك بكل الأخبار لا تقلقي سنكون معا.

حسم امره وحزم حقيبة كبيرة مرصوصة بالكتب العلمية باختصاصه تدخل ضمن مصادر اطروحته المستقبلية، وكتب

أخرى تم شرائها من دار التقدم للترجمة في موسكو وكانه بائع كتب متجول. مع احتفاظه بحقيبته السحرية الحمراء (الانتيكة الخيرة) بعد تنظيفها يناشدها:

- اتلوحين بمفاجئة ما يا حقيبتي السحرية!.

وتجيبيني:

- شبيك لبيك.

في الصباح قدم مبكرا ابن مدينته وزميل دراسته الثانوية صديقه فلاح لوداعه إلى المطار الدولي، تحادثا وتناقشا، وحين توجه وسام إلى تسليم الحقائب، توادعا عند الحاجز ودس فلاح في جيبه ورقة ١٠٠ دولار والتي لا يملك سواها، وقائلا:

- سوف افتقدك يا اخي وسام، لا احد لي في موسكو من بعدك، كم هي قاسية الحياة.

اجابه:

- سوف اكون على اتصال بك واخبرك بمجرى الامور من هناك، وارجوك ان تكون على صلة بسفيتلانا ايضا.

وهو بهذا الحال اذرف الدموع لفراقه لحبيبة قلبه واصدقائه ولمغادرته الاتحاد السوفياتي وموسكو الحب والحلم، ولكونه ذاهب إلى مصير مجهول ولا يعلم بسفره هذا ومكوثه قد يطول، ولكونه قد شرع في جمع بعض المواد للبحث في دراسته العليا.

وبعد التوديع رجعت سفيتلانا تائهة صامتة قلقة مهمومة حزينة لفراقه تتلوى مكسورة الخاطر والوجدان لفرحة لم تكتمل ولغربته ومعيشته الجديدة.

ويقول وسام بنفسه:

- كم أنت قوية وانسانة رائعة يا سفيتا استمد العزم والامل منك.

في المطار صادف صديقا قديما مع زوجته الشابة، وقد قابله عند وصوله الاتحاد السوفياتي أول مرة عام ١٩٧٥ في منطقة السوكل، وكان من ضمن الشباب الذين نظموا له جولة سريعة وذلك بطلبه ورغبته بمشاهدة الساحة الحمراء، واقاموا حفلا بمناسبة خروجه من العراق، انهى دراسته الجامعية في اوكرانيا، وعلم بان وجهته إلى اليمن أيضا بتوصية من احد رفاق الحزب القياديين، وللصدفة أيضا في الطائرة بان مقعد شهاب خلف المقعد الذي يجلس به وسام عند النافذة.

عند الاقتراب من الهبوط شاهد زرقة سماء عدن وموج البحر يتلاطم في السواحل، حطت الطائرة في المطار وعند الخروج منها واذا بنفحة هواء حارة تلهبهم استقبالا، ردد ابياتا من قصيدة للجواهري:

من موطن الثلج زحافاً إلى عدن خبت بي الريح بمهر بلا رسن

من موطن الثلج من خضر العيون به لموطن السمر من سمراء ذي يزن

كان في الاستقبال شخص مربوع سمح لشهاب بالدخول، ولم يسمح لوسام بذلك، وقال له:

- لم تصل تزكيتك الينا بالسفر الى عدن.

اجابه وسام:

- وما العمل؟، اذن كيف توجهت إلى عدن ابتوصية من أم اللبن!.

اجابه المربوع:

- أنت تواصل سفرك إلى اثيوبيا لان طائرتك سوف تقلع بعد قليل.

سأله وسام بحزم:

- مالذي تقوله؟، أنا رفيق وتحركي خاضع بموافقة الحزب، كيف لك ذلك!.

جن وسام جنونه لتصرف هذا المربوع المتغابي، واخبره:

- يا عزيزي اترك التزكية، واترك الحزبيات جانبا، اعتبرني لاجئ عراقي انقطعت به السبل وجاء إلى اليمن يعمل كمهندس، اتغلق الباب بوجهه، واتعهد الان إذ لم استطع الحصول على عمل فعندها اختار الرجوع إلى موسكو، وان استطعت فبها، فارض الله واسعة.

وسأله:

- االستطيع ان اتكلم مع المنظمة الحزبية!.

رد المربوع:

- اتعرف احدا منهم!.

اجابه وسام بحزم بعد ان شخص المربوع من لهجته:

- من الممكن ان اعرف البعض منهم، وأنا عراقي فراتي ولست من بنغلاديش.

بهذه الأثناء قفز من الزاوية رجل نحيل الجسم مرتديا وزرته اليمنية، وما تحتها بحزامه مسدسا مخفيا، وكان هذا الرجل

مستمعا للحديث الذي دار فيما بين ووسام والرفيق المربوع، وتقدم نحوهم وشرح لهم بان القضية لا تحتاج إلى تعقيد وخاطب وسام مرحبا:

- اهلا بك يا أخي في بلدك الثاني.

بهذه اللحظات نودي الرفيق المربوع على التلفون استجابة لطلب وسام حيث استطاع التحدث مع من موجود في المنظمة الحزبية، رفع السماعة وسلم على المتكلم فسمع نبرة ولهجة قريبة، أنها لهجة وكلمات دكتور لطيف البصراوية، انه دكتور لطيف يسأل عن المتحدث:

- من الرفيق القادم من موسكو؟.

بعد ان تأكد من ان المتحدث هو دكتور لطيف منصور اجابه وسام ضاحكا:

- والله اني جايب لك شوية كرفس وخضراوات من طاشقند!

رد دكتور لطيف متعجبا:

- وسام... وسام، يا هله ويا مرحبه بيك، اعطني اعطني الرفيق أبو زينب.

ضحك وسام قائلا:

- هذا الرفيق اراد اليوم ان يرسلني إلى منغستو هيلا مريام يؤكلني شطة اثيوبية.

رد الدكتور لطيف:

- ج ج ج.

لقد انقذت مكالمة دكتور لطيف الموقف والموافقة على الدخول، وشكر وسام موقف الرجل أبو الوزرة على موقفه،

اتضح فيما بعد بانه من ضباط امن المطار. تذكر الفارق بين امن المطار المرعبين في بغداد وبين هذا الإنسان المتواضع النحيل الذي تمنى الخير وبحسن نية، يدرك بان البلد يحتاج إلى ايادي مهنية وفنية للبناء وخصوصا من المهنيين العراقيين، وليس كتفكير الرفيق المربوع الحزبي الضيق رضوان الله عليه.

بخروجهم من المطار اتجه الثلاثة؛ وسام وشهاب والمربوع أبو زينب إلى المنظمة الحزبية، بدخولهم بادرهم وسام بالسلام والتحية، وكان الدكتور لطيف في انتظاره، احتضن بعضهم البعض بحرارة، وهو بهذا الوضع نظر وسام جانبا إلى رفيق خمسيني يشبه إلى حد ما جمال عبد الناصر، وناداه بالخال أبو حاتم، عرفه أبو حاتم أيضا وذلك من خلال عمله الحزبي في المحافظة ولقاءاتهم المستمرة معه في المقر او عند توصيله في المساء إلى قريته في المحاويل ويعرف وسام جيدا ومن خلال معرفته بخاله سيد جابر، فهم أصدقاء منذ أيام دار المعلمين، حيث درسا وسكنا سوية في الحلة وعملا سوية في الحزب قبل احداث ١٩٦٣. فرحب الجميع بوسام اجمل ترحيب، تعجب الرفيق أبو زينب لمعرفتهم بوسام، فقال موجها سؤاله إلى وسام:

- لماذا لم تقل بانك تعرف احدا من رفاق المنظمة، أنت الان تعرف كل المنظمة الحزبية.

فاجابه وسام باسلوبه الشفاف:

- لا تحتاج المسألة إلى معرفة ومعارف، بل يجب ان يتخذ الرفيق الاجراء الصحيح في الوقت المناسب، وللعلم أنا جئت بتوجيه حزبي من منظمة موسكو، ولكن قد تكون خطوط

الاتصال مجمدة من الثلج فلم تصل الحرارة إليها بعد، ولولا طلبي بالاتصال بالمنظمة وتدخل الرجل أبو الوزرة وباقة الكرفس لكنت الان في أديس أبابا. واردف أبو زينب يوضح:

- قلت بنفسي ان اجرب ما هي ردود الفعل.

واجاب وسام:

- اسألك بربك، شخص ترك موسكو الحب والحلم وجاء بارجله إلى اليمن، هل جاء للنزهة في حدائق عدن!.

ضحك الجميع، وخزر الرفيق أبو حاتم أبو زينب لتصرفه هذا.

انتهت المقابلة عصرا بعد ان اعد لهم مكان السكن وتوجهوا إلى البيت الاخضر الذي يعتلي التلة في بداية جبال عدن من جهة الشرق في منطقة خورمكسر، كان البيت سكناً للبحارة الانكليز في فترة الاحتلال البريطاني لعدن يطل على المحيط الهندي، وامست تحلق فوقه الغربان، سكنته الكثير من العوائل العراقية الهاربة من ظلم وتعسف النظام العراقي، فمنهم من رحل إلى شتات عواصم أخرى ومنهم من رجع إلى كردستان ودخل ارض الوطن.

عند صعودهم للبيت هو والزميل شهاب، واثناء صعودهم العتبات لاحظ وسام بعض الشباب والشابات وفرزنهم وعرف وشخص بعضا منهم، من أيام الجامعة في بغداد وعلاقات الاصدقاء ومن خلال عمله، وعرف بعضا من الشابات اخوات لمعارفه ولزملائه اثناء تأديتهم الخدمة العسكرية في معسكر الرشيد، طالبات في جامعة بغداد تركن مقاعدهن الدراسية في

الجامعة نتيجة تعرضهن للمضايقات والمطاردات من قبل قوات الامن وهروبا من جحيم النظام، عرف ذلك بعد تعارفهم، وعلم كذلك بوجود الطبيب (سديد)، وبهذه الأثناء واجهه سمير وزوجته وابنهما الصغير وجها لوجه فاحتضن بعضهم البعض واخذ حقيبته وصعد بهم إلى غرفتهم لاعداد الطعام، واستمرت الجلسة إلى ساعة متأخرة من الليل، حيث وافاه وسام باخبار طاشقند منذ حصول الاعتداء الغاشم الذي قام به البعثيون على طلبة الرابطة ونقلهم إلى المدن السوفياتية الأخرى وحادث الدكتور السوري واخبار متفرقة من هنا وهناك.

انبرى سمير:

- اينما اذهب أنت ورائي!.

اجابه وسام:

- اعتقد باننا مثل التيار المتناوب، مثل عملنا بالرابطة والحزب، مصيرنا واحد!.

احس وسام منذ اليوم الثاني بان الوضع في هذا البيت على ما يبدو متعكرا ومتوترا مضطربا ولعدة اسباب منها اغتيال دكتور توفيق رشدي من قبل ازلام السفارة العراقية في عدن، وبسبب حالة من عدم الاستقرار والترقب والانتظار واضحة على الوجوه من المقيمين وسكنة البيت حيث كان بعض الرفاق في لحظات توديع اصدقائهم وزوجاتهم واطفالهم التزاما بتوجيه الحزب بالالتحاق بقوات الأنصار في كردستان.

وانطلاقا من هذا الوضع اراد وسام وزميله شهاب ان يغيرا بعض الشيئ من حالة الشد والتوتر ويضفيان اجواءا مرحة من

الانسجام، ولا سيما بان شهاب اجتماعي بطبعه يحسن المزاح والنكته، فاقترح وسام عليه ان يذهبا إلى السوق ويشتروا ما قسم الله لهم من شرائه ولاسيما هو يمتلك تلك الورقة الخضراء المباركة التي دسها في جيبه فلاح ليهيئا ويحضرا مأدبة عراقية يجتمع حولها الجميع، قال وسام لصاحبه شهاب في الطريق:

- اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.

ذهبا واشتريا من السوق ما يلزم وباسعار زهيدة لاعدادهم وليمة ناجحة (كانت الدولة في عدن تدعم وتغطي بعض المواد الاساسية الضرورية من الخبز والشاي والسكر وغيرها)، وقام وسام كعادته الريفية باعداد وتحضير الطهي واعداد الطعام وشاركت البنات بمساعدته، اجتمع فيها المتواجدون من سكنة البيت وافترشوا ارضية ممر البيت، كسر جدار الخجل وتعارفوا فوجدوا انفسهم بالاقربين ويعرف بعضهم البعض رغم التزام السرية في العلاقات العامة، وصدق المثل الكردي؛ بانه مهما دار الزمن فقمم الجبال لا تلتقي لكن الإنسان يلتقي مع اخيه الانسان.

في ظرف ثلاثة أيام وجد وسام عملا له كمهندس في مؤسسة البناء المحلية في وزارة الانشاءات، يقله الباص قرب المنزل صباحا وهو بحسن تصرفه ولطافة اسلوبه واناقة هندامه وطيب عطره يلفت الأنظار يؤسر القلوب، ويتقاضى مرتبا جيدا حسَّنَ من وضعه المادي، اضافة إلى عمله وبتوصية من الحزب لمساعدة احد رجال الاعمال العراقيين في اعادة تصميم وبناء اماكن قديمة لاغراض الاستثمار والسياحة.

في البيت رتب غرفته المركونة وطاولة لكتبه تعلوها صورة حبيبته سفيتلانا مؤطرة بشكل جميل، وجعل مقعده للنوم مقابلا لنافذته المفتوحة على جهة البحر يراقب حركة المراكب والسفن العابرة إلى باب المندب ويستمتع بمشاهد حركة الدولفينات، غروب الشمس وظهور القمر، يتعلل بها مع صديقه سمير وبعض الاصدقاء المعارف في الليل واخر ايام الاسبوع والعطل الرسمية. استمر بعمله في مؤسسة البناء نشطا جادا بدون كلل وملل ساعد في اعداد فنيين في مجال الرسم والمساحة والتنفيذ وخلق أجواء طيبة وعلاقات متينة بين الموظفين وحاز على احترامهم وثقتهم مما أهله ذلك لتعينه معاونا لمدير المشاريع في المؤسسة، وبعد فترة لحقه شهاب بتعينه كمشرف في مصنع البيرة يأخذ حصته الاسبوعية فيجود بكرمه.

ومن سكنة البيت كانت هناك شابة طيبة ثلاثينية هيفاء القوام سوداء العيون غجرية الشعر شاعرة يمنية حضرمية هندية عربية مطعمة الجمال تسكن الطابق الأرضي، تقابله ببشاشة بنظرات حب ظمأى منذ الصباح الباكر عندما يخرج للعمل وعيونها تلاحقه بشراهة حتى المنحدر وتنتظره عند الغروب لحين عودته، جريئة تثيره متعمدة بلبس شيدرها الشفاف الأسود يفوح بعطر وبخور من طقوس الحب في حضارات الصين والهند وبابل والفراعنة وحضرموت وليالي الانس في قصور غرناطة وبني العباس، يؤسره ويخدره وخصوصا في ليله، يحثه ويجذبه لفضائها المغناطيسي، نصيبه بهذه الأجواء احس بخفقان قلبها وعاطفتها وظمأها، عندما يحين المساء ينزلان من بيتهم فوق التلة

ويلتقيان عند ساحل البحر يقضيان بعض الوقت ويتجاذبا اطراف الحديث لالمامها بالثقافة العامة والكتابة والشعر وتمتعها بثقافة سياسية، وبعض الأحيان يلتقيان عند صديقتها، يحتسيان قليلا مما يتوفر لها بطلب من السوق الحرة، ولهت واغرمت به لحد الجنون، ولكن قلبه مقفلا لحبيبة العمر سفيتلانا التي تنتظره وسوف يعود لها حال انتهاء المهمة الحزبية التي توكل له، ويؤكد وسام بقوله:

- لقد سقتني وروتني سفيتلانا الإنسانة الحب الصادق والحنان يكفي العمر كله وأنستني المعاناة لما جرى ويجري في الوطن، وعوضتني عن ألم وعذاب وضياع أمل في حب جنان.

اقيمت دورات تثقيفية في الفلسفة والاقتصاد قام باعدادها خيرة الاساتذة المتواجدين في عدن ومنهم؛ دكتور نمير العاني ودكتور هيثم الجنابي وغيرهم، وانتهت الدورات العسكرية واحدة تلو الأخرى. وعندما حلت العطلة المدرسية ابلغه الحزب بتكليفه بالمهمة الانية بمسؤوليته العسكرية للدورة الجديدة باسم سرية ١٤ تموز مع المسؤول السياسي الرفيق أبو زينب الذي كان في استقباله بالمطار، وقد شارك في الدورة الكثير من الشابات والشباب من المعارف والاصدقاء والرفاق للتدريب على استعمال السلاح، كان وسام في اوج قوته وشبابه ونشاطه واماله واحلامه الجديدة، نبيلا كريما شهما محبوبا من قبل رفاقه من المشتركين في الدورة التي استمرت لفترة شهرين مضغوطة في معسكرات الجيش في عدن، يسمح لهم بالنزول إلى بيوتهم باخرالاسبوع ويستطيع وسام الذهاب إلى البريد رغم صعوبة

الاتصال والانتظار لغرض الاتصال الهاتفي بطاشقند والتحدث مع سفيتلانا طويلا، وكذلك يتمكن شهاب الاتصال هاتفيا بزوجته في مدينة اوديسا. يقضي الخميس والجمعة في عدن ومنذ الصباح يعودون إلى المعسكر.

انقضت الدورة العسكرية على خير ما يرام، واكتسب الجميع خبرة لا باس بها في استعمال الاسلحة الخفيفة والمتوسطة وغيرها من الدروس العملية. وبعدها قام الحزب بتبليغ الرفاق ممن انهوا الدورات السابقة بالتوجه إلى كردستان حيث تتوارد الأخبار من هناك، بان الرفاق يتواجدون على اطراف المدن وقريبين من بغداد، وان النظام أيل للسقوط، ولم يلحقوا في مشاركتهم في اطلاق اخر اطلاقة في نعش النظام، فتحفز الرفاق في السفر إلى كردستان وقسم منهم بالتوجه نحو الداخل لاعادة التنظيمات، غادر الرفيق سمير، ودع زوجته وطفله بعمر السنة وودع الاصدقاء متوجها إلى كردستان. فالقسم الكبير من الرفاق قد غادروا اليمن متوجهين إلى كردستان، وبعض منهم وعند وصوله سوريا غيَّرَ رأيه فاحتفظ بالجواز الجديد، فمنهم من بقي فيها ومنهم من غادرها إلى دول اللجوء وبمختلف الطرق ومنها التهريب ومخاطراته ومأسيه وعذاباته وآلامه.

بعد اسبوعين ابلغ الحزب وساما بشكل مفاجئ بالتوجه إلى كردستان ومن هناك للدخول إلى الوطن، يُحسم القرار حسب الامكانية وطرق الدخول. لم يتسن له ابلاغ سفيتلانا في حينها، وتوضيح الأمر لها بهذا الاجراء العاجل وذلك لصعوبة الاتصال بها، فقد كان من اوائل المستجابين لنداء الحزب ولكونه مسؤول

الدورة العسكرية يجب ان يكون مثلا يحتذى به أمام الجميع. فجمع حاجياته الضرورية وكتبه وصوره الضرورية على عجلٍ وسلمها أمانة إلى زوجة الرفيق سمير أو تودعها في مكان ما، واعطته هي الأخرى شريط تسجيل لطفلهم ليوصله إلى سمير.

اعد الحزب الأوراق المطلوبة، وابلغه بالتهيئ للسفر وبالسرية التامة إلى سوريا بدلا من تركيا لنزول الثلج مما يسبب في عرقلة الوصول. ويومها ودع وسام الصديق دكتور لطيف والخال أبو حاتم في المنظمة الحزبية، وعندما حان موعد السفر سلمه الرفيق أبو زينب (المربوع) الجواز الجديد وتذكرة السفر في المطار، وعند الصعود للطائرة تفاجأَ بوجود احد الرفاق القياديين ودكتور (سديد) والشاعرة الحضرمية على متن الطائرة.

حطت الطائرة في مطار دمشق وخرج المسافرون عبر بوابة الخروج، خرج الرفيق القيادي في المنظمة وخرج الدكتور سديد وتلتهم الشاعرة وصديقتها ولم يتبق الا وسام حائرا يدير برأسه، حيث نسى اسمه المكتوب في الجواز الجديد، اراد ان يتذكر الاسم فلم يفلح، حيث ناداه ضابط الجوازات عدة مرات ولم يسمع ولم يرد عليه، كادت تلك اللحظات ان تؤدي إلى فضح امره، تمالك الشجاعة وتقدم نحو الشباك فقال له الضابط:

- اليس هذا جواز سفرك ايها المسطول!، نبح حسي وأنا اناديك.

تجرأ وسام حينما لمح صورته والاسم في الجواز واجاب الضابط:

- نعم يا اخي اليست هذه صورتي!، فلم أنا المسطول، لم اسمع مناداتك فاذني تؤلمني!.

سلمه موظف التدقيق الجواز بدون الاعتذار عن كلمة مسطول.

ضحك وسام مع نفسه:

- الفقير فوق الحمار وعضه الكلب. ومع ذلك فهنا اقل رهبة عما هو في مطار بغداد.

تم تغيير اسم وسام حامل الجواز الجديد إلى اسم أخر وذلك لاتخاذهم هذا الاجراء في تغير الاسم بعد حصول بعض الحالات في عدم المصارحة المبدأية حيث وعند وصول بعض الرفاق إلى دمشق أو إلى نقاط الوثوب إلى داخل الوطن تم تغيير رأيهم أو عدم القناعة في التوجه إلى كردستان، وحصلت بينهم وبين الحزب قطيعة ما كان من المفروض ان تحصل، وكان على المنظمة ان تترك الاختيار للرفيق طوعا بالتوجه إلى كردستان أو عدمه كل حسب ظروفه وقناعته.

خرج اخيرا من حاجز تدقيق الجوازات ولازال الدكتور سديد ينتظره في صالة الاستقبال لانهم سوية سوف يبحثون عن فندق وهم في نفس وجهتهم، سلم وسام على الشاعرة وصديقتها، ونظراتهما تفترسه، وبادرته بان يتوجهوا سوية إلى فندقهم المحجوز. وصلوا إلى العنوان المذكور واتضح بانها قد رتبت كل شيء. ترك الدكتور (سديد) حقيبته في الفندق وخرجا سوية لاستطلاع المكان القريب من الفندق، ودخلا حانة شعبية صغيره ذكرته بايام الجامعة وحانة في الباب الشرقي في بغداد،

امتصوا ما حلا لهم من قوارير الحانة، تجاذبا اطراف الحديث عن وضعهم وظروف (سديد)، حيث تم تهجير اهله واقاربهم والكثير من الكرد الافيلية من قبل قوات الامن تحت ذريعة انهم من اصول ايرانية ورميهم على الحدود في العراء وسلب ممتلكاتهم، ومغادرة زوجته الطبيبة وابنهما مدينة عدن لصعوبة المعيشة ورجوعهما إلى الاتحاد السوفياتي بسبب التحاق زوجها بالانصار، وناقشا امورا سياسية أخرى، واتفقا بالاتصال بالمنظمة وبرنامج التحاقهم بكردستان. استأذن دكتور سديد لاحساسه بالتعب ولعدم تعوده السهر طويلا.

ولحظة رجوعهما إلى الفندق التقى مجنونته عند باب غرفتها المفتوحة منتصبة تنتظر قدومه، وجدها باحلى رونق وزينة كأنها في ليلة الدخلة، وقالت له:

- أين ذهبت، اتعلم بانني قد جئت لوداعك؟.

وسألها:

- وكيف علمتِ بسفري.

اجابته:

- هل نسيت صديقتي وعملها، هي التي اخبرتني وبعد الاتفاق رتبت كل شيء لتكن مفاجأة لك، ولا شيء يصعب علي حتى ولو كان في أخر الدنيا.

واردفها القول:

- كيف لي ان انسى تلك الليلة و(القات) والكأس حتى مطلع الفجر.

بكت وقالت له:

- منذ ان التقيتك أول مرة في باحة البيت، وقد اعجبتني، وطيلة الوقت انتظر عودتك إلى البيت، لا اعرف كيف دخلت قلبي، فلا تحرمني من الحب.

وتساءل مع نفسه:

- أممكن ان لا تحرمها يا أيها الزوربا العراقي في رغبتها الهائجة الجنونية؟.

وتابعت القول:

- وقد جئت إلى هنا اتوسل إليك لكي تعدل من قرارك في التوجه إلى كردستان.

لقد تناقشا طويلا، وعجز في اقناعها رغم توضيحه التزاماته ولا يستطيع ان يعدل عن قراره وموقفه مهما كلفه الأمر من تضحية فان شرف الإنسان في موقفه والالتزام به.

ردته بعصبية وقالت:

- أي تفكير هذا واية بلاهة (هبالة) هذه، أتريد ان تناطح برأسك اعتى الانظمة همجية ودموية واغناها مالاً وسلاحاً وجيشا، مال عارك.. وعار..؟. وها أنت الان تعمل في الوزارة وتتمتع بمكانة جيدة ومرتب جيد.

ويناشدها مع نفسه:

- أنا الابله ايتها الجنية!.

وتسائل مع نفسه:

- احقا أنا الابله!.

- أنا الابله... أم أنا النبيل، لروحك الرحمة يا دوستويفسكي!.

واردف يوضح لها:

- لا يهمني من اكون، أبلها أم نبيلا، لقد قطعت عهدا ووعدا لا رجعة فيهما، لقد نذرنا انفسنا من اجل ان يعيش شعبنا حياة حرة كريمة، حياة انسانية، من اجل العدل والحق والصدق في العلاقات الانسانية، وان يعم الخير والسلام والازدهار اوطاننا وشعوبنا.

لم تعر لكلامه، حضنته وبكت بحرقة على صدره واخترق عطرها السحري انفاسه، أسرته واصبح عاجزا لم يستطع مقاومة رغبتها الهائجة ورجفاتها، استسلم لها وكادت ان تتشابك الاذرع وتتعالى انطلاقة تأوهات تهتز لها أركان الغرفة، فجأة صعقه ضميره، ارتج، واستجمع قواه، نهض وانتصب.

غادرت دمشق باكية تندب حظها ولم تقتنع في رأي العنيد الابله بتاتا.

مكثوا ورفيقه الدكتور (سديد) في دمشق الجميلة ثلاثة ايام، تجولا في سوق الحميدية وباب توما وبغداد ومقاهي الصالحية وروادها من العراقيين وركن الدين وشارع الحمراء الذي يشرد فيه العقل ويتيه الخيال والبصر برقة واناقة الجمال الدمشقي، وارتواء ما طيب لهم من خمر حاناتها.

وفي الليلة الاخيرة ابلغوهم بسرعة التوجه صباحا إلى محطة الباصات، ومن هناك يقلهم الباص إلى شمال سوريا في المثلث التركي السوري العراقي، وفي المحطة الاخيرة يكون الشخص في استقبالهم يتولى امرهم لكي يكونوا قريبين من مكان الوثوب إلى مناطق كردستان وحين ذاك يتحدد الاتجاه والدخول إلى الوطن.

يقول وسام:

- لم يخطر على البال يوما بان تتسلل عبر حدود وطنك خروجا أو دخولا وتخترق حدود بلدان أخرى وان تواجه الصعوبات أو حتى الموت، ولا يعلم من أين اتت كل تلك القوة والعزيمة والاصرار في مواجهتها.

ويستمر في القول:

- عبرنا الحدود وهدير نهر دجلة الجارف البارد بوسائل لم تخطر في البال ولم تخضع حينها لتصوير الاقمار الاصطناعية بفضل حنكة أبو محمود ومساعده (الزيطة) أبو حسن، فتيممْنا بطمي النهر وقبلنا تراب الوطن، فما هي بلحظات والمفرزة فوق الجرف في هذا الهزيع من الليل تعصر ملابسها تلملم نفسها غير مبالية للجيش أو للجحوش.

المفرزة تقطع وتجتاز الطريق الدولي لتسير بقافلة صوب الجبل الأبيض بعد ان مكثت غاطسة في مستنقع لغرض الاختفاء والتمويه من الطيران الذي ظل حائما فوقنا من العصر حتى الغروب من جراء اخبارية قد وصلت من خلال المخبرين العملاء، وما ان وصلت المفرزة فاذا بقطع جبلي امامك كانه جدار اغلق عليك النفاذ وكان العالم قد انتهى، ماعز أسود وابيض يتقافز من حولك وبرد يقص الظهر. بهذه الحالة من التعب والارهاق، اشار قائد المفرزة ليس لنا خيارا الا المكوث في الاعالي فهناك مغارة (شكفته)، ارضيتها مفروشة من مخلفات (بعرور) الماعز وفضلات الحيوانات والعقارب والقراد والدود واغصان متفرقة هنا وهناك ورائحتها كأنها مقصب المدينة فكانت

هي المأوى في الليلة الأولى في الوطن. ان الاصرار هو الذي اوصلنا لهذا المكان العالي والحافز هو ضحك وسخرية ملازم جواد.

ونحن نواجه خطر الكمائن الليلية من الجيش أو من الجحوش وملازم جواد غاص في ضحكته يوضح يسائل من بجنبه:

- ان امي تظن بانني الان انام على وسادة مطرزة، ماذا سأقول لها نمت في مقصب جبلي للماعز؟.

يواصل وسام:

- قضينا ليلتنا بالكهف تحت وابل القنابل اهتزت له الجبال ويكاد يفجر طبلات الاذان.

مبكرا منذ الصباح والمفرزة عاودت المسير والتجوال بالجبال الأبيض والاسود واكتافها المغطاة بالاشجار والخضرة الداكنة والزهر الأحمر والاصفر والندى وبالوديان بانهارها وهديرها والسواقي ورقراقها، ومن السفوح تلوح للناظر اديرة بيضاء بانعكاس ضوء الشمس، تقفز للمخيلة تصورات وكأن كازانتزاكيس الروائي اليوناني يمكث فيها ارتكن يخط مخطوطته (الاخوة الاعداء) وبنهاية الوادي يستريح جيفارا يدخن سيكاره مع رفاقه استراحة مقاتل ويكون معهم اللقاء.

يذكر وسام:

- وما هي الا ساعات معدودات وصلنا قاطع بهدينان حيث كان الملتقى واللقاء مع رفاق ووجوه طيبة قريبة وبعيدة مرت خلال محطات العمر والذاكرة؛ ذلك أبو بدر الطبيب (ببيريته

الجيفارية) ورفاق اخرين مثله، واصحاب واصدقاء وزملاء من الريف والمدينة والمدرسة والجامعة والجيش والمحافظة والعمل من بغداد، البصرة، الناصرية، كربلاء، الحلة، النجف، الديوانية، العمارة، الرمادي، بعقوبة، دهوك، اربيل، السليمانية، متأبطين بنادقهم، واخرون تركوا كل غال ونفيس وتركوا كل ملذات الدنيا واستجابوا لنداء الحزب والوطن، كيف أتوا!، ومن أتى بهم!.

فجأة تنتصب امامك قامة قائد بطل اسطوري متسلح احمر الوجه طيب أبو جوزيف توما توماس، وبجواره مسؤول حزبي بهيئته الوسيمة من منطقة الفرات الأوسط؛ أبو سامي (د. كاظم حبيب) ونظراتهم تتفحص القادمين، والاداري أبو تحسين، ورفاق سمرٌ ورفيقات من الجنوب والوسط واخريات كانهن راهبات للتو نزلن من تلك الاديرة الجبلية.

يتسائل وسام مع نفسه:

- كم صغيرة هي الدنيا!.

ويستذكر النصير وسام:

- لم يمض يوما أو يومين بعد عناء الطريق، الا وصوت الطيران يطرق الأسماع يدوي في الجبال المحيطة بالقاطع، انزال الجندرمة الاتراك على القمم المشرفة، هب الفتية الأنصار لصده، قاوموه بما امتلكوا من قوة وعزيمة ولغرض تغطية عملية الانسحاب، انسحبت المجموعات المتصدية، وبقيتُ والملازم جواد وثالثنا البغل عند خيمة الدوشكة ونحن في حيرة لانزالها، نزل العناد على صاحبنا البغل في هذه اللحظات، خاطبه جواد

بلهجة عتاب، فحرن ولم يرأف لحالنا وتعبنا، فمزقنا ما احتوت الخيمة وفككنا الدوشكا على عجل وحملناها على الأكتاف نزولا، فكان ملازم جواد في المقدمة لطوله وعرض كتفيه حاملا مخزنها وكنت خلفه حاملا (السبطانة) على الكتف واجر صاحبنا البغل باليد الأخرى، ونحن بهذه الحالة وكهكهات ملازم جواد المتواصلة عالية يتردد صداها من قطع الصخر.

توقف اطلاق النار وانتهى الانزال، والتحقوا بنهاية الفجر مع التائهين منهم ملازم سلام العبلي والطبيب البيطري باسل السماوي الذي سقط متألما من القطع الصخري اثناء المواجهة مع الاتراك. بعد استراحة توجهت المفرزة إلى الفوج حاملة بالسدية أبو سرور (ابوالحشيش الذي ظل لايام يعتاش على الحشائش بعد سقوطه في حقل الغام حسب تأكيد أبو تحسين) وملازم باسل.

بوصفه وسام بالقول:

- كأننا قوافل السبايا وببغال احرنت وانهكت لا تجد طريقها.

وبعد استراحة قصيرة في هذا الفوج تقرر التوجه إلى بشتأشان (الثانية) قاطعة انهارا ووديانا عابرة بالحبل نهر الشين (اعبرانت وربك يا موسى) ونقطة نهاية العالم المخيف (عادل بك) عالم القجقجية، ومنها بين منحنيات الحدود وكمائن الجندرمة الاتراك التي لا ترحم، وقرى مهجورة محروقة ولستة أيام وصلنا الوادي المقدس حصاروست، والبقاء فيه، حيث مقر السرية وبطلها الاسطوري خضر كاكيل، تحيط بالوادي جبال حصاروست وقممها التي لا تزال مغطاة بالثلج.

وبتعجب يتسائل وسام:

- أية قوة واصرار ملكتم ايها الأنصار الاشاوس!.

هـذه ارض الـوطن، وهـذه حصاروسـت الجميلـة وقراهـا ومزارعهـا واناسـها الكرمـاء الطيبـون والـذين نـالوا العـذابات والتهجير من قبل نظام مجرم لـم يرحم ولـم يرح مواطنيه بعربهم واكـرادهم واقليـاتهم. المقـر قاعـة متروكـة تجمعـت فيهـا اعـداد غفيـرة مكبوسـة مـن البيشـمركة، ومـنهم فتيـة مـن الشـباب وفتيـات بعمـر الزهـور قـدموا مـن داخـل المحافظـات تـاركين اهلهـم وعـوائلهم، اختلطت الوجوه، حيث انطبعت صور بعضهم ومن المعارف في الذاكرة منذ سنين.

اتذكر جيدا:

- نزلنا من قمة شاخ رش المشرفة على مجمع سـديكان بعد انتهاء مهمة الاستطلاع والمراقبة مع النصير الملازم فائز للتوجه إلى مقر السريه، كانت الشمس مغبرة حمراء كأنها يوم عاشوراء بمقتل الامام الحسين وال بيته في كربلاء، وكأنها يوم ٨ شباط الاسود في ١٩٦٣ بمقتل الزعيم ورفاقه الابطال، قلبه اعلمه بان كارثة ما قد حصلت.

في بداية الطريق لاحت تجمعات وحلقات، حلقات من الأنصار بملابس مهترئة وعيون محمرة كأنها لم تذق طعم النوم وللتو قد خاضت معركة قاسية.

لم يعرف وسام مالذي حدث وماذا يدور من حديث، ترددت إلـى الأسـماع تسـميات واسـماء؛ بشتآشـان، قنـديل، المكتـب

العسكري، الاذاعة، الاتحاد الكردستاني اوك، الاشتراكي الكردستاني، الديمقراطي الكردستاني..!.

شق طريقه إلى التقرب منهم، ترددت الأسماء بين السؤال والجواب والنفي والتأكيد.. استشهد محمد فؤاد، اسرت احلام واستشهدت، استشهد الرفيق.. استشهد الرفيق..، استشهد نزار ناجي، استشهد ملازم، وقع في الاسر سمير، استشهد أبو تيسير.

ويدور وسام من خلف هذا الجمع من الأنصار ويسألهم:

- من أبو تيسير.. سمير.. سمير.. سمير!؟.

كيف ذلك هل اوصلوا له كاسيت تسجيل صوت ابنه الذي تركه قبل اشهر في البيت الاخضر طفلا يحبو!.

ويكرر وسام السؤال مع نفسه:

- هل هو صديقي سمير بعينه؛ رفيق الغربة، يا لهول المصيبة، وكما الوعد بيننا اردت الالتحاق به وامكانية النزول إلى الداخل.

ويكلم نفسه:

- لاتصدق هذه الأخبار فهي مشوشة وغير كاملة!.

ويسألها:

- أهي تغطية لنزوله إلى الداخل.

تجمع الانصار القادمون من بشتآشان وجبل قنديل في سرية حصاروست واستمع وسام إليهم فردا فردا، وتيقن من تتبع الأخبار من كل مصدر، أنها كارثة حلت بالحزب وانصاره في بشتآشان، سالت دماء طاهرة لشبيبة اتت من كل بقعة من ارض العراق ومن خارجه تاركة دراستها وملذات الحياة والراحة كلها والتحقت بكردستان لرفع السلاح بوجه اعتى النظم القمعية،

قساوة وظلما وهمجية وشراسة، ومن اجل ان تسود العدالة الاجتماعية ويزدهر الوطن.

كانت صدمة كبرى والم اثرت على مجمل الوضع النفسي لفترة طويلة من تواجده في كردستان.

لمَ اقتتال الاخوة أبناء الوطن الواحد؟.

ويستمر وسام بسرد الاحداث:

- لملم الانصار الشباب قواهم، ولم تهزهم وتهزمهم المصائب ولم تثنيهم الجراح بل ازدادوا عزيمة واصرارا بالمضي في النضال. دبت حركة الحياة من جديد في الأنصار والحق يقال بانها تمثلت بجهود واصرار هذه الشبيبة بعمر الزهر والتي لا تعد ولا تحصى من بنات وابناء العراق، عندما تنظر الى عيونهم الجميلة تراها تفيض بالامل والعزيمة والاصرار؛ هي التي قد حثت وحفزت من هم اكبر عمرا منهم وأصبحت مثلا يحتذى بهم أسماء وأسماء لم تستطع عدهم (مخلص، ابو حاتم، سركوت خضر كاكيل، بوتان كريم احمد، وجبار أسعد خضر، دكتور عادل، عمار، سعيد رش، محمد شاه مراد، أبو تغريد باسل الطائي، حسن بلبل، عباس، اوميد وغيرهم الكثير ومن المجهولين، شابات وبعمر الورد؛ احلام، باسمة، نسرين، انسام، ناديا، تانيا، فاتن، ليلى، سمر، استيره، بهار وغيرهن الكثيرات من النصيرات والمناضلات المجهولات اللاتي سطرن اعظم اساطير التضحية والايثار) من جميع الوان الطيف العراقي، هذه الشبيبة هي التي قهرت صعوبة وقساوة الجبال فمنهم أُستمد العزم والموقف والدرس والشجاعة وكلهم صور رائعة جميلة من

الرفيقات والرفاق والاصدقاء في التضحية والايثار والعزيمة والغيرة والبسالة والشهادة وهم سر وديمومة وبقاء الحزب، ويبقى الحب لهم ولكل شهيد في القلب.

ويقول وسام:

- ضمدت الجرح ودستُ عليه ونهضت واستقمتُ.

.. لقد شهدت السماء وملائكتها وبكت دماً لكم وشهدت الجبال لشجاعتكم وتضحياتكم.

مرت الأيام وتأقلم وسام مع الحياة الانصارية ومهامها المتنوعة من الاستطلاعات والحراسات والكمائن والمفارز القتالية رغم الالم والمرارة والخسارة التي راح ضحيتها كوكبة من الشهداء من المعارف والاصدقاء ومن حملة الشهادات العلمية ومنهم خريجي الاتحاد السوفياتي.

ولم تمض اشهر حتى دك الطيران الحربي وادي حصاروست وقصفه بالصواريخ، واتخذ الحزب اجراءات جديدة بعمل مفارز صغيرة ونقل هذا التجمع الكبير إلى مواقع وفصائل في مناطق قاطع اربيل ومنها فصيل للاعلام المركزي.

وبنفس الفترة تعرضت الأحزاب الايرانية إلى حملة اعتقالات وسجون بعد ان كانت مع خط الامام، منها حزب تودة الايراني، فدائي خلق اكثرية، ومجاهدي خلق وغيرها من الأحزاب المعارضة والتجأت اعداد غفيرة منهم إلى مناطق كردستان كضيوف على الحزب حيث اضيفت اليه مسؤوليات والتزامات كبيرة رغم الخسارة الكبيرة والصعوبات التي واجهته في احداث بشتآشان.

جرى نقل وسام إلى فصيل الاعلام، مارس جميع الواجبات والمهام الانصارية والمفارز المختلفة والاستطلاعية واختيار الاماكن الملائمة لاجتماعات اللجنة المركزية في ١٩٨٤ للاستعداد لعقد المؤتمر الرابع للحزب واماكن للمطبعة واذاعة الحزب وذلك من خبرته في الخرائط الطوبوغرافية (الكونتورية).

يذكر بانه أول مرة يشاهد الصحن الطائر باضوائه يحوم فوق مكان حراسته، سحب اقسام بندقيته وصوبها نحو الجسم الطائر، وهو متسمرا بمكانه مراقبا، بحالة من الحيرة والتفكير والتردد خوفا من ايقاظ المجتمعين ومن حوله من الرفاق، فما هي الا لحظات دار الطبق الطائر، ارتفع واختفى وراء الجبل.

واضافة إلى المهام الانصارية الأخرى انيطت به تصميم المطبوعات والمنشورات الحزبية والصحف الرئيسية منها الجريدة الرسمية للحزب طريق الشعب، ريكاي كردستان، الفكر الجديد (بيري نوى)، الشبيبة والطلبة، رابطة المرأة وغيرها من المطبوعات باللغتين العربية والكردية، ووفق امكانيات بدائية بسيطة (منكبا على نور الفانوس أوالالله)، عاملا ساهرا ناكرا للذات بدون كلل وملل ليل نهار وبتعاون الأنصار الشباب المخلصين في المطبعة؛ عبوسي، بلبل، مروكي ورفيق من الهورمان الايرانيين والاخرين في فصيل الاعلام، تصمم المطبوعات، تطبع، تصور، تسحب على الرونيو، تقطع وتجمع وتحزم على البغال، وترسل إلى القواطع المختلفة.

جرت احداث في غاية التعقيد في منطقة كردستان، منها الغارات المستمرة من قبل الطيران الحربي العراقي والتركي

والايراني وتداخل للقوات العسكرية، حيث ترابط القوات العراقية على القمم الجبلية وقصفها للمواقع ومرور البازدار الايراني وقوات من مجاهدي خلق وبيشمركة حزب العمال التركي، الأمر الذي عقد الوضع مما اضطر الحزب إلى البحث عن مواقع بعيدة عن هذا التداخل.

يذكر وسام وهو في حراسته الليلة، وكل شيء متجمد واذا به يلاحظ من بعيد مفرزة تنحدر باتجاه الطريق إلى الاذاعة لم يستطع فرزنتها انتظر لاقترابها بعض الشيئ بعد ان اخبر المسؤول العسكري لغرض الاحتياط فصاح بهم:

- قف جي زلم!.

عند اقترابهم منه اتضح بانهم فتية صغار من البازدار الايراني ومعهم من يعرف مفردات عربية.

سأله وسام:

- إلى أين ذاهبين بهذا البرد والثلج؟.

اجابوه سوية:

- إلى اربيل ومن ثم إلى كربلاء كربلاء بلغة مزيج من الكلمات الكردية والعربية وبلكنة فارسية!.

افتهم وسام بانهم يريدون الذهاب إلى كربلاء واجابهم:

- إلى أين انتم من اربيل وكربلاء، سوف تتجمدون خلال المسير لمسافة قصيرة، اربيل بعيدة وكربلاء ابعد من ذلك بمئات الكيلومترات، تأكلكم الحيوانات في الطريق وبهذا الجو القارص أو تصطادكم الربايا العسكرية، فهلموا بالرجوع من حيث اتيتم، والا لا خيار لكم.

فهم وسام الموقف من نظراتهم المتوسلة وبانهم مقطوعين السبيل، قدم وسام لهم بعض الخبز وبقايا من شاي الليل وخاطبهم ببعض الكلمات الفارسية التي حفظها من أيام الفتوة من جارتهم الجميلة:

- بفرمان فرمو نان خواردي.

تشكروا من وسام ومن مسؤول الفصيل العسكري ورجعوا بطريقهم:

- خدا حافيز خدا حافيز.

ظلت نظرات وسام تتبعهم حتى تلاشوا بين الثلج، يكلم نفسه وصاحبه:

- كم هي الحرب ظالمة مدمرة ووقودها الناس الفقراء والمساكين ومن أبناء العمال والفلاحين ومن المغرر بهم ومن كلا الطرفين ومن المخدوعين بالوصول إلى كربلاء، وكم كان موقف الحزب صحيحا بالمطالبة بوقف الحرب المدمرة التي لا معنى لها.

وقبيل توقف الحرب في ١٩٨٨ استخدم النظام العراقي (علي كيمياوي) السلاح الكيمياوي في مدينة حلبجة راح ضحيته خمسة الاف نفس بشرية من الشعب الكردي وغيرها من المناطق التي زعم بها النظام بوجود قوات ايرانية، وتعرض قاطع بهدينان إلى القصف الكيمياوي راح ضحيته عدد من الشهداء وقسم اصيب بالعمى. الأمر الذي تطلب من الحزب في فصيل الاعلام اتخاذ القرار بالابتعاد عن موقعه ونقل ما يمكن نقله وحرق الوثائق ودفن الاذاعة والتصدي لتقدم الهجوم مع بيشمركة الحزب

الديمقراطي الكردستاني باتخاذ موقع مرتفع يسمى قبر زاهر في المثلث العراقي الايراني التركي والذي استمرعدة أيام وليالي يتناوبون في التصدي لهجوم النظام الذي استعمل فيه كافة الاسلحة التي تهتز وترتج لها الجبال. وشاهد بام عينية قوافل الامهات والاطفال وكبار السن من الرجال والنساء الجرحى والمصابين والهاربين من القصف الكيمياوي عبر هذه الحدود تاركين مزارعهم ومواشيهم وبيوتهم وقراهم، وانتبه إلى شابة حاملة طفلها والدم ينزف من صدرها جراء اصابتها بشظية وقد عالجها احد الرفاق المضمدين بدواء يحمله في حقيبة الظهر (عليجه).

يؤكد وسام ذات مرة ونحن في حالة رصد وترقب:

- مر بنا احد البيشمركة في الربية وقت الحراسة ذاهبا إلى قرية على الحدود في ايران، توقف لاشعال سيجارته وتحدث مع الموجودين وتساءل ما جدوى كل هذا، سوف تتوقف الحرب قريبا، وتحل القضية العراقية والفلسطينية ايضا.

تساءل وسام مع نفسه:

- ماذا يقول هذا البيشمركة البسيط ومن أين له كل هذه المعلومات!.

ويتذكر وسام خلال البقاء والدفاع عن هذه المنطقة:

- يوم خفارتي، جلبت الطعام لمن كان في الخيمة من البيشمركة، ولم تكن لي حينها الشهية فصعدت إلى حفرة الملجأ للمناوبة، فما هي الا بثواني واذا بالقذيفة تقذف باشلائهم إلى اعنان السماء.

- يصور احد الأنصار من رسامي الكاريكاتير في قمة جبل على الشريط الحدودي، حيث يجلس الجندي العراقي بظهر الجندي الايراني يتقاسمان جرعات من الماء من زمزميتهما ويتساءلان مالذي دفعنا للحرب وما الذي جنيناه منها!.

7

توقفت الحرب العراقية (قادسية صدام) – الايرانية (دفاع مقدس) الدامية في اب ١٩٨٨ وزج النظام بقواته العسكرية والجحوش بحرق وقصف ما تبقى من القرى والارياف في كردستان والتي لم تخضع لسيطرته اثناء الحرب، خفف الحزب من بيشمركته من النصيرات والمرضى والعوائل بالخروج من كردستان والاقتصار على مفارز صغيرة خفيفة متحركة في القواطع، ونظمت عملية الخروج حسب الظروف والامكانيات المتاحة على شكل مجاميع صغيرة. أُبلغ وسام وقت غروب الشمس باتلاف التصاوير وتسليم وثائقه وجوازه تحسبا للطريق وسريته، سلم جوازه واحتفظ بشهادة تخرجه التي حملها طيلة هذه السنين (بعليجته)، جلس أمام صخرة كبيرة حمراء اللون بالقرب من ربيته واخرج من جيب قميصه المزرر صورة لحبيبته سفيتلانا وقطعة قماش صغيرة من قميص جنان محتفظا بها للذكرى، امسك صورة سفيتلانا بيده يناجيها، والتزاما بالتعليمات في اتلاف جميع الوثائق والصور، تردد لم يستطع اتلاف الصورة، بل وضعها في وسط كتاب لحفه بكيس نايلون ووضعه تحت هذه الصخرة واغلقه بالحجر وخاطبها:

- سوف القاك يا حبيبتي عن قريب واعوضك بكل الحب.

غمرت دموعه الحارة وجهه، يندب حظه العاثر يتألم بتعذر الالتحاق بالداخل وعلى مغادرته كردستان التي امست مدينته ومكانه الدائم في الاعلام الذي اعتاد عليه واصبح جزء من حياته، يناشد صديق العمر الشهيد سمير وهو بقميصه الأحمر الذي اهداه له من زيارته إلى اليونان، يناجيه:

- كم تمنيت الالتحاق بك في بشتآشان لنكون سوية، كان علينا حينها النزول إلى الداخل، ولنسمع سوية (كاسيت) التسجيل لطفلك الذي حملتني اياه زوجتك عند مغادرتي عدن وسلمته للرفاق، ساكون قريبا من اهلك إذا بقيت على قيد الحياة اواذا شاءت الصدفة وجمعتني معهم، وعهدا على ان أقول لهم:

- كم أنت يا سمير بانسان جميل تحب الحياة.

- نم قرير العين فمكانك في قلبي.

ويتساءل مع نفسه وبتكرار مالذي حل بالشبيبة أيام خدمته العسكرية هل هم على قيد الحياة، وكيف تتبع اخبارهم والوصول إليهم ولا احد يعرف اسماءهم بعد هذا الغياب، مالذي حل باهله، وخلال تواجده في كردستان لم يعرف عن اخبارهم سوى اخبارا عن مداهمة مفرزة الامن بيتهم عدة مرات لحصولهم على اخبارية بتوجه الرفاق بالنزول إلى تلك المناطق في الداخل.

في الصباح الباكر سلم سلاحه ومخازن عتاده لقادة فصيله المرابط في منطقة قبر زاهر، وودعت المجموعة الرفاق ومضوا متوجهين إلى الحدود وفي القرية الكردية الايرانية على سفح الجبل من الجهة الأخرى باتوا ليلتهم، ليعاودا السفر صباحا إلى

اورمية ومنها إلى طهران حيث تجمعت المجاميع حسب دورها وكل حسب الطريق المختار وحسب الدليل.

لاول مرة يركب وسام سيارة خلال تواجده في كردستان وحين جلس في المقعد احس بانه خفيف الوزن ويكاد ان يطير، واول مرة يلبس لباسا مدنيا، لبس قميصا اسودا، طعج حذائه على طريقة الزوار الايرانيين وامسك بيده سبحة سوداء ومحبس فضة في خنصره المكسور وجلس بجنب رجل معمم بعمامة كبيرة في المقعد المجاور لكي لا يثير الانتباه في نقاط التفتيش، وللغرابة لم يسأله احد طيلة المسافة وصولا إلى طهران بفضل الجلوس مع هذا المعمم.

مكث بمكان حزبي لبضعة أيام مع مجموعة من الرفاق، قرأ فيها ما تسنى له من الكتب التي حرم من قراءتها أيام الجامعة وخدمته العسكرية بعد اعتقال أصدقائه الجنود في المعسكر لقراءتهم لجريدة طريق الشعب ومن ضمن ما قرأ أيضا بعض الروايات؛ العقب الحديدية للكاتب الامريكي جاك لندن، ذهب مع الريح للكاتبة الامريكية مارغريت ميتشل، ورواية حب في زمن الكوليرا للروائي الكولومبي غارسيا ماركيز، يهيم فيما قرأ ويسائل نفسه:

- لم يذهب الحب وسيبقى في قلبي مهما طال الزمن.

جاء موعد توجههم إلى هدفهم المرسوم للوصول إلى الحدود السوفياتية مع التنبيه باخذ الحيطة والحذر والسرية التامة، ومن الاحتمال عدم وجود طرق سالكة، لقد اخبروه بكلمة السر عند الضرورة، ووفق تجربته اتخذ وسام تدابيره من ناحية الملبس

والحذر، وقبل وصولهم إلى مرقد الامام الرضا (ع) لاحظ بان هناك مجموعة أخرى من الرفاق قد حُوصرت من قبل البازدار الايراني، علم فيما بعد بانهم اعتقلوا وزجوا في سجن ايفين الرهيب، الأمر الذي اضطر بالدليل النبه إلى اختيار طريق أخر بعيد عن المدينة لتخطي نقاط التفتيش محاذي للقرى الباكستانية والافغانية الجبلية، وهم يجولون الجبال ليلا ونهارا، يتذكر وسام ابياتا من قصيدة ايها الأرق للجواهري:

- أنا عندي من الاسى جبل يتمشى معي وينتقل
أنا عندي وان خبا أملٌ جذوة في الفؤاد تشتعل
أنما الفكر، عارماً، بطلُ أبد الآبدين يقتتل

من حسن حظهم للدليل معرفة جيدة بمداخل هذه القرى المتداخلة حيث تتبع بعضها لسيطرة مجاميع طالبان الافغان واخرى تركمان ايران ولولا نباهته لاوشكت المجموعة ان تقع في الاسر فاتخذ القرار بالاستمرار وعدم التوقف فيها والتوجه مباشرة نحو الحدود السوفياتية كي يصل قبل بزوغ الفجر، حيث يبدأ الطيران الايراني بالحوم بالقرب من المحرم ما بين الحدود، واشار بيده باتجاه الحدود.

رغم لسعة البرد الجبلية هرعت المجموعة جريا نحو الحدود وبعد ان تيقن وسام باتجاههم الصحيح إلى جهة الشمال باستدلاله بالنجم القطبي وذلك من خبرته في الجيش وقرائته لتعاليم الاستدلال ليلا وترقبه ظهور مجموعة الدب الكبير والصغير اثناء حراساته الليلية في الانصار. وهو يسير في الإمام كدالة لهم تراءى له بصيص ضوء بعيد ولكن المجموعة تعبت من

المشي، ولم تتبق مسافة كبيرة إلى بصيص الامل، اتفق على تركهم عند متن النهر الجاف لكي يستريحوا بعض الشيئ وطمأنهم بانهم على قرب من حدود الاتحاد السوفياتي وسوف يستطلع ويتحرى المكان بمعية احد الرفاق ويرجع إليهم على عجل، جرى ورفيقه بكل ما امتلك من قوة وعزيمة نحو بصيص ذلك الضوء الذي اصبح يقترب منه، رويدا رويدا اقترب من السياج الحدودي ورأى بعيون مركزة مفرزنا الاعلانات الحمر المخطوطة بالكتابة بلون يقترب من الأبيض والاصفر حيث ان السوفيات يستعملون اللافتات الحمر والكتابة بالابيض والاصفر وتأكد من هيكل المركبة التي تشبه ناقلة الجنود (الزيل الروسي)، رجع مهرولا كل تلك المسافات نحو الجنوب كانه الناجي من الغرق نحو الساحل، التقاهم بنفس المكان عند النهر، قص عليهم كل ما شاهده بدقة وامانة:

- اقتربت من السياج ورأيت بام عيني اللافتات الروسية وناقلة الجنود وتيقنت بانها نقطة حراسة سوفيتية، ولم يتبق من الوقت الا القليل لبزوغ الفجر واذا تأخرنا تلتقطنا الطائرات الايرانية صباحا، فلنجري نحو الضوء بكل ما ملكنا من قوة ونصل إلى هناك وسوف ينتشلنا الرفاق السوفيات.

تشجع الرفاق على ما ابداه وسام من معلومات، واثناء سيرهم بدأت كاشفات الضوء تمشط المكان افقيا وعموديا وبحركة كشافات الضوء هذه تنبطح المجموعة ارضا وتنهض إلى ان وصلت إلى مسافة ليست ببعيدة عن السياج ترددت إلى السماع نباح الكلاب وحركة الأضواء، اتضحت أنها نقطة مراقبة حدودية،

اقترب وسام من السور (السياج الحديدي) فتردد عن الامساك به ظنا من كهربته وفقا للمعلومات المسبقة بان الحدود السوفياتية كلها مكهربة ولا يستطيع الجرذ ان يمرق منها، وقال وسام في نفسه:

- لا خوف من الامساك به واصبح فداءا من اجل سياج السوفيات وبوصول الرفاق حدودهم بسلام.

تعالت وتمازجت الاصوات وحركة الجنود وسحب اقسام البنادق ونبح الكلاب، مسك وسام بالسياج ونب:

- هذا ليس بمكهرب.

فصاح الجنود بالمجموعة ان يقفوا ومن يكونوا، لم يتوانى وسام عن اجابتهم باللغة الروسية وبكلمة السر، فتحت لهم باب السياج بعد ان استقبلتهم وشممتهم الكلاب البوليسية السوداء المخيفة وتم تفتيشهم بشكل دقيق من اجزاء اجسامهم والقوا بهم في ورشة كراج، اخبرهم وسام بانهم جياع وعطشى، فقدم الجنود لهم قطعاً من الخبز الاسود والزبدة، تطمأن الرفاق بعض الشيئ لكونهم الان عند الرفاق السوفيات، وسوف ينالوا قسطا من الراحة ويهيأ لهم الطعام.

ما ان بزغت الشمس جمعوهم وعصبوا عيونهم واصعدوهم الناقلة وكان اخرهم وسام، واثناء صعوده رفع طرف الخرقة من عينه وجلس في بداية المقعد يرى اتجاه نور الشمس عند حركة الناقله، تذمر بعض الرفاق في الناقلة متسائلين خوفا من رميهم وارجاعهم إلى الحدود، واجابهم وسام:

- بانهم يتجهون شمالا لان الشمس تقع على عيني اليمنى أي شمس الصباح من ناحية الشرق ويعني بان الناقلة تتجه شمالا، أي تتجه ضمن حدود الاتحاد السوفياتي وليس من ناحية الجنوب ايران، ولو ارادوا ذلك لاغلقوا الباب وعدم استقبالنا ودخولنا حدودهم ولاسيما هنالك كلمة سر، واكرمونا الخبز الاسمر والزبدة المملحة، والا كان مكاننا ايفين الرهيب، الا صار يكفي هذا، فاطمأنوا، ولا تخافوا ولا تحزنوا ان الله معنا.

بعد نصف ساعة تقريبا توقفت الناقلة أمام مبنى، نزلت المجموعة واتضح بان المبنى سجن ذو زنازين تتسع لشخص أو لشخصين، ومع ذلك ارتضت المجموعة بسجن الرفاق السوفيات هذا ولا بارجاعها إلى ايران، وزعوهم شخصين لكل زنزانة، قضوا فيها مدة اسبوعين، ويقدم لهم الطعام من خلال فتحة صغيرة في الباب الحديدي والشاي كالشاي بعد احداث بشتآشان.

تحسنت بعد ذلك ظروفهم بالسماح لهم بالتمشي بعض الوقت في الساحة الصغيرة عند قضاء حاجتهم، وتردد على مسامع وسام نقاش ما يدور خلف الجدار واثار انتباهه، استطاع في اليوم الثاني ان يتصنت وتيقن وتعرف على الاصوات من ذاكرته، انه صوت ولهجة الرفيق البصراوي (ابو يوسف، أبو عواطف) عضو اللجنة المركزية الذي كان مسؤولا حزبيا عن سرية حصاروست. وتكررت محاولة وسام للاستماع للمتواجدين في هذه الغرفة التي تعلوها نافذتان صغيرتان مطلتان على الساحة، تيقن من عددهم وعرفهم من نبراتهم ولهجتهم، وقال مفتخرا:

- الم اقل لكم لا تخافوا ولا تحزنوا، نحن ورفاق اخرون في ضيافة الرفاق السوفيات.

ونبوا جميعا:

- امسينا ثلاثة اسابيع بدون استحمام فمرحبا بالضيافة الرفاقية ومرحبا بهذا التكريم.

ونب رفيق اخر:

- عمي سجن الرفاق السوفيات ولا سجن ابو عدي في أبي غريب أو سجن ايفين في طهران.

ونب أخر ساخرا:

- عمي اكل ونوم مال الكوم، نوم حمام.

واردف الاخر:

- عمي لا حراسة بذاك البرد ولا منّية الاداري أبو جعفر، الله يحفظ العم غورباتشوف وثرثرته المتواصلة بـ(البيريسترويكا مالته) واقتصاد السوق والجمعيات الخ...

ملل وضجر وحيرة.. مرت الأيام ولا احد يعرف مصيره والى أين التوجه والمسير.

وفي احد الأيام ابلغوهم وقت العصر بانهم سوف يخرجون من هنا وسوف تكون وجهتهم إلى موسكو، لكن القطار حط بهم في مدينة تركمانية ونقلوهم فيما بعد إلى ما يسمى ببيوت الراحة (دوم اوديخا) في مكان معزول خارج المدينة وبحراسة غير مكشوفة، تكدست فيه المجاميع من كل حد وصوب تنتظر ما يقرره القدر، وتتالت الأخبار السيئة، انفجار محطة جرنوبل، الهزة الارضية في ارمينا، الوضع في الاتحاد السوفياتي فترة

غورباتشوف وصراعه مع يلتسن، وتدهور الاوضاع وخطورتها التي تنحوا إلى تفكك الاتحاد السوفياتي، وهم وبهذا الوضع العام للاحداث ينتظرون انفراجا في وضعهم.

نقلت السلطات المحلية قسما من المجاميع إلى موسكو مباشرة ونقلت مجموعة وسام إلى عشق آباد، وسكن وسام في مكتب الصليب الأحمر ملازما لاحد الرفاق القيادين والمصاب بالكيمياوي في المستشفى، وفي المكتب اقام وسام علاقات طيبة بين موظفي ومسؤولة الصليب في الجمهورية، إنسانة طيبة، شرقية - روسية الجمال جميلة القوام قوية الشخصية، ترجَاها وسام بمساعدته بالسفر إلى طاشقند بعد ان قص لها بقصته وبان له حبيبة تنتظره وينتظرها طيلة هذه السنين، تألمت وتعاطفت معه وهيأت له وثيقة وتذكرة سفر بالطائرة وعلى مسؤوليها وبشرط ان يذهب ويرجع بدون أي اشكالات ومشاكل واوصته:

- بان تكون على حذر، حيث انقطعت اخبارك عنها خلال هذه السنين وانت لا تعرف ظروفها الحالية، ومن المحتمل ان تكون لها عائلة، فكن رجلا حضاريا، وهذه الاجازة لمدة ثلاثة أيام تستطلع فيها الأوضاع وترجع لنا بالسرعة الممكنة لاننا قد احببناك ولكل حادثة حديث فلا تيأس من رحمة الله.

اجابها متشكرا:

- اعاهدكم بذلك.

ودع الرفيق القيادي ابا ماهر الراقد في المستشفى واخبره بسفره هذا لثلاثة ايام، ركب الطائرة وغط في التفكير بكيفية الوصول إلى سفيتلانا والبحث عنها ولكن هذه المسؤولة

التركمانية قد شوشت ذهنه وتفكيره واضطرابه وزادت من قلقه، يتساءل مع نفسه:

- هل لها معرفة مسبقة بسفيتلانا، من أين اتت بهذا الكلام، وهي الشرقية، الم تذكر بحديثها بان جدها كان محاربا وقد غاب عن اهله طيلة فترة الحرب حتى وصوله إلى الرايخستاغ.

خرج من المطار كانه الام هارعة فزعة تبحث عن طفلها التائه، احس بانه مقطوع من الزمن، لا يعرف كيف وصل إلى الحي، تفحص المكان، ووجده قد تغير، أُنشئت بنايات جديدة جميلة مرصعة بالموزايك غير تلك التي صممت في العهد الخرشوفي، لكن بنايتها يعرفها من واجهتها ولونها البني، كاد قلبه ان يقوده ويتسلق البناية لشرفتها ليراها مستلقية في غرفتها تنتظره بثوبها الأبيض الجميل، ارغمه تحذير ووصية مسؤولة الصليب بالتأني والجلوس منزويا في مقاعد الحديقة الداخلية التي طالما جلس فيها سابقا مع سفيتلانا يراقب الوضع ودقات قلبه في تزايد واضطراب يسترق النظرالى شرفتها بين اللحظة والاخرى، عسى ان تظهر كعادتها، عسى ان تخرج من مدخل البناية وتكون لها مفاجئة، يخاطب وسام نفسه:

- لا.. لا ليس كذلك.. لا تعملها، ممكن ان يغمى عليها عندما تراك وبدون سابق انذار.

ازداد قلقه كقلق المنتظر خارج غرفة العمليات ينتظر بفارغ الصبر خروج الطبيب لابلاغه بالنتيجة التي قد طال انتظارها،.. انتظر حتى العصر فقرر الصعود إلى الشقة، طرق الباب لعدة مرات متقطعة وانتظر، تصنت بعض الوقت، هدوء بهدوء كأن

البيت قد هجر، لا صوت ولا حركة تذكر، خرجت شابة من الشقة المجاورة وسلم عليها وسام وسئلها وفكه يرتجف:

- اتكون سفيتلانا تعيش هنا؟.

اجابته الشابة بعد ان مسحته بنظراتها المتطفلة من رأسه إلى أخمص قدميه:

- نعم كانت تعيش هنا، ويقال بانها هاجرت إلى إسرائيل!.

اعاد وسام عليها السؤال بتعجب:

- إلى إسرائيل.

اردفت الشابة بقولها:

- نعم.. نعم هي واطفالها.

شكرها ونزل ممسكا بالسلم خائر القوى لا يحسن الوقوف على ارجله وكأن مهجته وامعائه قد خرجت من جوفه إلى السماء، تجره خيباته، تعثر وكاد ان يسقط لولا امساكه بمقبض الدرج، جلس في صحنه الاسفل يندب حظه الخائب وهو الذي اصبح متهجولا بين البلدان غريبا مجهولا لا يملك حتى وثائق رسمية ولا يعرف إلى أين يتجه ويسير والغروب يداهمه، يدندن يكرر السؤال على نفسه:

- ايعقل إلى إسرائيل، مالذي حل ويحل بالعالم؟.

ويكرر مع نفسه:

- وانت إلى أين..!، اوزبكستان.. كردستان.. ايران.. باكستان.. افغانستان.. تركمستان.. اوزبكستان.. اما آن لك الاوان...؟.

لم يتذكر وسام يوما ومن خلال نقاشاتهما المتنوعة بانها قد تفوهت بكلمة إسرائيل، ولم تكن من ضمن رغباتها وطموحاتها واحلامها سوى الاستقرار وان تغمره بالحب والسعادة، كانت تعرف بكنيسة المهد التي ولد سيدنا عيسى في موقعها خصوصا عندما يستقبلون اهلها اعياد الميلاد وعند التلفاز، وتعرف بيت المقدس وابعاد القضية الفلسطينية، تحب ان تذكر له حضارة سومر وبابل واشور والحضارة الفرعونية وذلك لاهتماماتها ومطالعتها الكتب الادبية، وهي التي شجعته بشكل مباشر في قراءة واختيار الكتب من الادب الروسي، وتهوى مشاهدة المسرحيات والمعارض، وبفضلها ارتوى من هذا النبع الطيب.

استجمع قواه ونهض وقرر الذهاب إلى الكلية التحضيرية عسى ان تكون صدفة ما، وان يمر على بيت المدرسة زويا عسى وان يلقاها وعندها الخبر اليقين. أستجمع كل ما في ذاكرته لاختيار باب شقتها التي هي على يمين الدرج، تشجع وطرق الباب، خرجت له طفلة بعمر العشرة سنوات بوجه جميل وبضفيرة شعرها الجميلة وبثوب من النقشة الاوزبكية تشبه إلى حد كبير زويا، سلم عليها ببطئ واراد ان يتمعن اكثر كي يكون سؤاله في مكانه، وسئلها بثقة:

- اهذه شقة المدرسة زويا في الكلية التحضيرية؟.

اجابته الفتاة:

- نعم وماذا أقول لها من القادم!.

تنفس الصعداء من سؤالها؛ ماذا أقول لها، اذن فهي موجودة، واجابها بلطف:

- قولي لها وسام وصل من بغداد الهادئة... هنالك اغنية بغداد (سبكوينه سبكوينه) هادئة... بغداد هادئة.

وبنفسه يقول:

- كانت بغداد هادئة، وهي الان لا تهدأ.

ذكر وسام للفتاة كلمات هذه الاغنية؛ بغداد هادئة هادئة، كي يضفي على هذه المقابلة هدوء وطيبة وشفافية وانه لضيف مقرب وليس بثقيل، ضحكت الفتاة من كلماته واوضحت له بانها تعرف هذه الاغنية المشهورة، ومن خلال سماعه لمناداة الفتاة لامها تيقن بانها بنت زويا.

وقد اوضحت لها:

- بان هنالك شابا يقول اسمه وسام وصل من بغداد (سبكوينه سبكوينه) الهادئة الهادئة.

احس بطقطقة في ارضية الشقة كأنها بهزة ارضية، هرعت زويا على عجل إلى الباب حافية القدمين نظرت اليه وتفاجأت، وضعت يديها على صدرها وقلبها، ترنحت بعض الشيئ وكادت ان يغمى عليها لولا امساكه بها، وهو نفس الشيئ الذي اخافه بان يحدث لاسفيتلانا عند مفاجأتها بالظهور.

رمت بنفسها نحوه حضنته وقبلته وبكت على صدره، أحس بنفس ذلك الدفء. ادخلوه البيت، وتنشقت بمنديل ما وتساءلت:

- يا ربي... ايها معجزة!، ايعقل هذا بان يظهر وسام بعد سنين.

كانت لها صدمة، كمفزوعة من حركة الميت في تابوته، واردفت تقول:

- أنا لا اصدق ذلك اتكون اخا لوسام.

اجابها باسما:

- عزيزتي زويا أنا وسام، لقد استشهدت عدة مرات، فهذه هي الحرب، ممكن ان تكون الشهادة أو العودة للديار. وها أنا لازلت على قيد الحياة بدمي ولحمي.

وهي تنظر اليه بتمعن، نسيت ان تقول شيئا ما، بعد ان استرجعت قواها من الصدمة والمفاجئة تفحصته وتذكرت وقالت له:

- نفس تلك الابتسامة الجميلة، وسام أنت.

وهو يقول بنفسه:

- أنها بنفس ابتسامتها والرصعة في خديها، زويا شهرزاد سمرقند، جميلة الخلق والنفس وعليها اليوم ان لا تسكت عن الكلام الصريح والمباح.

جميل حينما يكون لذكاء ودهاء المرأة وهي تمسك بدفة الحديث تأثيرا ايجابيا حسنا على نفسية المقابل المستمع لتهدئته من روعه وقلقه، وزويا الشهرزاد تحسن الحبكة هذه ولتقربها من منظور الواقع، واصلت الحديث كأنها تضع الخطوط العامة للاجابة لهذا الامتحان الصعب والمفاجئ:

- منذ ان غادرت موسكو إلى عدن وسفيتا ليل نهار تترقب الأخبار لحين استقرارك هناك، واصبح شغلها الشاغل تقصي الأخبار حتى أصبحت ملمة عارفة باليمن بخريطتها ومدنها وجبالها وخليجها وحتى (قاتها).

- ومنذ ذلك الحين انقطعت الأخبار عنك، وهى تتقصاها بدون ملل من خلال تواجد الطلبة اليمنيين الدارسين، ومن خلال سفراتها المتكررة إلى موسكو ولقائها بمن تبقى من الاصدقاء والرفاق والمقيمين العراقيين الذين يعرفونك خير المعرفة، ومن خلال الالتقاء بزوجة احد رفاقكم الابطال والموجود في كردستان والعائدة من عدن، واستمرت في البحث والتقصي بالسؤال من خلال جماعتكم في موسكو حتى بعد أحداث بشتآشان وتوقف الحرب العراقية الايرانية، تحرت بعناد وبدون ملل.

- وتواردت لنا الاخبار المتضاربة الاليمة حول معارك بشتآشان الأولى والثانية من كل صوب وركن والتأكيد على استشهاد اكثر من ثمانين رفيق بمن فيهم من خريجي جمهوريات الاتحاد السوفياتي ومن ضمنهم أنت وسمير وقد التحقتم بكردستان قادمين من عدن في نفس الفترة وهذا ما أكده جميع معارفكم.

- وبعدها حزنت حزنا شديدا وتمرضت لفترة طويلة وادخلت المستشفى لعدة مرات وأصبحت نحيلة القوام وضاع ذلك الجمال.

أحست زويا بأن حديثها قد بان تأثيره على وسام وعلامات الألم ظاهرة على وجهه المتعب المشدوه، وادركت بانه قلق يريد اثارة أسئلة ما تخترق خاتمة الحديث، فاستمرت:

- صبرت وكافحت طيلة هذه السنين، ومرضت أمها ورحلت إلى عالم السكينة في ١٩٨٧ وكانت تحبك مثل ابنها، وذات يوم نهرت سفيتلانا وقالت لها:

- سوف يعود إليك وسام، وهو حي يرزق، اعرف ذلك، الأنه يحبك حبا جما، وواضح باخلاقه وصدقه وتصرفه وتعامله خلال تواجده معنا.

- أصبحت سفيتلانا بعد وفاة أمها وحيدة مكسورة الخاطر يزورها اخوها بين الحين والحين.

- مرضها سببه حبك وتعلقها بك، وانقطاع اخبارك، وانتظارها لك طويلا، وحدتها واخبار استشهادك وبين الشك واليأس واليقين.

- تصور..، حينما أزورها في سريرها تظل صامتة وعينها بالدمع ترنو إلى الباب وتقول:

- لا تغلقي الباب، سيأتي وسام وقت الغروب كعادته.

- وترقد.

اغرورقت عيناه بالدموع وهَمَ بالبكاء لاحساسه بما سببه من الالام والعذابات وعدم الاستقرار لسفيتلانا الإنسانة التي احبته وانتظرته وضحت من اجله بشبابها وحياتها ومستقبلها، والمه لرحيل أمها فهي كانت له بمثابة الام الثانية في غربته وتلك الأيام التي يقضيها معها لتقص له مشاركتها في حرب الأنصار السوفيات والاستمتاع في تحضير الشاي العراقي له في المطبخ أيام البرد والشتاء.

خرج من صمته ونجح في اختراق حديثها يسألها:

- هل سفيتلانا بخير؟، واين هي الان؟. ولكن جارتها اليوم قد ابلغتني بأن سفيتلانا قد هاجرت إلى إسرائيل مع طفليها.

انتبهت وادركت زويا من قوله، وعلى ما يبدو بان وساما لم يُميز ولم يعرف من هي سفيتلانا التي قصدتها الجارة، زويا تعرف سفيتلانا التي هاجرت بشكل جيد، وانها من اقرباء سفيتلانا الحبيبة، وهي صحفية ومترجمة اسكنتها سفيتلانا بشقتها طيلة الوقت بعد وفاة والدتها، ولم تسافر إلى إسرائيل بل التحقت بزوجها وسافرت إلى سوريا، والجارة الجديدة لا تعرف بكل هذه الأخبار فهو مجرد تشابه بالاسماء واختلاف بالمعلومة والانباء، وبهذا الأمر ابتغت زويا الداهية ان تخبئ الموضوع وتحاول بقدر الامكان ان تبطئ وتؤجل خاتمة الحديث اوتصيغها باستشارة من زوجها محمدوف، أو من هنا وهناك إلى ما بعد الصباح.

واردفت بالجواب:

- أنها لم تهاجر الى إسرائيل، اصبر قليلا ولا تقاطعني. سوف تأتيك الاخبار.

- المهم... بان الله قد كتب لك عمرا وها أنت حي ترزق وتتواجد بيننا.

- واعلم حقيقة بان الحب الصادق يبقى ويدوم مهما قست الأيام وباعدت المحبين.

- الفخر ان يبقى الحب في القلب يا وسام.

بهذه الأثناء دخل زوجها محمدوف، استقبلته زويا عند الباب واخبرته بالموضوع، ثم اضافت بصوت عالي لتُسمع وساما:

- حل علينا اليوم ضيف نزل من بغداد الهادئة اسمه وسام.

صاح زوجها بتعجب، وهو يعرف وساما منذ عقد القران بزويا في ١٩٧٨، واصبح فيما بعد، وسام وسفيتلانا من اقرب الاصدقاء والعوائل المقربة لهم:

- من وسام... سبحان الله والحمد الله... ايعقل هذا حقا من الذي شرفنا (وسامجك)، الرب قد حفظك وحماك وكتب لك العمر... أنها حقا لمعجزة... لانك إنسان طيبٌ وخيرٌ وانسان مناضل حقا.

تعانقا واحتضنا بعضهم البعض كاستقبال الاخوة، وقال محمدوف:

- حل وسام ليس كضيف فقط بل حل كاخ لنا في بيته، أنها السعادة.

وصاح:

- احضري الشراب كله يا زويا ودعينا نفرح ونبتهج بعودة المقاتل المناضل الجميل والتي ننتظرها جميعا.

وفيما يبدو كان لزوجها محمدوف علم مسبقا لحظة مجيئ وسام عند الغروب، حيث اعدت الطاولة من الطعام والشراب بما لذ وطاب بلمح البصر. ولفتت انتباه وسام كلمة محمدوف الاخيرة؛ والتي ننتظرها جميعا!.

وجرى بينهم حديث مطول، حديث الرجال، ارتباط وسام بسفيتلانا والحب المتبادل الذي جمعهما، والظروف التي احاطت بهما منذ ان غادر وسام طاشقند مجبرا في ١٩٧٨ وانهاء دراسته وسفره إلى عدن ومن ثم إلى كردستان واحداث بشتآشان في

١٩٨٣ وتضارب الأخبار حولها، وانتظار سفيتلانا له طيلة هذه السنين، وحتى قيل لها من بعض النمامة بان وساما قد تركها وسوف يتزوج بأمراة تتمناه من بلده، وتحملت ما تحملت، مرضت شديد المرض بنبأ وخبر استشهادك المؤكد أنت ورفيقك سمير.

كان محمدوف ملما بالسياسة حيث عمل في سوريا ويتكلم اللغة العربية بشكل مقبول.

وهو يخاطب وسام ويقول له:

- لازلت في ريعان شبابك وقوتك ووسامتك يا وسام، وكم امرأة تتمناك، واعلم بان الحياة لا تتوقف ابدا، وهي قسمة ونصيب، وان تنظر بنظرة موضوعية واقعية ومنطقية.

يسائل نفسه وسام:

- ماذا يقصد محمدوف من كل هذه المقدمات التي تحمل بعضا من التناقض، أيكون هو الأخر متفقا مع مسؤولة الصليب الأحمر في تركمانيا، لكنها كانت اكثر وضوحا واكثر جرأة ومنطقا حينما اوضحت لي بان اكون على حذر وان أكون حضاريا، لان السنين فارقتنا.

يقول وسام مخاطبا نفسه:

- اتفق مع الرأي بالحق والعدل، وعلي ان أفهم هذه الحقيقة كلها.

تمالك وسام نفسه ومسك على المه بيده واوضح لمحمدوف وزويا تستمع وتراقب ردود فعل وسام:

- انني احببتها واحبها وسابقى احبها، لكن الحظ والظروف لم تحالفني والالتزام والايام لم تساعدني، نعم غبتُ عنها لهدف وطني كغيري من المناضلين العراقيين من الرجال والنساء والشبيبة، وقدموا من كل البلدان، وتركوا كل غال ونفيس وعافوا كل ملذات الدنيا وحياة المدن والراحة، تركوا الأهل والاحبة، ودعوا زوجاتهم واطفالهم والتحقوا بالجبل تيمنا بالثوار والمناضلين من اجل ان تكون الاوطان حرة وشعوبها تنعم في الحياة الحرة الكريمة من اجل ان تسود مثل ونظم العدالة الاجتماعية، وكغيري لم اذهب للتجارة أو للسمسرة لجمع مالٍ ولعب قمارٍ بالملاهي الليلية، بل عشنا عيشة الانصار عيشة المناضلين والبسطاء بنكران الذات ونذرنا انفسنا من اجل ان تعلو المبادئ السامية لأجل كرامة الإنسان، ولكن ما زرعناه لم يحن حصاده، فتكالبت علينا كل قوى الظلام والاستعباد والاستبداد من عالم الافاعي والثعالب والعقارب والذئاب، ولا زال هنالك بصيص من الامل في الحياة وان خفتت الجذوة سوف يخرجنا العزم والارادة والتحزم بالمبادئ السامية من كل نفق مظلم مهما طال الزمن.

- اتعلم برفيقي سمير، لقد ودع زوجته وطفله الجميل حالما وتركهم في عدن واستشهد في بشتآشان وهو يحلم، اتعلم بان هنالك رفاقا قد تجاوزهم قطار العمر ولحد الان بدون زوجة واطفال وبدون عمل يسد رمقه أو مأوى يركن اليه، ورفيقات بعمر الورد تركن دراستهن ومستقبلهن وريع الشباب واستشهدن على سفوح وجبال بشآشان، وخرجنا بخفي حنين لعهر الزمان.

- حتى أخبار اهلي مقطوعة منذ ان تركت الاتحاد السوفياتي ولحد الان، لا يعلمون بتواجدي، حيا أم ميتا، أقول رغم قسوة الزمن لم ننكسر ولم انكسر ولن انكسر، وقد تكون هفوة من الزمن عفى عني ببرهة ففلتت نفسي منه، اتعلم.. بان الافراج عن المعدوم يأتي باخر لحظات الاعدام.

سابقى احبها وهي سعادتي.

امسى ليلته عندهم بعد ان ثملا سوية في شرابهم ولم يحسنا الاستمرار بالنقاش حيث لم تعد ألسنتهم تطاوعهم في النطق، بعد ان فرشت له زويا اجمل الفراش في غرفة الاستقبال.

منذ الصباح خرج وسام من شقة زويا مؤنبا نفسه على هذه الثمالة متوجها إلى مجلس المدينة والتقى بستان رشيدوفنا المسؤولة الأولى في المجلس، لقد كبرت بعض الشيئ، وهي الأخرى قد تفاجأت وتعجبت من نجاته وعدم صحة الأخبار ووصوله وزيارته لهم، استغرق الحديث وقتا طويلا تناولوا فيه مجمل الاحداث منذ الاعتداء عليهم من قبل البعثيين في طاشقند وسفره والتحاقهم بقوات الانصار والمعارك التي خاضوها؛ الهجوم التركي، الجحوش، معارك بشتآشان، معارك الاخوة الاعداء، واخبار استشهادهما هو وسمير وعموم الوضع وانتهاء الحرب العراقية الايرانية واستخدام الاسلحة الكيمياوية من قبل النظام وانحسار نشاط قوات الانصار. وبنهاية اللقاء شكرته على هذه الزيارة الحلم والمفرحة لهم في هذا الصباح وعرضت عليه المساعدة بما يرغبه وما يدور بخلده ومخططه، سواء في الاقامة أو البقاء في طاشقند أو حتى في الزواج من احدى الشابات التي

تروق له من معارفها...، لطمته كلمة؛ أو حتى في الزواج، على رأسه، توقف برهة عن الاستمرار في الحديث معهم يسائل نفسه:

- الا تعلم هي بمدى علاقته بسفيتلانا منذ أيام نشاطهم بالوسط الطلابي!.

وسرح عنهم مرة أخرى:

- ايعقل كلهم متفقون يحسنون الاخراج.

شكرها على كل شيء على الحرص ومحبتها وعلى حزنها باستشهاد سمير وسرورها بزيارته لها، واخبرها:

- انني سوف احاول الرجوع إلى طاشقند إذا خُيرت وحسب توجيهات الحزب.

توادعا واوصته بان يكون على اتصال معها وسوف تقوم بابداء أية مساعدة يطلبها.

خرج من مجلس المدينة في ذلك الشارع المشجر الطويل الذي تمشى به كثيرا شارد الذهن واحس بنفسه غريبا عن هذه الدنيا، خروجهم من كردستان عبر كل هذه الحدود، بعيدا عن اهله واخبارهم، وهذه المدينة ذكرياته وشبابه ونشاطه وبهجته وجنونه وتكامل وعيه، لا صديقه سمير ولا حبيبة عمره، واخذ يردد كلمات اغنية غريب الروح والدمع ينهمر من عينيه:

غريب الروح غريب الروح
لا طيفك يمر بيها
ولا ديره تلفيها
غدت وي ميل هجرانك
ترد وتروح

وعذبها الجفأ وتاهت

حمامة دوح

اه..

غريب الروح غريب الروح

توقف ومسح عينيه من الدموع بكفه، وقرر الرجوع إلى بيت زويا للسلام عليهم والتوجه فيما بعد إلى المطار وانتظار موعد الطائرة لتقله إلى عشق آباد. طرق الباب وكانت زويا وزوجها في البيت، جلسا وتحدثا بعض الشيئ؛ وبان الحياة سوف تكون الاحسن. ونظر وسام إلى زويا فوجدها كئيبة حزينة قلقة مترددة تريد ان تقول له شيئا ما في طرف لسانها وتنظر لزوجها، لقد كسر وسام لحظات الصمت وبادرهم بالكلام:

- احبها ولم يدخل قلبي سواها، وقد عدت لكي اعوض لها ما فاتها وفاتنا من ماضي الأيام.

- سوف اعود إلى عشق آباد كما تعهدت بالرجوع أمام المسؤولين هناك، ولا اعرف مصيري ولا اعرف إلى أين وجهتي القادمة!، ولكن كل الذي اتمناه وارغبه فيما إذا لم يتعارض مع توجهات وتوجيهات الحزب، هو معرفة أخبار الأهل، والعودة إلى الاتحاد السوفياتي واكمال بحوثي العلمية المعلقة وانهاء دراستي المؤجلة في نفس الجامعة السابقة بموسكو، سفيتلانا تعرف المكان جيدا.

واكد باصرار:

- سوف اعود.

جلسوا (جلسة الطريق) وهي عادة من عادات الروس - السوفيات عندما يحين موعد السفر يجلسون للحظات ثم يودعون المسافر، احتضن بعضهم البعض وتوادعوا عند مدخل البناية، وسكبت زويا وراءه الماء، تذكر امه حينما سكبت الماء وراءه عند وداعه، وضعت له زويا في حقيبة أخرى بعضا من الطعام الاوزبكي اعدته في المساء وثلاثة كتب قد تركها منذ أيام التحضيري محتفظة بها ودست في داخلها ظرف من النقود علم بها عند وصوله عشق آباد.

رجع خائبا مكسور الخاطر والوجدان خائر القوى، وفي المطار وبمحض الصدفة التقى بزميل الدراسة ابراهيموف الاوزبكي وكان قادما من طاشقند بنفس الطائرة أيضا متوجها إلى عمله، احتضن بعضهم البعض وتعانقا وانزويا ليتبادلان اطراف الحديث ودعاه إلى البيت ضيفا عزيزا ليمضيا بعض الوقت يتذكروا زملاء دفعتهم الدراسية وعن وسام واحواله واخباره وعائلته وعدد ابنائه، وظنا منه بان وساما جاء بزيارة عمل إلى عشق اباد من بلده النفطي وقد تبوأ بمركز مهم في وزارات دولته كباقي الخرجين العرب حينما يتخرجون بدراستهم.

اما ابراهيموف فقد تعين في بداية تخرجه في معمل لصناعة الزجاج والشبابيك وبعد مضي فترة اصبح مديرا لهذا المعمل، وهو يسكن في بيت بناه باطراف المدينة متزوجا من صديقة دفعته الدراسية ولهم ثلاثة أبناء. الا ان وسام اعتذر منه لزيارته العاجلة لرفيقه الراقد في المستشفى، توادعا، وزوده ابراهيموف بارقام

هواتفه وعرض عليه تقديم كافة اشكال المساعدة لما يتمتع بعلاقات واسعة في الجمهورية ووفق منصبه.

توجه وسام مباشرة إلى مقر الصليب الأحمر لاثبات حضوره وليطمئن مسؤولة الصليب بعودته، ثم عرج على رفيقه القيادي الراقد في المستشفى القريبة لمقر الصليب، قبله وسلم عليه وسأله عن علاجه ونظره، اجابه الرفيق:

- هنالك بعض التحسن وحرقة العين أصبحت قليلة.

اجابه وسام:

- انه خبر جيد، وجئتك بأكلة اوزبكية من طاشقند فيها الجزر يفيد البصر والنظر.

قام وسام بتسخينها واعد الطاولة مما جلبه في حقيبته من الخضراوات والتي اعدتها زويا، واثناء تناولهم (البلوف) الاوزبيكي سأله الرفيق القيادي عن زيارته لطاشقند:

- ما هي الأمور عندك، حمامة أم غراب؟.

اجابه وسام:

- لا حمامة ولا غراب، بل عقعق.

- لم استطع مقابلتها، والامور مبهمة عائمة.

- وصلت لشقتها فوجدت بابها مقفلة، ومن الظاهر لفترة طويلة، وبعد الانتظار طويلا وانقطاع الامل توجهت لصديقتها المقربة لنا، وبعد النقاش معها ومع زوجها تبين لي وفيما اظن انهم قد اخفوا شيئا ما لا يريدون البوح به بشكل واضح ومباشر، حائرين لسبب ما حسبما ابداه زوجها من مقدماته وارشاداته في الحديث، أو خوفا منهما من ان تتعرض سفيتلانا للصدمة بعد

مرضها الشديد في صدمتها الأولى، أو انهما ارادا ان يكسبا بعض الوقت لاخبارها وعرض الموضوع بشكل تدريجي وغير مباشر ومفاتحتها اولا، فهو امرانساني شخصي يتعلق بها، تحله وتقرره بنفسها، وكي لا يضعا نفسهما في حرج شديد لا يستطيعا البت في امر عائلي ومصيري، أو لامر اخر!.

اجابه الرفيق مهدئا:

- اشاطرك الرأي في ذلك وان موقف الزوجين لحرج جدا ولا سيما بانها قد تعرضت لحالة مرضية.

بعد يومين سافر الرفيق القيادي أبو ماهر إلى موسكو واتضح فيما بعد بانه قد توجه إلى لندن للعلاج عند عائلته. اما وسام ومجموعته ومن خلال الصليب الأحمر فقد سُفروا إلى موسكو متوجهين إلى سوريا، وعند وصولهم إلى موسكو ابلغوهم جميعا من قبل مسؤول المنظمة الحزبية بعدم الخروج لحين تسفيرهم في الصباح إلى سوريا.

اجتمعت مجموعة الشباب متوجهة بالسؤال لوسام:

- ايعقل ان نصل إلى موسكو الحب والحلم ولا نزور الساحة الحمراء وضريح الحجي لينين ونتبارك به، وانت تعرف موسكو ويكتب لك ثوابا واجراً.

- أو يعني باننا مثل؛ جبر من بطن امه للقبر!.

واوضح وسام لهم:

- لقد طلبوا منا ان لا نخرج وغدا الصباح نقلع إلى سوريا وبعكسه يعتبر خرقا حزبياً.

وبعد رجائهم استجاب وسام لطلبهم وقال لهم:

- ليكن ما يكن فهلموا بنا نذهب على عجل.

وصلوا الساحة الحمراء وتوقفوا عند الضريح ولم يحسنوا الدخول لكثرة الزائرين فاذا باحد المقيمين العراقيين وهو من الصحفيين البارعين يحتضن وساما ويقبله ودعاه إلى الفندق المجاور، واخبره وسام على جنب:

- بانه مع هؤلاء البيشمركة جاؤوا ليشاهدوا الساحة الحمراء ويزوروا ضريح لينين وغدا الصباح نغادر موسكو، وطلبوا منا بان لا نبرح المكان والا قد تترتب بعض الاشكاليات من قبيل عدم الالتزام بالتوجيهات.

فاجابه الصديق الصحفي بعصبية:

- ماهذا الهراء، انتم الان خرجتم من الموت، وقدمتم كوكبة من الشهداء وبعضهم من الاصدقاء، انتم الابطال والمناضلين الاشداء، وأنا لم اصدق نفسي بانك على قيد الحياة وفق ما وصلنا من أخبار معارك بشتآشان، الا يحق لكم ان تستريحوا بعضا من الوقت بعد ان امضيتم كل هذه السنين في الجبال، ونحن منكم، نحن خرجنا كلنا من عباءة الحزب. بالله عليكم من اصدر هذه التعليمات؟. فليكن ما يكن وأنا اتحمل المسؤولية.

فرجاهم جميعا وبتوسل ودعاهم إلى فندق موسكو المقابل للساحة الحمراء احتفاءا بهم وعلى سلامة وصولهم وان يستريحوا بعض الوقت وسوف يوصلهم إلى مكانهم. وبعد التردد والتشاور استجابوا لرجائه فكان فرحا فخورا بلقائه بهؤلاء البيشمركة الابطال، وهو المهتم كصحفي باخبارهم واخبار الوضع في كردستان. امضوا بعضا من الوقت تبادلوا الحديث

والاخبار وتناولوا على عجل ما لذ وطاب من الطعام والشراب، ودعهم إلى فندقهم، وعند الصباح مبكرا غادروا موسكو متوجهين إلى سوريا. وبالرغم من امكانية وسام في البقاء في موسكو لكونه مؤجل لدراسته، أو وفق ما عرض عليه مؤخرا من قبل مجلس المدينة بالبقاء في طاشقند، الا انه التزم بتوجيهات المنظمة في موسكو بالتوجه إلى سوريا، حيث اخبره مسؤول المنظمة والذي وجه له الانتقاد على خروجه مع رفاقه إلى الساحة الحمراء وزيارة ضريح لينين، وقال له:

- حسب التوجيهات بان يكون السفر الان إلى سوريا ومن هناك يقرر الحزب وجهتكم.

واجابه وسام:

- نعم، أنا رفيق مطيعٌ، ملتزم بتوجيهات الحزب منذ ان دخلته، ولم اجادل الرفيق المسؤول مطلقا، انفذ ثم اناقش، لكنني فقط اتساءل علام هذه التكلفة المادية في الذهاب والاياب وضياع الوقت والتي لا مبرر لها وفق المنطق، وكما اوضحت لكم بتوفر بعض الامكانيات وبمقدوري البقاء ومواصلة دراستي وبجهودي الخاصة كما عرضتها لكم، ولي إنسانة انقطعتُ وانقطعتْ اخباري عنها خلال تواجدي في كردستان ولا زلنا ننتظر بعضنا البعض طيلة هذه السنين، الا يحق لنا لم الشمل.

ولكن اؤكد لك سوف اعود.

اقلعت الطائرة بهم إلى دمشق واُدرجتْ جميع اسماء المجموعة برسالة واحدة للصليب الأحمر، واخذوهم مباشرة من المطار إلى سجن المزة الرهيب لاستجوابهم من قبل الامن العامة

وفروعها المختصة. مكث في سوريا بعض الاشهر عند بعض معارفه من الاصدقاء العراقيين والسوريين واضطر إلى العمل في دار طباعة للكتب والنشر، جمع مبلغا مكنه من شراء هدية لحبيبته سفيتلانا وملابس له وبطاقة سفر إلى الاتحاد السوفياتي وألة عود، وفَضَّلَ بسفره هذا وعودته؛ اولا ليكون بالقرب من حبيبته متأملا بالحصول على موافقة الزواج ومن ثم لم الشمل... وايفاءا منه بالعهد إليها، وثانيا بالعودة إلى دراسته على مسألة طلب اللجوء والعيش في الدول الاسكندنافية.

في موسكو استقبله صديقه فلاح في شقته ومع عائلته واطفاله لحين ترتيب موافقة الاستمرار في الدراسة والانتقال والعيش في القسم الداخلي للطلبة. وبايام استحصلت الموافقة فشرع في دراسته وجمع المواد في كتابة الاطروحة. وجد وسام الحياة في موسكو قد تغيرت بتسارع بشع فظيع وخصوصا الاقتصادية منها في فترة غورباتشوف وبظل سياسة الانفتاح والشفافية والبريسترويكا وسياسة اقتصاد السوق والتعاونيات وخصخصة القطاع العام التي جاء وصدع الرؤوس بها، وساءت الأوضاع وتعقدت اكثر في زمن يلتسن، حيث غُلبت التغيرات السياسية على التغيرات الاقتصادية، فقط؛ وظهور الأحزاب والتجمعات من هب ودب، حزت بنفسه حين راى وشاهد العجائز في الشوارع بالثلج والصقيع يبعن قنينة الفودكا اوما ملكت ايديهن وادخرن من منتوجاتهن الريفية والبضائع الاستهلاكية المهربة.. ويتساءل بنفسه:

- اهـذه هـي مكانـة المـرأة السـوفياتية التـي عملـت وسـهرت وانتجـت وأصـبحت بطلـة العمـل الاشـتراكي فـي جمـع الخـبز والفحم والقطن وفي البناء ورائدة للفضاء!.

.. ورويـدا رويـدا إلـى ان قـاد الوضـع إلـى تفكـك جمهوريـات الاتحاد السوفياتي وطويت تلك المرحلة الجميلة من المنجزات والنجاحـات والطموحـات والتصـورات والاحـلام فـي بنـاء الاشتراكية، نظام يتساوى فيه الجميع (من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله)، وهذا الأمر الذي اثر على وسام ومزاجه، حيث للتو خـرج مـن كردسـتان مكسـور الخـاطر والوجـدان بأستشـهاد اجمل الرفاق، واضاع هذه السنين من عمره وكغيره من الرفاق ولم تثمر شيئا واصيب بخيبة الامل الكبرى وليصاب بخيبة أخرى عصرت قلبه وسكب الدمع عند مشاهـدته بانزال العلم الأحمر الـذي حمـل المطرقـة والمنجـل عـن مبنـى الكـرملين فـي السـاحة الحمـراء بعـد ان قـدم غـورباتشوف اسـتقالته والغـاء مكتـب رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية في ١٩٩١ ورفع محله علم روسيا، وفيمـا بعـد الشـلل الكبيـر وخيبـة الامـل الـذي اصـاب الأحـزاب الشيوعية والعربية على وجه التحديد والذي انعكس على مجمل نضال حركات التحرر في العالم.

ويقول وسام:

- في زمـن الاتحـاد السـوفياتي؛ عنـدما تلجـأ للشـرطي وتسـأله عـن أمـر مـا، يـؤدي التحيـة ويقـدم لـك المسـاعدة، الا ان الأمـر قـد تغير بعد تفككه، فاصبحت الشرطة تصطاد وتوقف من تشاء من غيـر الـروس وفـي محطـات المتـرو وتحقـق فـي اوراقـه بخصـوص

الاقامة تصل لمستوى الابتزاز والرشوة، الأمر الذي اصبح مقززا وبحسرة لاناس احبوا هذا البلد الجميل ونهلوا منه العلم والفكر والثقافة الإنسانية السوفياتية والثقة ببناء العالم المشرق السعيد، وأصبحت الغالبية تترحم على أيام الاتحاد السوفياتي البهيجة والمفرحة بالتطور والازدهار والاستقرار والتقدم في بناء النظام الاشتراكي.

لقد بان على وسام ومُحياهُ تقدم العمر (الكبر) إذ غزا الشيب مفرقه بعد ان جال بالوديان والجبال وتنقل ما بين الحدود والبرد والحيرة والجوع والترحال متعلقا به الامل بانتصار قضية الشعب والحزب والوطن، بعيدا عن اهله واخبارهم ووضعهم، والان لم يفلح بلم الشمل بحبيبته التي انتظرته طوال السنين أو يخلفوا مولودا يلعب معه، ولم يكن له مكانا يأويه وسقفا يحميه وركنا يلجأ اليه عند كبره، حيث لم يكن بباله ولم يخطر بمخيلته ذلك لكون تفكيره لازال يحيى وكانه يعيش في زمن المشاعية ويحلم ويتصور بان كل البيوت بيته وغدا سوف يذهب النظام إلى مزبلة التأريخ وتبنى الاشتراكية وينال كل حسب حاجته ورغبته، وسوف يزين الوطن صدورهم بنياشين واوسمة الابطال لتضحياتهم ونضالهم وصمودهم في الداخل وفي حركة الأنصار في كردستان، وامسى حاله طبعا كحال البعض من الرفاق والرفيقات والذين تجاوزت اعمار البعض منهم العقد الرابع أو الخامس وامسوا بدون عائلة واطفال ووطن ناضلوا وضحوا من اجله، ومن المناضلين الطيبين الملتزمين ناكري الذات والناذرين انفسهم من

اجل ان تسود المثل العليا ومبادئ العدالة الاجتماعية، والذين يقال عنهم:

بانهم تزوجوا الحزب بالحب وطلقهم الوطن بالغصب.

يتذكر الرفيق "ابو كريم" والرفيق "ابو الحشيش" في قاطع بهدينان بسقوطه في الوادي بين المتفجرات وضياعه لايام يأكل الحشيش.

كان يوما ممطرا خفيفا متقطعا يغسل بزخاته الطريق الرابط ما بين الغابة والجامعة والى الشارع الرئيسي، يتطلع وسام إلى السماء الزرقاء جالسا عند نافذة غرفته، يتأمل يراقب تراقص السحب البيضاء وتغير اشكالها وتكويناتها كما لو كان في ذلك العهد حينما كانوا اطفالا وصبيانا يراقبون حركة الغيوم والسحب ويرسمون لها صورا سريالية وتصورات في مخيلاتهم. كان وسام يحب أجواء المطرالخفيف المتقطع سواء كان في شارعه الطويل بمحلته بالعراق اوعندما يخرج مع سفيتلانا ليتمشيا سوية في المنطقة المحيطة لبيتها في طاشقند ويبللا جسميهما برذاذه ويعودا منتعشين للبيت، وهوكعادته يردد:

- مطر... مطر

اتعلمين أي حزن يبعث المطر

... وكيف يشعر الوحيد بالضياع؟.

.. في هذه الأثناء، وفيما هو مستغرق بالتفكير والتأمل تدانى إلى سمعه طرق باب غرفته بخفة تكاد ان تكون انامل أمرأة، تسمر في مكانه منصتا، خشية ان تكون وهما، ازدادت دقات قلبه لتوالي طرق الانامل، عدل هيئته وفتح الباب وكانت هي المفاجأة،

تلاقت العيون واحتضنت الصدور وضمت بعضها البعض، تزاحمت القبلات والتفت الاعناق بالاعناق بدون كلام، تشبع عطر جسمها الانثوي الطيب بكل رئتيه، وبشمه تخدر، ولفَّهم الهدوء والصمت كانهم غطوا في سبات عميق، كعادتهم ينامون ويحلمون ويستيقضون ويتيهون في أجواء الحب، لقد نفخ الله في سفيتلانا سحر الانوثة وسر الحب وطيبة النفس والمعشر فاحسن في الخلق والفتنة والقوام واللياقة والتكوين.

استمرا بهذا المنوال لثلاثة أيام بهدوء بين هدوء وصمت ورضا تديره لغة العيون والدموع وحديث الروح لطيلة السنين التي انقضت على فراقهما، وهي تطرح برأسها على صدره تارة وتعانقه تارة أخرى وتقول:

- كم احبك يا وسام فانت لي الحب والروح والحياة.

احببتك لانك منحتني الحب والحياة وعشتهما لاجلك سعيدة، وللان لم تثلمها المسافات ولم يصدأها الانتظار رغم ما طرأت من الاحداث في طاشقند، وبغيابك فيما بعد وسفرك إلى اليمن انتظرتك وصبرت طويلا وبالمعاناة في الليل والنهار وضاعت الأخبار. مات الغصن الذي اهديته لي ولم ارمه فاحتفظت به، وسلبت عقلي انباء واخبار بشتآشان والتي لم اصدقها في حينها، فهرعت بالسفر عدة مرات إلى موسكو والتقيت بجماعتكم ومعارفكم وزوجات رفاقكم الشهداء، واحداهن زوجة الطبيب سديد، افترقت عنه وتزوجت وهاجرت إلى السويد مع ابنها، اخبروني باستشهادك واستشهاد سمير

(وانتما الاثنين من طاشقند) واخرين من موسكو وكيف وارمينيا واذربيجان في هذه الاحداث.

تبرعم الغصن واخضوضرت وريقاته بعد هذه الفترة ودبت به الحياة فاذا بامي تقول لي:

- فهذا يبشر ببشائر خير ويخبرك بان وسام لا زال على قيد الحياة وسوف يعود إليك.

واخرون من اقربائي قالوا:

- صحيح كما اخبرتك امك، بانه حيٌ يرزق، ولعدم رجوعه رغم توارد الأخبار طيلة هذه الفترة، فانه على ما يبدو قد تزوج من قوميته وجنسيته.

واردف لها قائلا:

- بالحق لقد شهدت الموت اكثر من مرة ونجوت بقوة الحب الذي جمعنا.

وبكت.

وبتوارد الانباء من زوجات رفاقكم المتفرقة والمتضاربة ازدادت حيرتي وقلقي والصراع الذي عشته من هنا وهناك واضطرني الأمر بالسفر والتوجه إلى موسكو وجمع المعلومات والتحقق من كل اصدقائك ومعارفك الذين عرفتهم فردا فردا، عشت العذاب والالم الذي قتلني ما بين الشك واليقين ورغم كل المحاولات والتحري عن الأخبار فكلها تشير إلى نفس النبأ الذي القى بي طريحة الفراش عليلة خلال هذه السنين لا اقوى على المشي، وبعد وفاة والدتي، ساءت الحال والاحوال، تركت عملي، ولم يبق لي من معين يقف معي الا اخي الأكبر وصديقه

مراد والذي سبق وان تعرفت به، وبعد مرضي وبفقدان الامل بعودتك تاهت بي السبل وفقدت الرشد، اقنعني اخي بالزواج من مراد وعشنا سوية في بيته وانجبت وليدنا الوحيد نور الذي يشبهك إلى حد ما.

شد من جسمه كان شرارة لسعته وقفزت لذهنه أسئلة بتعجب واخذ يسائل نفسه وبصمت ينظر إليها:

- زواج بمراد.. ووليد اسمه نور يشبهني!.

وتذكر كلام مسؤولة الصليب الأحمر بالتروي وان يكون حضاريا، اجابها بكل هدوء وطيبة وحب واحترام:

- لقد بذلتُ كل ما في وسعي لكي نكون سوية قبل وبعد توجهي لليمن، وحسبتها بانها مدة قصيرة وارجع إليك، ولكن حالت كل الظروف المعقدة التي مررت بها غيرت مجرى الحياة، قاومت وصارعت كل شيء، وكان كل همي ان ارجع إليك لاعوض عما فاتك من ماضي الأيام، انه هو المصير المقسوم، شرحت ذلك لزويا ولزوجها محمدوف تلك العوائق والظروف التي حالت إلى هذا البعد والانقطاع حينها عندما سنحت لي الفرصة بالسفر إلى طاشقند وكنت متأملا بان اراك.

اوضحت له:

- بان زويا لم تتمكن من ابلاغي بوصولك الا بعد ثلاثة أيام من رجوعك من طاشقند لكوني كنت راقدة في المستشفى حينها ولاكثر من شهر، وظنا وخوفا منها باخباري كي لا تصيبني الصدمة، وبعد التشافي اخبرتني بشكل غير مباشر وبشكل متقطع هي وزوجها، فهمت بانك لا زلت على قيد الحياة وعلمت

بعودتك وعادت لي الحياة، فرحت كفرح الطيرعند أول محاولة يطير واصبح شغلي الشاغل مهمة التواصل معك وايجادك اينما كنت وهي سعادتي الحقيقية، واخبرتني زويا مؤكدة؛ بانك سوف تعود لاكمال دراستك، أنت حبي وقدري.

واردف وسام لها قائلا:

- بل لكي اعود إليك عن طريق اكمال دراستي وحصولي على الاقامة، أعود لكي أعوض لك على ما فاتنا من ماضي الأيام، ونمشي ونسافر إلى كل مكان زرناه سوية.

- لم تخبرني زويا شيئا اخرعنك واكتفت وزوجها بالقول؛ بانك موجودة ولم تهاجري إلى إسرائيل.

واوضحت سفيتلانا بالقول:

- لم تسع الأرض لفرحتي بوجودك سالما، احييتني من جديد، احببتك واحبك ولازلت في قلبي، وكل شيء فداك ونفسي، أريد ان أعيش كل العمر معاك وسوف اتكلم مع مراد واوضح له الموضوع وهو يعرف علاقة الحب فيما بيننا، ولا يهمني ما يترتب على ذلك.

صمت طويلا وقال لها:

- أنا احببتك واحبك، واعلم بانني قد عذبتك وجنيت عليك، صبرك وانتظارك الطويل ومرضك بسببي ولا يمكن لاحد ان يتصوره، وأنا ألوم نفسي في كل هذا، ولا استحق هذه التضحية، ووفقا للحق والمنطق الحضاري فانا لا أريد ان اهدم حياتك وسعادتك واهدم حياة وسعادة زوجك وصديقي مراد الذي وقف معك في شدتك ومرضك (وله الشكر الجزيل)، لا أريد ان اهدم

مستقبل وسعادة ابنكم نور، ومثلما قدمتِ هذه التضحية اردها إليك، لاجلك ولأجل عائلتك لزوجك ولنور الجميل، ابقى احبك مازلت حيا، أنا تعلمت منك الحياة والحب وطيب التعامل الانساني، هذا هو موقفي، هو قرار لأجل نور والذي سعادته سعادتك وسعادتك هي السعادة لي كلها يا من أحببت في حياتي...وهكذا هي الحياة ياسفيتا، هذا عليَّ هو المقسوم والموعود، ولا اعلم ماذا تضمر لي الدنيا.

- فكم أنت قوية، وكم أنت إنسانة جميلة رائعة محبوبة.

تعانقا طويلا... قبلها قبلات الوداع والبسها اسواره من الذهب جلبها معه من سوق الحميدية في دمشق.

واغرورقت عيونهما بالدموع واختلطت.

اكمل اعداد وانجاز اطروحته ضمن المدة المحددة بدون تاخير ودافع عنها بتفوق ورشحته اللجنة المشرفة بمواصلة بحثه العلمي لاحقا لدرجة علمية أخرى، افتخر لذلك وحاول جمع المواد، الا انه وبعد انحلال الاتحاد السوفياتي ساءت الأمور وتعقدت حتى في مجال البحث العلمي، وأصبحت عملية البحث والمتابعة للتجارب وتشغيل المختبر لا تتيسر الا بالرشى وامست مكلفة ماديا. ونتيجة لسوء وضعه المادي وتعقد الأوضاع المعيشية في موسكو من ناحية السكن والإقامة والتنقل، تألم كثيرا لهذا الوضع الذي لم يعهده يوما من قبل وبات لا يعرف إلى أين المسير، ويناشد نفسه وبألم يسائلها:

- لا الوطن أواكم ويأويك.

- ولا كردستان وردةً تهديك.

- ولا نياشين بطولة لنضالكم تزين الصدور اكراما وافتخارا تجازيك.

- وامٌ أمست عيونها تدمع ترنو لعودتك تناديك وبصلاتها بالخير تدعيك.

- وحبيبة العمر عذبتها وأضعتها ولازال صوتها يئن يطرق سمعك يناجيك.

وكم من كواكب الشهادة أصدقاء وزملاء ورفاق ومعارف قد رحلوا في بشتأشان أو في الأنفال ومنهم صديق العمر الشهيد سمير. وحصدت الحرب التي لامعنى لها لثماني سنين مزيدا من الدمار الاقتصادي وخسارة بالأرواح من الشباب من أبناء الفقراء من كلا البلدين، وحلت محل الأحلام والآمال في المساواة والعدل الاجتماعي للإنسان لهاث نحو تأمين لقمة العيش، وولت شعارات القومية بصائغيها وأصنامها وأصبحت الاممية كسراب بعيد، كنا نصبو إليها كعنوان للتعاون والتضامن مع الشعوب في النضال والتحرر وبناء الأوطان، ولاذ الكثير من رفاقه الدارسين وتركوا موسكو في لهاث البحث عن منفذٍ وسبيل بالتوسل بمُهربٍ نحو اللجوء والهجرة والرحيل للبحث عن خبز ومأوى له ولعائلته ولأطفاله، الا من توفرت له ظروف البقاء من السكن والمعيشة والإقامة.

كان يراوده حلم رغم انقطاع الأخبار والاتصال ان يلتقي خاله سيد جابر ويلتقي به على شط المسيب ويضم امه إلى صدره وجميع إخوانه وأخواته وعائلته ويتقصى أخبار جنان واختها الأكبر الإنسانة الرائعة وان يلتقي قندة واخيها النقابي واصدقائه

ورفاقه في الجامعة والمعسكر والمدرسة في مدينته الأولى والثانية والذين لا يحصى عددهم...؛ علوكي، عامر، صلاح، عبد الزهرة، حكمت الحمداني، سكران مهرج، موسى السيد وغيرهم في مقهى محطة القطار ومعلميه الأوائل؛ عبد الله ناصر وغيرهم وان يقص عليهم قصصه وتجربته وطريقه ومحطات النضال ويقول لهم بصدق بانه حمل وادى الأمانة على احسن وجه.

ويقول وسام بتنهيدة عميقة:

- كم تمنيت ان يطيل بكم العمر واراكم.

اه تبا لك ايها العنيد المتفائل.. فمتى واين سوف ترسو مرساتك.

لا احد يعلم مالذي اصاب الدنيا بتسارعها نحو هوة لا تقدر فضاءاتها كأنها يوم الحشر، وبقى وسام تائه ما بين فضاءات الحنين والحب واليأس والامل في طريقه الصعب الطويل ومحطاته في وطنه وغربته أو في تلك الديار التي قصدها يوما، فاتخذ القرار واختار الأصعب.

جمع بعضا من كتبه العلمية والادبية وصورة لحبيبته وقرر السفر مودعاً موسكو الحب والحلم والعلم والثقافة والذكريات مضطرا إلى احدى دول الخليج (وبلاد العرب اوطان!) متأملا عساه ان يحصل على فرصة عمل باختصاصه وبما امتلك من خبرة علمية وعملية ويبدأ حياته من جديد، كان من الأجدر به وحسب أحلامه التي اخفقت واسدلت عليها ستائر النسيان بان تستثمر وتسخر هذه الخبرة لخدمة وطنه الذي احبه ولم يعلُ

حباً على نجواه، لكن الوطن حاد وقسا بان يَلم ابناءه المخلصين الأنقياء ويرعاهم.

٨١٢ / ٩٢
ح ٥٩٩ آل زوين ، حسام
لقد قصدها يوما / حسام آل زوين
:- بغداد : منشورات أحمد المالكي، ٢٠٢٤ .
(٣٣٧) ص ، (١٤.٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

م ٠ و
.... / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (....) لسنة ٢٠٢٤م

منشورات أحمد المالكي
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٣٩٢٩٣٧٨ - ٠٧٨١٩٣١٣٣٩٥

بريد إلكتروني: ahmedalmaliki0090@gmail.com
أحمد المالكي: Facebook

لقد قصدها يوماً

مكابدات واوجاع عراقية

ما أن تنتهي من قراءة سطور الفصل الأخير من " لقد قصدها يوماً " فانك ستقع أسير أسئلة كثيرة توزعت على صفحات فصولها الثرية بمضامين وتجارب في محطات وديار متعددة .. وأسئلة نضجت من خلال تتبع السرد مثلت سيرة جيل مليئة بالاحلام والأمنيات المتفتحة في وطن لم يهنأ بالسلام والأمان في ظل حكومات الظلم والتعسف والدكتاتورية المتلاحقة.

لقد انعكست الاضاءات بعمق لمراحل ومحطات وبكل تفاصيلها بشكل استثنائي ، بالاشارة لاحداث ووقائع لم تزل جراحاتها خضلة ولشخصيات شكلت عناصر فاعلة في سيرة الشعب ولتضيئ مسيرة مناضلين تحملوا المكابدات والآلام والاوجاع، مسيرة مفعمة بالصدق كتبت بلغة أدبية سلسة تتماهى مع السرد في جميع فصولها.

ونجد فيها أنموذجا مليئاً بالأمانة لحكاية تماثلت مع حكايات الآف العراقيين في الشتات والغربة.. عن وطن حملوه أمانة بضمائرهم وبات طارداً لأبنائه المخلصين.. لم يزهر الحب في واحته ولم يكتمل... يالغرابة والاسى...

طه عجام